شيوعيون و ناصريون

د. فتحى عبد الفتاح

كتب صــدرت للمؤلف

- **وجه امريكا القبيح (مع آخرين)**
  دار الكاتب العربى ١٩٦٧
- **الثقــافة والقرية**
  دار للكاتب للعربى ١٩٦٨
- **قصص ريفية**
  القــاهرة ١٩٧٠
- **القرية المصرية**
  دراسة فى الملكية وعلاقات الانتاج
  دار للثقافة الجــديدة ١٩٧٣
- **القرية المعاصرة**
  من الاصــلاح والثورة
  دار للثقافة الجــديدة ١٩٧٤
- **التعاونيات الزراعية فى مصر**
  دراسة قــدمت فى ندوة عالمية حــول
  مشاكل التطور الزراعى فى الدول النامية
  موســـكو ١٩٧١
- **تجربة الثورة فى اليمن الديمقراطى**
  بيروت ـ دار ابن خلدون ١٩٧٥
- **شيوعيون وناصريون**
  روز اليوسف ١٩٧٥

الاشراف الفنى محمد سليم

مقـدمة الطبعة الخامسة

لست أدرى بالضبط اى طبعة هـذه ، هـل هى الرابعة ام الخامسة ..

الذى أعرفه انه ومنذ صـدرت الطبعة الأولى لهـذا الكتاب عن مؤسسة روز اليوسف فى نوفمبر سنة ١٩٧٥ ، صـدرت لـه طبعتان ملاحقتان فى بضعة شهور فى اوائل سنة ١٩٧٦ ، نفذت كلها فى اقـل من شهر .

ثم عرفت بعـد ذلك ان دار نشر مجهولة فى بيروت اعـادت نشره عن طريق التصوير ، وبل وقرات بالصـدفة ان احـدى دور النشر العربيـة فى القدس المحتـلة ، لعلهـا دار نشر صلاح الدين ، قـد اصـدرت طبعة خاصة من الكتاب منذ سنوات لقـد ابهجنى وأسعدنى للغاية بالطبع هـذا الاحتفاء الواسع من جانب القارىء المصرى والعربى بهـذا الكتاب ، هـذا الاحتفـاء الذى اخـذ اشكالا وصورا فاقت كل تصوراتى :

- ففى الاسـتفتاءات التى أجريت لسنوات ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ اختير كأحسن كتاب ، وشارك فى الاحتياز نخبة ممتازة من الكتاب والصحفيين والفنانين ورجال الفكر تنوعت وتباينت منابعهم الفكرية ، كمـا تنـاوله غالبيـة الكتـاب بالنقـد والتحليـل .
- كان الكتاب موضوعا لرسالة ماجستير فى الادب السياسى فى جامعة ليبزج الشهيرة ، كما اعتمدت عليه عـدة دراسـات ادبيـة وسياسية كمرجـع اساسى لهـا وهى تؤرخ للمرحلة الناصرية .

● على ان الاهم من ذلك كله هى عشرات الآلاف من الرسائل التى تلقيتها من مواطنين فى مصر والعالم العربى ، ومن نوعيات وشخصيات مختلفة ، ليس فقط فى افكارها بل وفى اوضاعها الاجتماعية والطبقية .

ولن انسى تلك الرسالة التى تلقيتها من المرحوم الدكتور حسن فهمى الأستاذ فى كلية الهندسة ومؤسس فرقة رضا للفنون الشعبية والتى جاء فيها :

«.... اخذت ابحث عنك فى كل مكان بعد قراءتى لكتابك فهو ليس مجرد كتاب ممتاز ، بل واحد من تلك الكتب التى يمكن ان يطلق عليها وبثقة « كتاب فريد وعبقرى » ..

كنت ابتعد عن السياسة ، واعتبرها حرفة مختلفة تماما عن حرفتى ، ولكنى احسست باننى واحد من هؤلاء « السذج الغافلين » الذين قدمتهم فى كتابك ، والذين غرقوا فى دراساتهم وفى حياتهم الخاصة دون ان يلتفتوا حولهم ليروا كيف تمضى الأمور فى مجتمعهم ويرتبطون بمشاكله وهمومه ..

اعاهدك يابنى اننى ساحاول ان اغير من هذا فى سنوات العمر الباقية لى ، لعلى استطيع ان افعل شيئا على الأقل فى الهدف الذى كرست حياتك للدفاع عنه وهو ان تكون مصر للمصريين جميعا ، دون تمييز او اضطهاد ، للنساء والرجال ، للعمال والمثقفين والمنتجين الحقيقيين بعيدا عن اى تعصب او ارهاب ، وبعيدا عن اى امتهان جسدى او نفسى ..

●

كان ذلك فى الواقع اغلى ثمن يمكن ان يحصل عليه كاتب .. علما بان كل ما حصلت عليه من حقوق التاليف لم يتجاوز

٣٠٠ جنيه .. وعلما بانني كان قد سبق لى واصدرت قبل هذا الكتاب ست كتب اخرى من دراسات سياسية واجتماعية وادبية بما فى ذلك مجموعة قصصية قصيرة ، وقد حظى بعضها وخاصة الدراسات المتحققة بالقرية المصرية باهتمام واسع ..

ولكن احدا منها لم يكن لـه هذا الدوى الواسع ، ولم يتبوأ مثل هذه المكانة المتفرده ..

ولقد دفعنى ذلك لأن اتوقف كثيرا عند التعليقات والنقد الذى نشر عن الكتاب ..

البعض اعتبره نموذجا جيدا للرواية الواقعية .. والبعض نظر اليه على انه وثيقة تاريخية هامة ، تسجل وقائع واحداث مرحلة خطيرة فى تاريخ مصر والعالم العربى ..

والبعض الآخر ناقشه على انه « سيرة ذاتية » تضمنت تجربة متميزه ..

اشاد البعض بالأسلوب ، وابرز البعض الآخر النهج الموضوعى فى سرد الأحداث وتناولها ..

على أننى حين سئلت قلت ، وما زلت اجد هذا القول مقنعا .. ان القضية ليست فى الأسلوب ..

وليست فى القدرة على التناول وعرض الأحداث ..
ولكنها قبل كل شىء تكمن فى خطورة التجربة نفسها ..

واذا كان يقال ان الأسلوب هو الرجل ، فان الكاتب هو التجربة ..وكلما كانت هذه التجربة « عامة وحقيقية » اى تتميز بصدقها وبالتجربة الانسانية فى مجملها ، كلما وجدت

طريقها بسهولة الى قلوب وعقول اوسع قطاعات ممكنة من القراء ..

فلقد كتبت ما كتبت وانا على قناعة تامة باننى لست بصدد عرض لمعاناة فرد او مجموعة افراد ..

ولم استهدف الدفاع عن فكرة معينة او مجموعة من الأفكار ، بل كنت متمثلا لقضية اوسع واعرض بكثير ، قضية لا تتعلق بسرد احداث التجربة فى الماضى ، بل تضع عينها فى الأساس على الحاضر والمستقبل ، قضية تطمح فى سد الطريق امام اى شكل من اشكال القهر البدنى او النفسى لأى مصرى او مصرية لانه او لانها تحمل آراء قد تتفق او تختلف مع الآخرين .

والفكرة النابعة من احتياج انسانى حقيقى ، لا تتوه او تضيع بمرور الأيام ، بالعكس تتعمق وتتاصل ، ولعل هذا هو الحد الفاصل بين اى ابداع فكرى او فنى حقيقى ، وبين الكثير من اللغو المكتوب الذى تكنسه رياح الزمن وتلقى به الى صحارى العدم ..

وبعد عشر سنين من صدور الطبعة الأولى للكتاب ، وعشرين سنة من احداث التجربة نفسها ، اجد نفسى اقف على نفس الشاطئ الممتد ، وارى كل ابناء وبنات مصر يطمعون مثلما اطمع فى اصدار قرار جماعى حضارى مصرى ، متمثلا التاريخ والتراث ، ومنطلقا لآفاق المستقبل ، وبان تكون مصر لكل المصريين قولا وعملا ..

●

حين يلقى الانسان بنظرة عريضة على الواقع العربى اليوم ، والواقع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى ، فلن يختلف احد فى ان هناك ثمة واقع جديد مختلف ..

واقـع تتبدل فيه القيم والمفاهيم ، وتدخـل عوامل جـوهرية فى تغير البيئة الفوقية والتحتية للمجتمعات ، ابتداء من المفاهيم والأسس الاقتصـادية الى التصورات الثقافيـة والفـكرية ..

تغييرات خلقت ثروات هـائلة على السطح ، وفقر مدقـــع فى الأعمـاق .. فمنذ اكتوبر سنة ١٩٧٣ وحـين عبر الأبطـال المصريون قناة السويس وخط بارليف ، وحتى الآن ارتفـــع سعر البترول لاكثر من عشرة أضعاف ، وتدفقت عائداته الهائلة الى شركات البترول فى المحل الأول ثم الى الدول المنتجة حتى ارتفع التراكم الراسمالى فى بعض الدول العربية الى آفاق غير مسبوقة فى التاريخ ..

وبغض النظر عن التحفظ ازاء التعبير الخـــاص بالتراكم الراسمالى اذ ان البعض لا يرى فى ارصدة الدول البترولية سوى مجرد فائض مالى او نقـدى ، الا ان هـذه الثروة الهائلة من « البترودولار » كان ولابد وأن تعكس نفسها فى المنطقة باكملهـا وليس فقط فى الدول البترولية ..

واخطر ما فى هـذه « الثروة الطارئة » انها جاءت فى غالبيتها بعيدة تماما او تكاد عن وسائل وعلاقات وقـوى الانتاج التى كانت وما زالت فى جـوهرها سائدة فى هـذه الاجتماعات ..

ونجـد انفسنا امام تناقض غريب ..

راس مال مالى متراكم يحسب بآلاف المليارات من الدورات ، وعـلاقات انتاجيـة واجتماعية متخلفـة ، تنتمى غالبيتهـا الى المجتمعات القبلية والعائلية والعرقية وجميع الأشـكال السابقة حتى على مرحلة التطور الراسمالى ..

هـذا التناقض الغريب أفرز لنـا اشكالا وانماطا حياتيـة

غريبة وغير متسقة ، ولكنها كلها تعنى فى النهاية انتصار قيم « الثروة » على قيم « الثورة » ..

وفقدت كثير من التعبيرات والمسميات معانيها الحقيقية .. فمن يدعون الى السلفية والتراث اليوم لا يستطيع الانسان ان يحدد تماما ماذا يستهدفون لانهم هم انفسهم غارقون حتى النخاع فى مظاهر الثروة ومباهجها ..

وعلى الطرف الآخر نجد البعض ممن ينادون بالثورة لايدركون تماما ماذا تستهدف او ماذا تعنى ، بل احيانا ما تكتشف انهم هم الآخرون وجه آخر لعملة « البترودولار » .

خلط غريب وجديد فى كثير من الأوراق والمسلمات السابقة .. وعلينا ان نعترف « بان ذلك الواقع الطارىء » سيستمر ولفترة يفرزلنا كما واشكالا جديدة من الأفكار والتناقضات ، ولكنه بالتأكيد وضع طارىء لا يمكن ان يستمر للأبد ..

فى هذه الفترة بالذات ، يحتاج الانسان العربى الى التمسك بالقيمة الأساسية التى لم تندثر بعد ، الخشبة التى يمكن فيما بعد ان نجعل منها سفينة النجاة وسط عواصف واعاصير البترودولار ، وهى احترام حقوق الانسان العربى ، حقه فى ان يعبر عن رايه بالقول والكلمة بعيدا عن اى مخاوف لظلم او اضطهاد انها القضية الملحة التى يجب ان نكسبها وان نفرضها فى عالمنا العربى .

ففى مرحلة الترانزيت التى نعيشها تصبح حرية الراى واحترام انسانية الانسان هى الجوهر والمنقذ الوحيد الذى يمكن به للانسان العربى ان يعيد اكتشاف ذاته ومجتمعه ..

ومن هنا تصبح التجربة التى اقدمها جهدا على الطريق الشاق الذى يحاول ان يخرج بالانسان العربى الى آفاق التنوير الانسانى حتى لا تغرق فى الهوة السحيقة التى تعدلنا ..

ودعنا نامل ..

القاهرة ـ سبتمبر سنة ١٩٨٥

فتحى عبد الفتاح

حولك اشباح الاكاذيب وانت
تقيمين لها سوق الاوهام تعالى
بعيدا عن هنا .. ياطفلتى ..
(طاغور - مسرحية الناسك)

اول يناير سنة ١٩٥٩ :

وصلت الى الجريدة فى الساعة السادسة صباحا ، دعك عامل المصعد الصغير عينيه وكتم مشروع تثاؤب ، فلم يكن قد حضر بعد سوى عدد قليل من عمال النظافة ، وحتى « عم محرم » ساعى مكتب القسم الخارجى لم يكن قد حضر .

لم أكن أعرف بالضبط ما الذى دفعنى للحضور للجريدة فى هذا الوقت المبكر . حقيقة ان العاملين فى القسم الخارجى كانوا مطالبين بالحضور المبكر ، ولكن ليس الى هذه الدرجة فلقد كان هناك أكثر من ساعة كاملة على ان اقضيها وحدى قبل حضور أحد من الزملاء والزميلات ، فمابالك واليوم هو أول السنة الجديدة بما حفلت به الليلة السابقة من حفلات وسهر حتى الصباح .

كذلك فان وجود بيتى قريبا من الجريدة كان يتيح لى فرصة التحكم فى الوصول فى موعد العمل دون حاجة الى اتوبيس أو تاكسى أو حتى عربة الجريدة . فما كان على الا أن اقطع بعض الحوارى فى بولاق لاصل الى شارع الصحافة حيث مبنى الجريدة .. وطوال العامين الماضيين أى منذ التحقت بالعمل فى « المساء » وأنا استيقظ فى حوالى السابعة وفى السابعة والربع أجلس على مكتبى .. ميزة كنت اتمتع بها ويحسدنى عليها الزملاء ، وخاصة الزميلات اللاتى يقيم بعضهن فى مصر الجديدة ويضطررن الى ان يبكرن بساعة على الاقل قبل الموعد تحسبا للمواصلات .

وجاء « عم محرم » وقرات دهشة فى عينيه الغائرتين كعيون الفار ، وقبل ان ينطق بكلمة كنت قد طلبت القهوة والشغل .. ولابد ان الرجل قد استشعر ان الامر خطير ، فأخذ يهرول بسرعة الحيل الى غرفـة « التكرز » ويجمعهـا بدون ترتيب ليضعها امامى ومعها جرائد الصباح ، والحقيقة انه لم يكن لدى أى حماس للعمل ، وكنت قد قرأت جرائد الصباح فى بوفيه « المحطة » ، ولذلك ازحت اكوام التكرز وعدت الى حالتى التى كنت عليها طوال الليل ، استكمال لما كان يشغلنى طوال ليلة امس والتى لم انم فيها ربما ليس عن قلق فقط بل عن رغبة أيضـا .

والحقيقة اننى حتى لو كنت اريد النوم فلم أكن لاستطيع فلقد كنت اعيش اياما غاية فى الصعوبة والتعقيد ، ولقـد جربت من قبل وطوال حياتى الجامعية اياما سوداء ولكنها لم ترق ابدا الى مستوى هـذه الايام ، ففى السـنوات الخمس الماضية فقدت « الام » ، وكنت فى أول عام فى الجامعة ، وبعد ذلك ومنذ عامين فقط ، فقدت أخى الاكبر « انيس » ، وقـد كان صديقا ورفيقا فوق كونه أخى ، عشنا سويا فى القاهرة، هو فى الحقوق ، وأنا فى الاداب ، تجمعنا غرفة ، وأحيانا شقة، ثم مات فجأة بعد مرض قصير .

وفى هذا العام كنت قد فقدت أيضا ماتصـورته فى ذلك الوقت أكبر تجربة عاطفية مرت بى .. زميلة تعلقت بهـا وتعلقت بى ، تزاملنا فى الكلية ثم عملنا فى الصحافة بعـد التخرج .. ثم اكتشفت بعد ذلك اننى عشت واهما أو متوهما .. وان وظيفة محرر فى جريدة مسائية ومرتب لايزيد عـلى العشرين جنيها لايمكن ان تكون اغراء كافيا لزميلتى ، وخاصة اذا دخل المنافسة بعض الكهول من العاملين فى الصحافة ممن لهم اسماء لامعة ومرتبات دسمة .

وفى كل هـذه المناسـبات كان الالم يعتصرنى فالجأ الى الهروب والنسيان .. حين ماتت أمى لم ادخل الدور الاول فى الامتحان ، فلقد كان من الصعب على أن اجلس الى مكتب او كتاب .. ونجحت فى الدور الثانى وانكسرت حدة الازمة ،

وحين مات أخي كنت قد حصلت على الليسانس وعملت في الجريدة اغرقت نفسى فى العمل ووجدت فيه بعض السلوى .

وحين صدمت فى حبى ، أخذت اجازة من الجريدة وذهبت الى الاسكندرية لمدة اسبوعين ، وحينما عدت الى الجريدة اكتشفت ان البحر استطاع ان يغسل الآمى وحبى ، وكنت أول من هنأ زميلتى بخطيبها الجديد .

ولكن هذه المرة كانت المسائل أعنف واقوى واعمق . فلم تكن ازمتى وحدى ، او ازمة الجريدة التى اعمل بها ، بل كانت ازمة تعيشها البلد كلها .

كان ذلك فى اول ساعات عام ١٩٥٩ ، وكانت الامور تمضى فى وتيرة سريعة وغريبة وغير مفهومة وكانما تدفعها قوى خفية لايعرف احد مصدرها .. وكانت التطورات اليومية تمضى فى خط معاكس تماما لكل المقدمات التى توحى بها السنوات الماضية (الثلاث) .

فمنذ اقل من عدة شهور كنت اتصور ومعى الكثيرون ان حركة التحرر العربى بقيادة الثورة المصرية ، وجمال عبد الناصر على وجه التحديد ، قد كسبت المعركة نهائيا ضد قوى الاستعمار والتخلف فى المنطقة ، وكانت جريدتنا تعكس ذلك فى ثقة ووضوح . ولقد ولدت جريدة المساء فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وعاصرت امجاد وانتصارات الشعب المصرى فى مواجهة العدوان الثلاثى بعد شهر من الصدور . ومنذ ذلك التاريخ والثورة المصرية تحقق المزيد من الانتصارات ، وبرز جمال عبد الناصر كقائد وطنى شجاع وكنموذج للقيادات الوطنية المخلصة ، ليس على النطاق المصرى والعربى فقط ، بل وعلى النطاق العالمى .. فبعد الانتصار على العدوان الثلاثى على مصر والذى اشتركت فيه انجلترا وفرنسا واسرائيل ، ثم قوانين التمصير التى ضربت المصالح والشركات الاجنبية التى كانت تنهب الاقتصاد المصرى ، ثم الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٥٨ ، واعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة ، ثم سقوط النظام الملكى الاستعمارى فى العراق فى يوليو سنة ١٩٥٨ ، وانهيار حلف بغداد .

كل تلك المكتسبات الرائعة فى خلال فترة زمنية قصيرة كانت توحي بأن احلام الشعب المصرى ، بل والشعوب العربية كلها فى التحرر من الاستعمار والاستغلال والصهيونية قد اصبحت وشيكة ·

ولهذا كله فلقد كان ما يحدث فى الشهور الاخيرة لعام ١٩٥٨ ، أى بعد أقل من ستة أشهر أمرا لم يكن لاحد ان يتنبأ به ، حتى أكثر الناس تشاؤما من قوى الثورة العربية ·· ولم يكن لاحد ان يحلم به حتى أكثر الناس اخلاصا للمصالح الاستعمارية والرجعية · كانت الصورة قد تبدلت تماما أو هكذا كانت تبدو على السطح ·· الحكم الوطنى فى العراق ، والذى جاء متمثلا بكل شعارات ثورة يوليو يدخل بعد اقل من شهرين من قيام الثورة فى تناقض مع القيادة الوطنية فى الجمهورية العربية المتحدة وتبدا تبادل الاتهامات والتراشق بالالفاظ خفيفا ومستترا فى البداية ، ثم ينفجر فى معركة عنيفة ، سوداء ، فتهاجم القيادة العراقية الجمهورية العربية المتحدة بشراسة وعنف كما لو كانت هى نفسها الولايات المتحدة الامريكية · وترد الجمهورية العربية المتحدة لتهاجم العراق كما لو كانت هى نفسها بريطانيا العظمى ·

وتفشل كل المحاولات التى بذلتها القوى الوطنية العربية لراب الصداع ، بل وتدخل هذه القوى فى صراع مدمر بينها وبين نفسها ·· ليس ضد اسرائيل ؛ أو ضد القواعد والمصالح الاستعمارية فى المنطقة ·

واصبحت القضية هى معركة بين الناصريين والبعثيين والماركسيين ، ووقفت القوى الرجعية والعميلة فى المنطقة وقد تنفست الصعداء بعد ان وجهت لها ضربات قاسية طوال السنوات الثلاث الماضية ، بل وتبدا هذه القوى فى القاء المزيد من الزيت على الصراعات العنيفة التى بدأت تدور بين هذه القوى والتى كانت حتى الأمس القريب تجمعها وحدة فى الشعارات والعمل ·

وأصبحت كلمة ناصرى أو بعثى أو ماركسى مرتبطة بكثير من النعوت والصفات الغريبة داخل كل بلد عربى ، فالبعض فى العراق يرى فى « الناصرى » ناصرا للاستعمار ، والبعثى نموذجا للانتهازية والعمالة والبعض فى مصر يرى فى الماركسى خائن وعميل ، والصحف في العراق لا هم لها الا الهجوم على عبد الناصر والنظام فى الجمهورية العربية المتحدة .. كنظام توسعى دكتاتورى يسعى الى اغتنام الخيرات العربية والتنسيق مع الاستعمار والولايات المتحدة الامريكية والصحف فى مصر وسوريا لاترى فى عبد الكريم قاسم والنظام العراقي سوى نظام شيوعى عميل للشيوعيين ومعاد للقومية العربية ويعمل بوحى من الاستعمار البريطانى .

كيف حدث هذا ؟؟ .. وفى خلال شهور فقط من الثورة العراقية التى كانت فى حد ذاتها تعبيرا عن انتصار عبدالناصر ومبادئه فى مطاردة الاستعمار فى المنطقة ؟؟ .

هذا ماكان يحير الكثير من الوطنيين ، وكنت واحد منهم والذين لايرون مبررا موضوعيا واحدا لكل تلك المعارك القاسية ، بين القوى صاحبة المصلحة الحقيقية في معاداة الاستعمار وتحقيق الأماني والطموحات المشروعة للقومية العربية والشعوب العربية .

كانت هذه هى الصورة العامة للازمة .. ولكن الازمة بالنسبة لجريدتنا كانت تعنى شيئا أكثر تحديدا .. فلقد كانت « المساء » بعد « الجمهورية » هما الجريدتان اللتان انشئتا فى عهد الثورة .. وحينما استدعى جمال عبد الناصر زميله وصديقه خالد محيى الدين سنة ١٩٥٦ وطلب منه انشاء جريدة جديدة ، طلب منه ان تكون جريدة وطنية تقدمية تعبر عن طبيعة المرحلة التى يمر بها النضال المصرى والعربى .. واستعان خالد محيى الدين بعدد من الكتاب والصحفيين اليساريين والماركسيين ، وخرجت المساء فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، لتعبر عن الخط الوطنى الديمقراطى المعادى للاستعمار العالمى ، ولتثير الكثير من القضايا الداخلية والخارجية التى لم تكن تحوز فى الصحف الموجودة فى ذلك

الوقت سوى مساحات قليلة .. ولقد كانت الصحف الموجودة حتى ذلك الوقت فيما عدا جريدة الجمهورية صحفا قديمة لها تراثها وتفكيرها الخاص قبل سنة ١٩٥٢ .

كانت هناك الاخبار التى يصدرها الاخوان أمين بمدرستهم المعروفة فى الاثارة والتسطيح وتجاهل القضايا الاجتماعية

وكانت هناك الاهرام التى مازال يحكمها خط أبناء تكلا منذ تاسيسها فى أواخر القرن التاسع عشر وهو خط فاتر بعيد عن الانغماس فى المشاكل الواقعية للمجتمع المصرى .. وكانت هناك جريدة القاهرة المسائية تمولها المملكة السعودية . أما الجمهورية وهى الجريدة التى انشاها عبد الناصر ، وكان صاحب امتيازها ورأس تحريرها أنور السادات فبالرغم من خطها الوطنى الذى برز من اللحظة الاولى الا أن صفة الرسمية التى اصطبغت بها من البداية كانت تتيح الفرصة للصحف الاخرى للنيل منها .

وهكذا كان صدور جريدة المساء هو فى الواقع تقديما لمدرسة جديدة فى الصحافة المصرية .. افردت الصحيفة ومن العدد الاول صفحاتها الواسعة للهجوم على الاستعمار والمصالح الاستعمارية ، ليس فى مصر وحدها والبلاد العربية ، بل وفى العالم كله . وكانت هناك أبواب مثل : من كفاح الشعوب و أضواء على الاستعمار العالمى وقضايا ومشاكل داخلية . وغيرها من الابحاث والدراسات الجادة التى تقدمها الصحيفة بالنسبة للمشاكل الداخلية والخارجية .

ولذا اشفق كثيرون على هذا اللون من الصحافة الجادة والمقاتلة فى مواجهة أكبر مدرسة كانت تتصدر العمل الصحفى فى ذلك الوقت وهى مدرسة أخبار اليوم ، والتى كانت تعتمد على الموضوعات الخفيفة والمثيرة ، ويومها زار مصطفى أمين خالد محيى الدين فى مكتبه فى المساء وكانت المسافة بين مبنى اخبار اليوم ومبنى المساء لاتتجاوز مائة متر وقال مصطفى أمين ضاحكا لخالد « لو وزعت الجريدة الجديدة عشرة آلاف فانها تكون قد نجحت أما خمسة عشر ألفا فستكون قد تفوقت » .

كانت تلك تقديرات مصطفى أمين يوافقه عدد كبير من العاملين فى الحقل الصحفى بما فيهم العاطفون على الجريدة الجديدة وصدرت الجريدة ، وواكب صدورها العدوان الثلاثى على مصر وبلغ توزيعها فى تلك الفترة فوق المائة الف ، وكانت تطبع أحيانا أكثر من طبعة ، بل وتصل الى ثلاث طبعات .

ووصل متوسط التوزيع فى الايام العادية حوالى ٦٠ الف نسخة ، وهو رقم كان يفوق كثيرا من الصحف الصباحية فى ذلك الوقت .

ولقد كان من الطبيعى ان تجتذب الصحيفة عناصر كثيرة من المثقفين ذوى الاتجاهات الوطنية واليسارية ، فبالاضافة الى عدد من الشبان الذين عملوا فى مختلف اقسام الصحيفة وبالذات فى القسم الخارجى الذى عملت فيه كان هناك ايضا عدد من الكتاب والمفكرين اليساريين الذين يعملون فى الصحيفة أو يساهمون فى تحريرها . فهناك عبد العظيم أنيس ، ولطفى الخولى ، وعلى الشلقانى ، وسعد التاته واديب ديمترى ، واسماعيل صبرى ، وعلى الراعى ، وشهدى عطيه وفوزى منصور ، ومحمد عوده ، ومصطفى بهجت بدوى ، وعادل ثابت ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمود العالم ، وأنور عبد الملك ، والدكتور حسين كمال الدين ، ودكتور عبدالرازق حسن .

اما الشبان والذين كنت واحد منهم ، فلقد اتجهنا الى العمل فى (المساء) عن ايمان بانها المنبر الوطنى الديمقراطى الذى نستطيع ان نعبر فيه عن مفاهيمنا واحلامنا فى بناء مصر الوطنية الديمقراطية .

وكان غالبنا حديثى التخرج ، وبعضنا عمل بعض الوقت فى صحف أخرى قبل صدور المساء ، ولكن الخط الفكرى الذى خرجت به وعبرت عنه المساء كان قوة جذب لنا .

بل اننى وقد عملت بعض الوقت فى صحيفة الجمهورية من خلال علاقة قرابة للاستاذ أحمد قاسم جوده رئيس تحرير الجمهورية فى ذلك الوقت ، ثم انتقلت للعمل بعد التخرج فى

القسم الخارجي لجريدة الاخبار مع الاستاذ مصطفى غنيم ، وجدت نفسى مدفوعا أو مندفعا للعمل فى المساء رغم ان الاجر او بمعنى ادق المكافاة التى اقترحت لى فى المساء كانت أقل بكثير مما كان يعرض فى الاخبار ٠

وسبقنى ولحقنى عدد آخر من الشبان ، جميل عبد الشفيع طاهر عبد الحكيم ، فيليب جلاب ، بهيج نصار ، عايدة ثابت ليلى الجبال ، ابراهيم وهبى ، عدلى برسوم ، اسماعيل المهداوى ، عبد الفتاح الجمل ، فاروق منيب ، جيل عبدالرحمن امير اسكندر ، بدوي محمود ، عبد السلام مبارك ، سعيد عثمان ، اميمة أبو النصر ، عايدة صالح ، صبحي الشاروني ، مصطفى الحسيني ، فوزى سليمان وعبد المجيد أبو زيد ، أمير العطار الخطيب عباس ، شفيق خالد ٠

وهكذا كانت هيئة تحرير المساء سواء كانت لامعة أو نصف لامعة أو من الدم الجديد الشاب يمكن كلها ان تندرج تحت توصيف سياسى هى أنها عناصر وطنية ديمقراطية ٠

كان هناك الماركسيون والاشتراكيون الديمقراطيون والليبراليون ،بعضهم ممن له تاريخ طويل فى العداء للملكية والاقطاع والنظام القديم الذى انهار منذ اربع سنوات ، وبعضهم دخل السجون والمعتقلات قبل ثورة سنة ١٩٥٢ ، وحتى بعدها فى بعض الفترات التى لم يكن مسار الثورة الوطنى الديمقراطى قد تحدد بوضوح وبالذات سنة ١٩٥٤ ، حينما كانت الولايات المتحدة الامريكية تكثف جهودها من أجل احتواء الثورة وقيادتها ٠

ولكنهم كلهم ومنذ سنة ١٩٥٦ ، كانوا يساندون الثورة فى خطوطها العامة وخاصة وقد اتضحت هويتها الوطنية ومنطلقاتها الثورية فى العداء للاستعمار العالمى والمعارك السياسية والعسكرية معه ابتداء من رفض وتحطيم حلف بغداد الى تاميم القناة ومواجهة قوى العدوان الثلاثى ثم كشف وفضح الاهداف الاستعمارية والامريكية منها على وجه خاص فى المنطقة والحاق الفشل بمشروع ايزنهاور ونظرية الفراغ

التى تكشفت عنها مخططات جون فوستر دلاس وزير الخارجية الامريكية .

وبالاضافة الى الحماس الشديد الذى عكسته صحيفة المساء للسياسة المعادية للامبريالية التى اعلنتها وتابعتهـــا القيادة الوطنية في مصر فى ذلك الوقت ، دأبت الصحيفة ايضا على اثارة ومناقشة عدد من القضايا الحيوية والهامة التى ترتبط بخط التطور الاجتماعى والاقتصادى .

وخصص لاول مرة فى الصحف المصرية صفحة فكرية هى الصفحة الخامسة ، كانت تتناول وتعالج الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية بمنهج جديد يضع فى اعتباره مصلحة الغالبية العظمى من السكان وخاصة العمال والفلاحين .

واثيرت قضايا مثل تطبيقات قوانين الاصـــلاح الزراعى والسياسة التعليمية والثقافية والاسعار والاجور والتنظيمات النقابيــة والتخطيط الاقتصـــادى ، وهكـــذا وبكل المعايير الموضوعية كانت صحيفة المساء أكثر الصـــحف تعبيرا عن افكار وبرامج الثورة الوطنية الديمقراطية وكانت فى الواقع تجسيدا لجبهة وطنية عريضـــة تضم جميع المدارس الفكرية الوطنية والاشتراكية .

ولهذا كان من الطبيعى ان تكون المســـاء بخطها وهيئة تحريرها أكثر الصـــحف تحفظا واحساسا بالمســـئولية ازاء الانقســـام المفاجىء الذى طرأ عـلى الجبهة الوطنية العربية فى لحظة كان يعتبرها الجميع قمة انتصار هذه الجبهة وقيادتها .

والتزمت المساء منذ بداية الازمـة بين القيـــادة المصرية والعراقية فى ذلك الوقت بموقف مبدئى وواع بالمسئوليـــة ازاء ضرورة وحدة الصف بين جميع القوى الوطنية ، ولذلك نأت عن الدخول فى معـارك الشتائم والشتائم المضـادة ، بل واخذت تحذر من مغبة انقسام القوى الوطنية العربية فى تلك الفترة العصيبة .

وفى الوقت الذى كانت صحف ومجلات اخبار اليوم تزيد النار اشتعالا وتدخل من اوسع الابواب فى كل ســـطورها

معارك المهاترات بانتشاء وحرفنه ليس حرصا على هذا أو ذاك بل عملا على توسيع هذه الخلافات بين القوى الوطنية العربية تمهيدا واستعدادا للقضاء على كل القوى المتناحرة ، سواء كانوا ناصريين او بعثيين او ماركسيين او قوميين عرب :

ودخل الساحة قوى غريبة ومريبة الافاقون ومحترفى الانقلابات والعملاء السائرون للاستعمار فى المنطقة ، وكاد يتوه العقل والمنطق ، بل لقد تاه بالفعل وسط طوفان من الشتائم والاتهامات المتبادلة ٠

ووسط هذا الجو المشحون بالانفعالات والتشنجات ، كانت المساء هى الجريدة الوحيدة ، وربما فى العواصم الثلاث،القاهرة ودمشق وبغداد ، هى التى تكافح بالعقل والمنطق ٠

واخذت تؤكد فى مقالاتها وافتتاحياتها عن ضرورة الوحدة الوطنية وتحذر من المنزلقات التى يرميها الاستعمار والرجعية فى الطريق وتؤكد ان مايجمع القوى الوطنية المختلفة سواء كانت ناصرية او بعثية او ماركسية او قومية ، اكثر بكثير مما يفرقها ، بل واخذت بموضوعية شديدة تناقش بعض القضايا الخلافية بين القوى والتنظيمات الوطنية المختلفة مثل قضية الوحدة والديمقراطية والقومية ٠

وكانت تاتى ايام تبدو فيها الامور كما لو ان العقل قد انتصر فتخف حدة الشتائم والاتهامات المضادة ، وفجأة يصدر تصريح من بغداد او من القاهرة ربما على لسان واحد من صغار المسئولين فيتكهرب الجو مرة أخرى وتنطلق شحنات حاقدة ومدمرة وغريبة ٠٠ وستظل اسماء مثل : فاضل المهداوى فى بغداد ، وموجهى صحف أخبار اليوم ، ومدير اذاعة صوت العرب وكثيرون غيرهم تثير دائما علامات استفهام كثيرة حول دوافعها واهدافها الحقيقية فى اشعال نار الخلافات بين القاهرة وبغداد فى تلك الفترة فى وقت كانت القيادة فى البلدين تنتمى بالقطع لجذر وطنى واحد ، بل وتنطلق من اساس واحد تقريبا ٠

فلقد كان سخيفا ما ردده البعض فى بغداد من ان فى

للقاهرة نظام توسعي يسعي لضم الدول العربية أو نظام يقوم بدور الشريك للامبريالية الامريكية في اهدافها .

كما كان يساويه في السخف ما ردده البعض في القـاهرة ان في بغداد نظام شيوعي أو عميل للشـيوعية أو شريك للاستعمار البريطاني وأهدافه في المنطقه ، وكان هـذا حكم المنطق والاسس الموضوعية ، وهذا ما اكدته السنوات القليلة اللاحقة .. ولكنها بحق فترة غير منطقية في تاريخ المنطقـة او هكذا كانت تبدو لبعض العقلاء .

★★★

كان الزملاء قد بدءوا يفدون .. مجموعـة الدقي والجيزة والاطراف المجاورة أولا .. سعيد عثمـان والخطيب عبـاس وعبد العزيز فهمي وطاهر عبد الحكيم .. وكانت هناك اخبار غير عادية وخاصة على وجه طاهر الذى تشـير ملامحه بالحزن والغموض .

وقبل ان أجد الفرصة لاتأكد كانت مجموعة مصر الجديدة والعباسية والحدائق قد وصـلت ، وقالت عايدة ثابت وهي تضع حقيبتها وترمي جسدها على المقعد في انهداد واضح :

ـ لقد قبضوا على عبد العظيم الليلة في الفجر .

هكذا مع أول شعاع للعام الجديد الذى لم يكن قد انقضى على ميلاده بضع ساعات .. واستبد الصمت بالمجموعـة ليـس لانهم فوجئوا ، فلقد كانت المظاهر والاحـداث في في الاسابيع الماضية تسير في اتجاه يمكن أن يصل الى هـذا الحـد .

ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن تجرى الاحداث بمثل هـذه السرعـة ، بل ان الدكتور عبد العظيم نفسه كان قد قال لى صباح اليوم السابق :

انني اتوقع ان يسود العقل في النهاية فليس هناك مصلحة لاحد في استمرار هذا الشقاق بين القوى الوطنية .

كان عبد العظيم متفائلا مثـل كثيرين من قيـادة الحـركة الشـيوعية المصرية في تلـك الفترة بـل كانت البيانات التى

كانت يصدرها التنظيم الشيوعى سواء « مجموعة الاغلبية » بقيادة أبوسيف يوسف واسماعيل صبرى عبد الله ، وفؤاد مرسى ، أو « مجموعة الاقلية » (١) بقيادة كمال عبد الحليم وشهدى عطيه الشافعى تلتقى كلها حول ضرورة محاصرة الخلاف القائم بين القوى الوطنية وتعلن ثقتها فى أن عبد الناصر والقيادة الوطنية فى مصر ستدرك خطورة اتساع هوة هذا الخلاف الذى لن يستفيد منه سوى قوى الاستعمار والرجعية فى المنطقة .

والتف عدد من الزملاء والزميلات حول عايدة يستفسرون ويهدئون فى نفس الوقت من حالة الانهيار الكامل الذى بدا على ملامح وجهها الشاحب ، والتى فقدت زوجها أكثر من العمل ، وهى التى لم يكن قد مضى على زواجها أكثر من شهور .

ووجدت طاهر عبد الحكيم بوجهه الحزين الغامض يدفع بيده ورقة طواها جيدا وتناولت الورقة « لقد اعتقل فجر اليوم عدد كبير من الزملاء .. بهيج نصار وجميل عبد الشفيع وكل القيادات المركزية فى الحركة الشيوعية وعدد من العناصر الديمقراطية » .

وطويت الورقة فى صمت وبدأت فى ترجمة الاخبار .

---

(١) احب ان انوه هنا الى اننى استخدم تعبير الاقلية بالمعنى الكمى فقط فلست احب ولم بعد من المصلحة الدخول فى تفصيلات حول هذا الموضوع والتهم التى تبادلها الفريقان لفترة .. فلقد كانت تعناعنى ومازالت أن الخلافات من الفريقين لم يكن لها جذورا موضوعية ولقد اثبتت الاحداث صدق ذلك .

فلنتركها اولا تنفث لهيبهـــا وتبتلع العالم حتى يمتلىء فمها بالرماد ثم اخيرا ، ومن خلال بقايا الحريق تأتى الفضـــيلة .

(كازانتزاكس — الاخوة الاعداء)

١٣ مارس ١٩٥٩

تجمعنا فى مكتب مصطفى بهجت بدوى أو مصطفى بك كما نسميه . والواقع ان هذا الضابط والشاعر الشاب الذى كان يعمل مديرا للادارة حاز وبشكل سريع ثقتنا .

وقد كان كل ما اعرفه حين بدأت العمل فى جريدة المساء انه واحد من الضـــباط الشبان الذين شـــاركوا فى حرب فلسطين وتحمسوا لثورة يوليو كما كان يقرض الشعر وينشر بين الحين والآخر بعض قصائده وخاصة فى مجلة الاشتراكى للاستاذ أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى « مصر الفتاة سابقا » .

وكانت الفكرة الشائعة انه من أهل الثقة ، وان عبد الناصر قد اختاره مديرا للادارة فى جريدة المساء ليكون فى الصورة مع خالد محيى الدين ، ولكن هذه الصورة اختلفت بعض الشىء بعد أن عملت معه لمدة عامين ، لقد عرفت فيه أولا وقبل كل شىء الوطنى المتحمس الذى قد نختلف معه فى كثير أو قليل ولكنك لايمكن ان تشك فى حماسه الوطنى ، كما كان يتسم بأدب شديد واخلاقيات « نظيفة » فى معاملته .

ولذلك وحينما أخذ « عم محرم » يمر علينا واحدا واحدا ويهمس فى أذننا بأن « مصطفى بك » يريدنا ، كنا ندرك أو على الاقل نحس بما هو قادم . فبالأمس صدر قرار بتعيين الاستاذ مصـــطفى المستكاوى رئيسا لتحرير المساء بدلا مـــن خالد محيى الدين .

ووقف الرجل الطيب على مكتبه وعلى وجهه آلام حقيقية ، وفى عينيه حـــزن غير مصطنع ، وقال وهو يجاهـد ان يكون طبيعيا :

ـ « آسف اذا كنت أحمل لكم اخبار غير طيبة ، ولكنى على يقين من أنكم تقدرون الظروف ، ولعلكم مثلى تؤمنون بأنهـــا ظروف طارئة سرعان ماتنجلى على خير » ٠
وتوقف الرجـــل ثم فتح درج مكتبه وتناول عـــددا من الخطابات واخذ يمر علينا ويسلم لكل منا خطابه وهو يقول :
ـ « لقد تعمدت ان أكون انا وليس غيرى الذى يســـلمكم تلك الخطابات » ٠

وقبل ان ننصرف قال مصطفى بك فى كلمات حماس « احب ان انقل لكم أن المسئولين أكدوا لى ان هذا هو أقصى اجـــراء سيتخذ معكم ٠٠ وليس هناك اعتقال ٠٠ !! »
كان الرجل صادقا حقا فى نقل ماقالوه له ، ولكن ذلك لم يمنع بعضنا من ان يدرك السخرية الكامنة فى هذا الكلام ٠
وخرجنا ، ١٣ محرر ومحررة نحمل خطابات ممهورة باسم مدير الادارة ورئيس التحرير ، تقول :

« بعد أن تقرر اعادة تنظيم جريدة المساء على اسس جديدة لذلك فلقد قررنا الاستغناء عن خدماتكم ابتداء من ١٣ مارس ١٩٥٩ ٠٠ ٠٠ الخ ٠٠ »

وذهبنا شبه طابور منتظم الى القسم الخارجى ، فقد كانت غالبية الدفعة المفصولة من هذا القسم ، وبدأ كل يفتش عن اوراقه الخاصة فى الادراج ٠

كان جوا غريبا ومثيرا ٠٠ وموحيا أيضا فلقد حســـمت قضايا كثيرة طالما اقلقتنا فى تلك الشهور الثلاثة الماضية ، أى منذ اعتقالات أول يناير ١٩٥٩ ، بل ولا اتجاوز الحقيقـــة اذا قلت اننى احسست بالراحة بعد ان كنت اعيش دوامـــة حقيقية فى الفترة الماضية ٠
كانت الامور غامضة طوال تلك الفترة ، والاعصاب مشدودة ٠٠ تصبح على خبر وتبيت على خبر آخر (٠) يتأكد فى يوم ان

هناك من يدبر مذبحة للشيوعيين والقوى التقدمية ثم يصفو الجو فى اليوم التالى ·· والآراء تتضـــارب وتختلف وتقع فى حيرة ، خالدمحيى الدين يلتقى بجمال عبد الناصر ، ثم يؤكـد ان الازمة حوصرت وان المعتقلين سيفرج عنهم ويشيع جـــو من التفاؤل ، بل ونتلقى رســائل من زملائنـــا المعتقلين فى القلعة كلها تفاؤل ، ولكن اخبـار اليوم تشـــعل النـار فى مانشتاتها كل يوم ·

وتمتلىء صفحاتها الاولى باثارة غريبة بين القوى الوطنيـــة ·· ولكنا وبعد استرداد الانفاس فى اعقاب حملة الاعتقالات الواسعة فى أول يناير والتى شملت حوالى مائتين من القيادات الماركسية والديمقراطية ، بدأنا نرد ونوضـح ونكتب مرة أخرى فى اتجاه شجب كل المحاولات التى تبذل للوقيعـة بين القوى الوطنية ·

وفى ٨ يناير ١٩٥٩ ، كتب خالد محيى الدين بمناسبـــة الاحتفال بعيد الجيش العراقى ·

« لاشك ان خطاب عبد الكريم قاسم يريح قلب كل عربى ويقطع عـــلى ذوى الاغراض السيئة طريقهم ويحفظ وحـدة الصف العربى فى المعركة ضد الاستعمار ، ويثبت لنا كذب تلك الانباء التى كانت تروجهـــا وكالات الانباء الغربيـــة وصحفهم وعملائهم » ·

وفى ٢٨ يناير كتب خالد محيى الدين أيضا حول حديث الرئيس جمـــال عبد الناصر فى التليفزيون البريطانى ، « ان الاستعمار العالمى بريطانى وأمريكى ، وغيره يريد ان يعكـــر صفو العلاقات بين الجمهورية العربية المتحـــدة ، والجمهورية العراقية،وعلينا نحن الشعوب العربية الانسمح لهذه المحاولات ان تنجح وان نفتح عيوننا » ·

وابرزت المساء تصريحات الرئيس عبد الناصر ردا عـــلى ســـؤال مندوب التليفزيون البريطانى حـــول الموقف مـن الشيوعيين العرب قال الرئيس : « حينما اريد أن أبدى رأيى فى نشاط الحزب الشـيوعى الســـورى فانى أبديه هنا فى

القاهرة ولا ابديه فى اذاعة لندن ، لان الحزب الشيوعى السورى وغيره من الاحزاب الشيوعية العربيــة هم عرب اولا ، ثم شيوعيون » .

واصل خالد محيى الدين طوال تلك الفترة فى كل المقالات الافتتاحية تاكيد ضرورة وأهمية وحدة الصف العربى والبحث عن نقط الالتقاء .

وكتب عبد العزيز فهمى فى بابه الاسبوعى « السياســة فى اسبوع » ، نفس المعانى ، وكتب زملاء كثيرون فى هــذا الاتجــاه .. ليس فى المســاء فقط ، بل وفى الجمهوريــة وروز اليوسف .

وكتبت فى هذه الفترة مقالين تحت عنــوان : « الوحــدة العربية بمعناها التقدمى » ، و « ظروف تمت فيها الوحدة » ، بمناسبة العيد الاول للوحدة المصرية السورية ، وقد عنيت بشرح المخاطر التى تتعرض لهــا حــركة التحرير العربى ، وخاصة اذا غلبنا التناقضات الثانوية بين القوى الوطنيـــة على التناقض الرئيسى القائم مع الاستعمار .

وقلت فى مقال آخر ان اعدى اعــداء الوحــدة هم الذين يغمضون العين عن الاخطاء ، بل ويصفقون لها .. ان كــل حريص على الوحدة العربية لابد وان يطالب بان تتوفر لهــا الاسس الموضوعية ، لكى تبقى وتستمر ، فبالامر ليس مجرد انفعالة عاطفية فقط ، ولكنه يتعلق بمصير وأمانى عزيزة على كل عربى .

وطالبت بان يكون هناك اساس ديمقراطى سليم ومؤسسات جماهرية وسياسية حقيقية ومعبرة عن حركة الجماهير لتلعب دورا فى دعم الوحدة حتى لاتصاب وحدتنا بنكسة .

وفى فبراير كان يبدو ان العقل والمنطق قد كسبا المعركة، بان ذلك فى عدد من المظاهر الواضحة مثل الخفيف من حدة الهجمات الاذاعية والاعلامية المتبادلة بين القاهرة ودمشق من ناحية ، وبغداد من ناحية اخرى ، وأصدر التنظيم الشيوعى فى مصر ـ بجناحيه ـ بيانات بهذا المعنى ، بل وبدأت حملـة جماهرية لجمع التوقيعات من الكتاب والعناصر الوطنيـــة

والديمقراطية تدعو الى وحدة الصف وحشد القوى ضـــد المؤامرات الاستعمارية والصهيونية ، وجاء خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة الذكرى الاولى للوحـــدة المصرية والسـورية فى ٢١ فبراير خطابا ايجابيـا هادئا ليس فقط خاليـا مـن اى هجوم على العراق ، بل انه اشاد بالعلاقات المصرية السوفيتية وبضرورة التضـامن بين القـوى الوطنية العربية ، وحذر من المؤامرات الاستعمارية ٠

كذلك فلقد أكد مجلس التضـامن الاســيوى الافريقى ، وكذلك مؤتمر الشباب الاسيوى الافريقى اللذين انعقـــدا فى القاهرة فى فبراير على ضرورة وحدة الصف العربى ضـد الاستعمار والصهيونية ٠

وفى العراق أيضا القى عبد الكريم قاسم خطابا رحب فيه باتصالات رسمية على مستوى كبير من المسئولية فى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية ، كمـا اصـــدر الحزب الشيوعى العراقى بيانا بهذا المعنى وبضرورة توحيد كل القوى صاحبة المصلحة فى الوحدة والتقدم ٠

بل لقد شاعت اخبار فيها الكثير من الصحة عن اتصالات بين المسئولين فى الجمهورية العربيـة المتحـــدة والجمهورية العراقية بعضها دار فى القاهرة وبعضها فى بغداد أو بيروت واشترك فيها بعض الشخصيات العربية لتنقية الجو وتصفية الخلافات ٠

ولكن أيام فبراير الاخيرة حملت بالاضافة الى رياحها الباردة على غير العادة احداثا أخرى ليست باردة على أى حال ، بل كانت كفيلة بان تشعل النار فى المنطقة كلها ٠

ففى خطاب لخروتشوف القاه فى موسكو جاءت فيه فقرة يرد بها على هجوم عبد الناصر عـــلى الشيوعيين والاتحـاد السوفيتى فى فترة سابقة تقول : « انه شاب حدث ، أمامه ان يكتسب خبرة طويلة » كما أكد خروشوف فى نفس الخطاب الدوافع الوطنية المختلفة لدى القادة الوطنيين ، وعلى رأسهم الرئيس جمال عبد الناصر ٠

وحذر من أى شقاق بين القوى الوطنية ، وان هناك دوائر

معينة تستخدم سلاح العداء للشيوعية للوقيعة بين القـــوى الوطنية العربية .

كان خطاب السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى ذلك الوقت وبكل المعايير الموضـــوعية خطابا هادئا ، حاول فيه خروشوف ان يدافع عن موقف الاتحـــاد السوفيتى فى مساعدة مصر ابان العدوان الثلاثى ومساندة الثورات العربية ، ولكنه لم يدخل فى هجوم أو شتائم بل أعاد تأكيـد اسـتمرار الاتحـاد السـوفيتى فى موقفـه المسـاند للقوى الوطنية العربية وجهوده من أجل وحدة هذه القوى .

ولكن دوائر معينة تجاهلت كل ماجاء فى الخطاب وركزت فقط على الفقرة التى وصف فيها عبد الناصر بانه شاب حدث امامه ان يكتسب خبرة طويلة ، » وبدأت صحف اخبار اليوم وصوت العرب حملة عنيفة ضد الاتحاد السوفيتى والشيوعيين وعلى رأسهم الشيوعيين العراقيين والســـوريين وجارتها فى هذا بعض الصحف الاخرى ، بل وبعض الاوساط التى كانت دائما فى انتظار الفرصة ، بالرغم من ان الرئيس عبدالناصر أكد فى رسالته التى بعث بها الى خروشوف بانه لن يسـمح بنجاح المحاولات لاساءة العلاقات بين البلدين .

● أما الحدث الثانى فهو انقلاب عبد الوهاب الشواف فى الموصل فى الاسبوع الاول من مارس . لقد كان هذا الحدث الذى انفجر فجأة قنبلة دمرت كل الجهود والمساعى وبالتالى أى احلام كانت فى مخيلتنا عن عودة وحدة الصـــف العربى والداخلى .

سارعت اجهزة الاعلام والصـحافة من اللحظـــة الاولى الى التأييد المطلق للانقلاب ، ولعب حزب البعث وقيادته فى ذلك الوقت دورا كبيرا فى ذلك .

وخرجت الاخبار والاهرام بعناوين عريضـــة عـن ثورة الشواف ضد الحكم القاسمى الشيوعى !! واخذ أحمد سعيد فى صوت العرب يثير بطريقته البدائيـة » هيـــا ياعرب .. جهزوا عليهم ، الشيوعيون الملاحدة .. طهروا التراب والتراث .. اقتلوهم حيثما وجدتموهم .. الخ ..

كان من الواضح ان حزب البعث وجماعات القوميين العرب

فى ذلك الوقت وراء هذا الانقلاب فى الموصل ، وكان من الواضح أيضا وبعد عدة ساعات من وقوع الانقلاب انه فشل اذ قامت جماهير الفلاحين والعمال المسلحين بالزحف على الموصل ومحاصرة الشواف والفرقة التى كان يقودها .

وخرجت المساء بعد ذلك بعنوان يحمل الصورة الحقيقية ، وان كان قد مثل تناقضا صارخا مع صحف الصباح ومايذيعه راديو القاهرة ودمشق .

كان مانشيت المساء : « فشل انقلاب الشواف » ، كان المانشيت حقيقة ، ولكنه كان حقيقة مرة بالنسبة للآخرين .

وبدأت على الفور اشرس واعنف حملة شهدتها مصر ضد الشيوعيين والقوى الوطنية الديمقراطية . ونجح المخطط الاستعمارى تماما .

وبدأ واضحا ان القضية الحقيقية ليست ناصر أو قاسم أو الشواف أو حتى حزب البعث ، بل ان الغرض الحقيقى هو ان تغرق الارض فى بحر من الدم والهيستريا ليس مع القوى الاستعمارية والرجعية ، بل بين القوى الوطنية نفسها . هذا ماتأكد لدى حينها ، وما اجزم به حاليا ، وارجو ان تكشف الوقائع عن ذلك (٠) ان انقلاب عبد الوهاب الشواف فى العراق دبر بأيد غير عربية ، وانه كان يستهدف نسف المحاولات والجهود التى كانت تبذل لتهدئة الجو بين القاهرة وبغداد .. ووجدت اخبار اليوم ومعها كل تلاميذ مدرسة الاثارة الفرصة الكاملة لاستعراض كل مواهبهم فى الاختلاق والتلفيق والاثارة وخاصة انه كان الطبيعى ان يصاحب القضاء على انقلاب الشواف فى الموصل بعض العنف .

وخرجت الاخبار لتقول ان الشيوعيين يدوسون المصاحف ويقتلون رجال الدين ويسحلونهم فى الشوارع ويحطمون المساجد ، وركزت اجهزة الدعاية على تلك النغمة المجوجة وطالبت الاخبار بوضوح بأن تقام مذابح للشيوعيين ، ومن على شاكلتهم فى مصر وسوريا ، وبدأوا يدقون فى هذا الاتجاه (٠) وبمراجعة بسيطة لما كتبته الاخبار فى تلك الفترة سنجد ان

مصادرها كانت لمراسل اليونيتدبرس أو الاسوشيتدبرس الامريكيتين ٠

وفي الفترة منذ فشل انقلاب الشواف حتى يوم ١٣ مارس وهو اليوم الذى تسلمنا فيه خطابات الفصل من الصحيفة كانتموجة العداء والهستريا تتزايد يوما بعد يوم ، ويقوم اساتذة من المهيجين يتقنون جيدا جو الاثارة والوقيعة برسم سيناريو يومى عن الشيوعيين الكفرة فى بغداد والموصل وكركوك وكيفيقتلون ويسحلون ويستحلون كل ماهو محرم٠

وقد كان البعض يعتبرها جرأة غير عادية منى حينما ادخل فى مناقشة لاؤكد ان عبد الكريم قاسم ليس شيوعيا ، وان الشيوعيين دعاة وحدة وطنية وسلام ، وليسوا دعاة قتل وارهاب ، وان ماتنشره الاخبار وأخبار اليوم ويذيعه صوت العرب فيه كثير من المبالغة ومأخوذة عن تقارير يكتبها مراسلون امريكيون معروفون بعدائهم للشعوب العربية ٠

ولكن يبدو انهم هم الآخرون فى بغداد كان لديهم نفس القوى التى تحاول اشعال النار لتأتى على كل شىء ويبدوأيضا ان الحزب الشيوعى العراقى ، وخاصة بعد انقلاب الشواف فقد جزءا من اتزانه وتعقله وترك نفسه ينزلق هو الاخر فى الحملة العصبية ٠ وقد قدم الحزب بعد ذلك نقدا ذاتيا لبعض التصرفات والاندفاعات فى تلك الفترة ٠ وقد التقيت بزميل عراقى كان عضوا فى الحزب الشيوعي فى تلك الفترة وتحفظت على كثير من آرائه واندفعاته وخاصة فيما يتعلق بالثقة المطلقة الذى يعطيها الحزب لعبد الكريم قاسم والذى جعله يرفع شعار « ماكو زعيم الاكريم » ٠

ويومها وكان معنا الزميل اسماعيل المهداوى قلت للزميل العراقى « أنا افهم ان هناك قوى وطنية قد تكون ضيقة الافق سواء فى مصر أم فى العراق ، وانها لاتعى تماما مصلحتها ، وأفهم أيضا ، ان هناك قوى أخرى استعمارية او عميله للاستعمار تزيد اللهب اشتعالا ٠ ولكن الذى لايمكن ان افهمه أو اغفره انكم وانتم القوى الواعيه والمدركة والمسئولة تنزلقون الى نفس الاساليب » ٠

ويوما قال الزميل العراقي :

- يبدو انك قد بدأت تتأثر بالدعاية البورجوازية .

وكان وجهه يقول كلاما آخر يتهمني فيـــه بانني في حالة خوف . وقد كنت خائفا حقا ، ليس من الاعتقال كما صور له وهمه الساذج . أو من المضايقات التي يمكن ان نعانيها نحن الماركسيين والديمقراطيين المصريين ، ولكنه كان خـــوف من النوع العام،حينما تحس انك امام عاصفة تحركها قوى مجنونة وليس هناك مجال للعقل .

ولعله بعد سنوات طويلة من ذلك الحـــدث يتضح الى أى مدى كنت محقا في هذا الخوف .

فلقد ذهب عبد الناصر بعد أن ادرك خطأه ، وحاول قـــدر لامكان اصلاحه وذهب عبد الكريم قاسم بعد ان انقلب عـــلى الشيوعيين ، ثم انقلب على نفسه حتى قتل .

وذهب كثير من القيادات البعثية والشيوعية والقوميـــة . ولكن كل هذه القوى ، الناصريون والشيوعيون والبعثيون والقوميون يتعرضون للهجوم اليوم من منطلق واحد،وتستخدم ضدهم نفس الاساليب والاتهامات التي كانوا يستخدمونهـــا ضد بعضهم البعض . ولست مغاليا اذا قلت ان كل الدعاية والاتهامات المحمومة التي قيلت في هذه الفترة كان ومازال لها اثارها على كل القوى الوطنية في المنطقة .

لقد كانت اياما لها ما بعدها ، ولسنوات طويلة .

★★★

لملم كل منا ورقه ، ولم يكن هناك في الواقع ورق كثير . ليلم ، فلقد كنا وباحساس الخطر الذى نعيشه في الشـــهور الماضية قد نظفنا ادراجنا .

ووقف الاستاذ الحاملي ومعه عـــدد من الـــوافدين الجـــدد الذين جاءوا ليحلوا محلنا ليعبروا عن أسفهم ، وبأنها محنه سرعان ماتنتهى ، وضحك بعضنا مدعيا عـــدم الاهتمـــام ، وتجمعت مشروع دمعة في عيني وانا القى نظـــرة أخـــيرة على المكتب لم وغادرنا مبنى الجريدة حوالى الحادية عشرة (٠) كلنا

ثلاثة عشر من محررى المساء من بينهم ٨نستين،وسيدة،ومررنا على دار أخبار اليوم فى الطريق ، ورفعت عينى أتأمل المبنى الذى كنت اراه يوميا فى الغدو والرواح ، بل واراه من شباك الجريدة ، وكان كل الزملاء والزميلات يفعلون نفس الشىء فى نفس اللحظة ، وربما دارت فى عقولهم مادار فى ذهنى من ان يوما سيجىء لتصبح هذه المؤسسة ملك للحقيقة لشعب مصر ، فلم أكن افهم لماذا ، ونحن على الاقل زملاء مهنة ، لماذا هـذا الموقف الغريب والمعادى لاى رأى معارض الذى تتخذه الدار خطا لها . لقد غفر لهم الشعب موقفهم المعادى له وللوفـــد وانحيازهم للسراى ولاحزاب الاقلية التى كانت تحكم باسم الانجليز قبل الثورة . فلماذا لم يتعلموا الدرس .

وضحكت اميمة أبو النصر ، وكانت دائما مرحة ، وقالت فى خفة دم عصرت الابتسامات على وجوهنا :

ـ ما العمل افادكم الله ؟؟

وقال فيليب جلاب :

ـ ليس امامنا سوى ان نرسل برقيات الى مكتب العمل والى رئيس الجمهورية ، فهذا فصل تعسفى .

وقال طاهر عبد الحكيم :

ـ تشكو من من ؟؟ .. ولمن ؟؟

وافتى أمير اسكندر :

ـ ومن يدرينا .. ربما كان الفصل مقدمة لاشياء أخرى ، وأكد طاهر أفتاء أمير .. واضاف بالتأكيد كلنا مرشـــحون للاعتقال ، وعادت أميمة للتدخل بخفة دمها :

ـ فال الله ولا فالك .. لاتقل كلنا .. تكلم عن الرجال فقط .. فلم يعتقل فتيات فى مصر حتى الان .

وتدخلت قائلا :

ـ سواء اعتقلنا أو لم نعتقل .. المهم ان نستنفذ الان كل الاجراءات الممكنة فيما يتعلق بالفصل التعسفى .

واقترحت ان نرسل بيانا لنقابة الصحفيين باعتبارها الجهة

المسئولة عنا ، ثم نذهب الى محامى ليدرس النواحى القانونية فى المشكلة ، وسجل طاهر عبد الحكيم اعتراضه علـى المنهج الشكلى والقانونى الذى نتبعه ، وان كان قد صحبنا الى مكتب الاستاذ أحمد مجاهد المحامى .

وجلسنا بعض الوقت فى مكتب المحامى ، وشرحنا الموضوع .. وأخذ منا البيانات اللازمة ، وأكد أكثر من مرة أنهـــا قضية مكسوبة سلفا ، كما حفل حديثه بكلمات التشجيع ، وتواعدنا على لقائه بعد اسبوع ، وعندما كنا نغـــادر المكتب هرش أحمد مجاهد بعض الشعر المتبقى فى مؤخرة رأســه وهو يقول :

– افضل أن تعطونى توكيلا شاملا تحسبا للظروف .. !!
وأدركنا ماذا يعنى ، بل كانت أعماقنا ممتلئة به ..

وغادرنا المكتب وكلنا قناعة بان شيئا ما فى الطريق ..

هناك وقع اقدام
جاءوا ليقتلعوا الزهرة
جاءوا ليدنسو الطفل
باللتعاسة والضجر ٠
(بول ابلوار — قصائد حب)

٢٨ مارس ١٩٥٩

كنت متعبا للغاية فى ذلك اليـوم ، فبالاضـافة الى اللف والدوران طيلة الاسبوعين الماضيين وسط جو عصبى هستيرى يفتك باعصاب الجمال هاجمتنى الانفلونزا وبقسوة ٠٠

فمنذ أن فصلنا فى ١٣ مارس الماضى كانت الأحداث تتصاعد بدرجة خطيرة فتسلم عدد آخر من محررى جريدة المسـاء خطابات الفصل منهـم : الدكتور حسـين كمال الدين وعـلى الشلقاني وعادل ثابت واسماعيل المهدوى وعدلى برسوم ٠كما فصل عدد آخر من الكتاب الصحفيين التقدميين فى عدد من المؤسسات الصحفية الاخرى ٠

كذلك حدثت بعض المظاهرات فى الجامعة وفى شارع القصر العينى يقـودها بعض الطلاب العـرب من البعثيين والقوميين العرب تهتف بسقوط الشيوعيين ، وحاول بعض هؤلاء الطلاب العرب الذين تأكد للجميع بما فيهم السلطة المصرية بعد ذلك انهم فى غالبيتهم العظمى عناصر مشبوهة ، الاعتداء على بعض الطلبة المصريين بدعوى أنهم شيوعيون ٠

وتصدى لهم الطلبة المصريين ومعهم أيضـا عدد آخـر من الطلاب العرب ٠

وفيما عدا هذه الاحداث العنيفة فيما عدا الحملات الهستيرية التى كانت تقودها أخبار اليوم وتدعو علنا لقتل وذبح العناصر الديمقراطية والماركسية تحت دعوى انهم يفعلون ذلك فى العراق

٠٠ كان المواطن العادى المصرى يمضى فى حياته العادية مواصلا همومه ومتاعبه وهو يهز رأسه ويتساءل : لماذا كل تلك الضجة ؟٠

ولم يكن أحد وسط هذه الهستريا يقدم له تحليلا موضوعيا مقنعا لتفسر له هذا الانقلاب المفاجىء ٠

فمنذ فترة ليست بعيدة ، كان المواطن يسمع عن العدوان الثلاثى وعن وقفة الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية الى جانب مصر وانذار بولجانين الذى اكتسب شعبية كبيرة لدرجة أن بعض العائلات في الأحياء الشعبية مثل باب الشعرية وبولاق أطلقوا اسم بولجانين على أبنائهم ٠

ومنذ فترة ليست بعيدة سمع هذا المواطن عن مشروع ايزنهاور ومحاولات أمريكا للنيل من استقلال بلده وتدبير الانقلاب في الاردن واثارة الثغرات الطائفية فى لبنان من اجل محاصرة الثورة المصرية ٠

ومنذ شهور فقط سمع هذا المواطن عن ثورة العراق واسقاط الملكية ونورى السعيد وزيارة جمال عبد الناصر لبغداد ثم لدمشق وسط طوفان من الترحيب الشعبى العربى الذى وصل الذروة فرحا بانتصار الثورة في العراق وسقوط حلف بغداد٠

فما الذى حدث ٠٠ ولماذا ؟ حتى تنقلب الصورة رأسا على عقب ٠٠؟

ان أحدا من العاملين في أجهزة الاعلام المصرية في ذلك الوقت لم يجهد نفسه للاجابة على تلك الاسئلة بل غرقوا فى نوع من الدعاية والاثارة التى كانت فى اغلب الاحيان تاتى نتيجة عكسية ٠٠ ولعل المسؤولين انفسهم قد أحسوا بذلك وحاولوا أن يوقفوه ٠ فبالاضافة الى ماكانت تكتبه أخبار اليوم فى ذلك الوقت الذى كان فى حقيقته تحريضا على سفك الدماء وتوسيعا لهوة الخلافات بين الاشقاء كتب أحد الصحفيين المصريين العاملين في جريدة الجمهورية «رع» مقالا صور الخلاف كله من وجهة نظره شذوذ جنسى اتهم به بعض القادة العرب ٠

ولقد منع هذا الصحفى من الكتابة بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر صبيحة اليوم الذى ظهرت فيه مقالته ٠

ووسط هذا كله خرجت مجلة «طريق الشعب» في الاسبوع الأخير من مارس التي يصدرها الشيوعيون المصريون لتدعو مرة أخرى الى وحدة الصف الوطني ولتدين كل من يسعى الى زيادة شقة الخلاف بين القوى الوطنية الحاكمة سواء في القاهرة او بغداد وتطالب بوقف الحملات المتبادلة وتوجيه الجهود واليقظة ازاء المؤامرة الاستعمارية والرجعية التي تستهدف اسقاط الحكم الوطني في البلدان . (١)

ولم أتحمس في حياتي لشيء قدر حماسي لهذا العدد من طريق الشعب ، كنت أحس انه صوت عاقل وصارخ .. في البريه .. وأخذت أوزعه بشكل شبه علني في الاتوبيسات .. وعلى المقاهي .. يملؤني احساس بأن العقل قد يسود ولكني كنت فيما يبدو كمن يحاول أن يوقف الطوفان بيديه .
كان أبي قد جاء الى القاهرة بعد ان سمع بفصلي ـ وكم كانت صدمة قاسية له وهو الذي كان يرى في عملي الصحفي بعض العزاء عن فقدان أخي الاكبر ـ وحاول أن يقنعني بأن أذهب معه الى القرية حتى تمر العاصفة . وحينما رفضت حاول ان يهددني بقطع المصروف بعد أن أصبحت بلا عمل .. وحينما جلست صامتا وغاضبا قام الرجل الطيب والذي أحيل الى المعاش منذ شهر واحد واحتضنني وهو يقول :ـ

لاتحزن .. شدة وتزول .. وان شاء الله هترجع تاني وتكتب .. بس خللي بالك من نفسك .
وتناولت الغذاء مع هذا الأب والصديق الذي كان يعمل حتى شهر مضى ناظرا لمدرسة القرية الابتدائية والذي تلقى علومه في الازهر وعاش تقيا متدينا لايترك فرضا . يؤم الصلاة في الجامع ويلقي خطب الجمعة ويلجأ أهل القرية اليه في خلافاتهم ومشاكلهم قبل أن يلجأوا الى العمدة .

---

(١) لابد ان اسجل في هذا الصدد ان موقف اخبار اليوم والصحف الاخرى لم يكن يعني انه كان هناك كتاب وصحفيين غير ماركسيين رفضوا ان يساهموا في تلك الحملة القذرة اذكر منهم كامل زهيري .

كان أبى يحرص دائماً على مناقشتى طوال تلك السـنين الماضية فيما أكتب وأقول .. وكان فى البداية ، خاصة أيام الجامعة ، يتخذ دائما موقف الاب الحريص على ابنه فيريده بعيدا عن المشاكل . ولكنه فى نفس الوقت لم يكن يخفى اعجابه وتقديره لعناد ابنه والافكار التى يرددها عن الاشتراكية والعدالة وتوفير حياة انسانية للفلاحين فى القرية وفى كل قرى مصر وكان ينهى دائما مناقشاته معى قائلا :ـ

كل دا كويس وعظيم .. لكن ياابنى لن تستطيع ان تغير الكون .. وحدك .

ـ لست وحدى .

فيقول مبتسما وقلقا فى نفس الوقت :ـ

ربنا معاكم .. والله انتو بتفكرونى بالمسـلمين الاوائل وارتباطهم بالعقيدة الصحيحة .. انكم تحملون سيف أبى ذر .

وكانت كلماته دفعات حانية وقويه . بل لاأكون مغاليا حين أقر أن هذا الاب والصديق المؤمن بحق كان أحد الذين دفعونى دفعا الى الايمان بالاشتراكية .. دون أن يدرى .

بل انى مازلت اذكر وقد كنت فى الثقافة العامة حين أخذ يحكى لى ونحن نجتمع حول «موقد النار» بحثا عن الدفء فى ليلة من الليالى الباردة تاريخ حياة أبى ذر الغفارى أحد أصحاب الرسول وزهده وتقشفه ودفاعه عن الحق والمساواة بين الناس الى أن مات فى احدى البرارى وحيدا شريدا بين ذراعى امرأته العجوز . وقد تجمعت الدموع فى عينى وعين أختى الصغرى بل وأخذت أمى تبكى بحرقة بالغة . وقبل أن أقرأ بعد ذلك كلمة عن الاشتراكية وصراع الطبقات كانت كلمات أبى ذر الغفارى تملأ راسى بأحلام انسانية واسعة يعمقها حياتى فى القرية .

وكنت أتصوره دائما ببشرته السمراء وعينيه المدعجتـين وجبهته العريضة ووراء جموع الفلاحين من أهل قريتنـا يحملون السيوف تنفيذا لكلماته المأثورة «عجبت لرجل لايجد قوت يومه ولا يخرج على الناس شاهرا سيفه» .

وقبل أن يغادر أبى القاهرة هذه المرة قال وهو يحتضننى عند محطة أتوبيس المنصورة فى صوت مبلل بالدموع :

يابني لاتنسى ان أبيذر مات وحيدا وشريدا في الصحراء ·

• • •

كان أمامي في ذلك اليوم عدة مشاوير فقد كان على ان أمر على المحامي لأعرف مصير القضية ، كما كان من المفروض ان أذهب الى نقابة الصحفيين لأسأل عن الشكوى التى تقدمنا بها بعد فصلنا ، ولكن الانفلونزا اللعينة والدوار المستمر فى الرأس المصحوب برعشة داخلية أقنعانى بضرورة الذهاب الى البيت ··

ودون ان أقول كلمة لأختي وزوجها اللذين كنت أقيم معهما دخلت الى حجرتى وألقيت نفسى على السرير ·

وجلست أختي خلفى وتحسست جبهتى التى كانت مشتعلة بالتأكيد وصرخت في ذعر :

ـ ياخبر دانت نار ·· مالك ·

ـ شوية برد ·

ـ أعمل لك شاى ·

ـ أنا اخذت اسبرين ·· لما أنام هرتاح ·

وجاء سامح ابن اختي الصغير الذى لايتجاوز الرابعة وحاول أن ينام بجانبى كعادته ولكنى طلبت من أمه أن تأخذه معها خوفا عليه من الانفلونزا ·· ولكن الصغير أصر وتكور في حضنى رافضا كل محاولات الاغراء والتهديد التى بذلتها معه أمه ··

وطلبت من اختى أن توقظنى فى العاشرة مساء قبل أن تنام فلقد كان من عادتى ان ابدأ سهرتى فى الكتب بعد تلك الساعة ·· ونمت ·· نوما طويلا لاأحس فيه بشيء ·· دون آلام ودون أحلام ·

وحينما اخذت اتقلب على هزات يد اختى وصوتها القادم من بعيد وهى توقظنى كنت أتصور ان الساعة قد أصبحت العاشرة وأخذت أتململ وأطلب منها أن تتركنى ساعة أخرى ·· ولكنها عادت تهزنى فى رفق وفى صوت باك ··

وافقت على دمعة ساخنة تسقط على جبهتى ··

وقمت أدعك عينى وأنظر حولى لارى الغـرفة قد امتـلات بعدد من الملابس الصفراء.. كانت أختى تقف الى جوارالسرير وبجانبها زوجها وورائهما اربعة من الوجوه الغريبة ينظرون الى بتركيز غريب .. ودعكت راسى بعنف متصورا اننى احلم ولكن شهقة باكية من أختى جعلتنى أعيش الواقع وأدركه بكل تفاصـيله .

اذن فقد جاءوا ..

كان فى الغرفة أربعة منهم اثنان يلبسان الملابس العسكرية وآخران يرتديان الملابس البلدية بالكوفية والطاقية التقليدية .. وعلى باب الغرفة وقف ضـابط فى لون البن المحـروق يشاهد المنظر فى هدوء .

وبقيت وسط السرير واخذت اجول بنظرى بينهم وكاننى أشهد فيلما صامتا ونحيب أختى تقـوم بدور الموسـيقى التصويرية . نفس الوجوه التى سـمعت عنهـا كثيرا جمـود وبلاده وتحفز .. عيون بعضهم كعيون الصقر تلتقى بهـا فلا تجفل أما الضابط فقد كان يتلاشى دائما نظراتى .. وابتسمت فلطالما حكى لى جميل عبد الشفيع عن هذا المنظر كثـيرا فى تجاربه السابقة كان يقول «انهم يطبون فى الفجـر كالقضاء المستعجل وليس هناك من بد سوى أن يكون الانسان واثقا من نفسه امامهم ، وتذكرت كل هذا فى لحظات ثم وثبت فى خفة غريبة الى وسط الغرفة ونسيت المرض بل وأحسست بقـوة طارئة تمدنى بطاقة وتغرينى بان الكم احدهم فى فكه .

وقلت : أفندم !!

وتقدم الضابط الاسمر الممتلىء .

– الصاغ أحمد صالح داود من المباحث العامة .

وقبل ان أسأل تقدم وقد أدرك ماأعنى وقدم مايثبت شخصيته

ثم أردف فى لهجة حاول ان يكون فيها مهذبا .

– معى أمر باصطحابك وبالتفتيش .

– من النيابة .

– من الجهات المختصة ..

ـ الجهات المختصة التى اعرفها هى النيابة ٠
وقلل من محاولاته المهذبة وقال فى صوت صارم :
ـ أستاذ لاداعى لهذا الجدل ٠٠ فأنت تعلم جيدا الظروف، هناك قرار جمهورى ٠٠ ولم يضع لحظة واعطى امره بالتفتيش
ـ وانتشر ثلاثة من الاربعة فى الشقة بينما وقف الى جانبى شاويش ممتلىء بشوارب كثه وملامح قاسيه واتجه الضابط الى مكتبى وأخذ يقلب فى بعض الكتب ٠ وابتسمت مرةأخرى وقلت عن ماذا تفتش ؟ واجاب دون ان يلتفت الى : مجرد اجراء روتينى ثم أمسك بمصحف فى يده التقطه من المكتب وكأنه عثر على شىء لم يكن يتوقعه ٠
ووضع المصحف مكانه وهو يحاول ان يبتسم ٠
وقال : غريب هيه ٠٠ يمكن أطلع اخوان مسلمين ؟!
فيه منشورات ٠٠ فيه كتب ماركسية ٠
قلت : منشورات لا ٠٠ لكن كتب ماركسية طبعا ٠
وهل هناك مثقف واحد فى العالم تخلو مكتبته من الكتب الماركسية ٠
وسمعت صرخة عالية لأختى تأتى من الحجرة المجاورة ٠٠٠ وغلى الدم فى عروقى وكدت أنشب أظافرى فى رقبة الضابط الذى امتقع وجهه فجأة ، ثم اندفعت الى حجرة أختى وورائى الشاويش والضابط ٠

وكان كل شىء مقلوبا فى الغرفة ، محتويات الدولاب والملابس ملقاة على الارض وفى أى مكان ومرتبة مقلوبةوأخرى مشقوقة بالطول والمخبر الملكى يعبث بالقطن ويرميه فى كل مكان وأختى تصرخ وتسب وتلعن ٠ وامسكت يد المخبر ودفعته تمهيدا للانقضاض عليه
كان الهدوء الذى التزمته به من البداية يخفى وراءه ، كل توترات الموقف ٠

وأحس الضابط بالموقف المتفجر الذى قد يسفر عن معركة سيكون فيها هو الخاسر فلقد كانت التعليمات لديه محددة ٠ « القبض فى الفجر وبدون اثارة أى ضجة ٠
ووقف الضابط بينى وبين المخبر ولكزه فى جنبه ونهره

ببضع كلمات ، ثم أخذ يعتذر لأختى التى وصلت فى حالة هياج شديد وأخذت تلعنهم وتلعن مهمتهم وتدافع عن أخيها .

والغريب ان هذه الاخت الطيبة التى لم تشغل نفسها فى يوم من الايام بالسياسة والتى كانت تحذر فى دائما من المخاطر اندفعت الكلمات من لسانها كما تندفع طلقات المدفع الرشاش « انتو ظلمه .. عاوزين اخويا ليه .. اخويا مع الحق مـع الناس ، وكل اللى بيقوله صح ، بكره هتشوفوا وهيجيلكوا يـوم » .

كان صوتها يعلو ويعلومدويا فىصمت ساعات الفجر الاولى .

واستيقظ سامح الصغير على صوت أمه وجاء يفرك فى عينيه ويبكى .. وأحسست كما لابد وان يكون قد أحس الضابط ان بعض الشبابيك فى العمارة والعمارة المجاورة قد فتحت .

وحاول الضابط بكل مايستطيع أن يهدىء الموقف ، ولكن عيـار أختى كان قد انفلت ، ولم يعد فى قـدرة أحـد ان يسكته .

وطلب منى الصاغ صـالح داود أن اتدخـل لان الموقف سيتعقد هكذا .. وأخذ يرجونى ، بل ويتوسل الى ان تسكت أختى او على الاقل تخفض صوتها .. وأخذ يؤكد انها مهمة سخيفة ولكن الاوامر .. !!

هكذا .. يخافون حتى من الصوت العالى ؟؟

وأخذت اختى بين يدى أهـدىء من ثورتهـا التى بدات تدخل فى تشنج مرتعش ، وصرخت فىالضابط والجنود الذين اصطفوا خلفى :

ـ مادمتم تعرفون ان مهمتكم سـخيفة ، فلماذا لاتلتزمون الادب على الاقل ؟؟

وجلست أختى على كنبة بجوار السرير واضعة راسـها بين يديها وهى تشهق وتنتحب ، بينما حمل زوجهـا سامح الصغير الذى كانت عيناه تعكسان حيرة المتفرج الصغير عـلى مسرحية لايفهم مغزاها ، واندفعت أنا الى شنطة صغيرة اضع فيها بعض الملابس كما ارتديت بدلتى على عجل لاهـرب من هذا الموقف الذى لم اعد احتمله .. حقيقة لم اعد احتمل .

وتمالكت أعصابى ووقفت فى الصالة ممسكا بالشنطة ٠
أنا جاهز ٠٠
وحاول الضابط ان يؤكد ان الامر بسيط واننى ساعود اليوم الى البيت ، وربما بعد ساعتين ٠ ولكنى لم اعد احتمل كل ذلك السخف ٠
وصرخت بصوت أعلى :

ـ من فضلك يالا أنا جاهز ٠٠٠٠ وفتحت باب الشقة وارتمت اختى على الارض تصرخ وصرخ معها سامح :
ـ آجى معاك ياخالى ؟؟
وكنت اقفز درجات السلم حتى لا اسمع ٠٠٠ كان الموقف قد تحول الى « ميلودراما » وكنت اريد ان أظل متماسكا وطوال هبوط السلم أو هرولتى عليه ومن خلفى الضابط والعساكر والمخبرين كانت الشقق المفتوحة تنطق بكلمات خاطفة على لسان صاحب الشقة أو زوجته او ابنه ٠٠ واذنى تلتقط وسط كل هذا الطوفان :
ـ ربنا معاك ٠٠

وبدون استئذان فتحت باب العربة السوداء الفاخرة التى كانت تنتظر أسفل العمارة وجلست الى جانب السائق ٠٠٠ وفى الخلف جلس الصاغ ومعه جندى ٠

أما الثلاثة الباقون فقد ركبوا « بوكس » كان فى الانتظار ٠٠ وتحرك الركب سريعا ٠٠ وخيوط الصباح الاولى تبدو فى الافق عند سطح النيل القريب ٠٠ وعم مدبولى صاحب محل الخردوات فى العمارة يفتح دكانه ويدفع الباب الصاج بيده ، وباليد الاخرى يحاول أن يقول ٠٠ ربنا معاك ٠

هذه ارادة الله ، فالله يقول لنا لتصبحو بشرا ، كفى تعلقا باطراف ثوبى كالاطفال الصغار .. انهضوا وتعلموا كيف تمشون .. وحدكم تماما .

كازانتراكس — الاخوة الاعداء

٢٨ مارس ١٩٥٩ .. صباحا .

كانت القاهرة قد بدأت تتثاءب وتتمطى استعدادا لليقظة ودارت بنا العربة اللموزين السوداء ووراءها البوكس الاغبر في اتجاه شارع الكورنيش فجاردن سيتي ثم مبنى المباحث العامة في لاظوغلي .. وأمام المبنى كانت هناك حركة غير عادية، عربات كثيرة تقف وأخرى تنطلق ومجموعات تخرج بحراسة وأخرى تدخل بحراسة أيضا .

وحينما كنت أرتقى السلالم العريضة للمبنى ، وأمامى الضابط ، وورائى الشاويش لمحت آخر يهبط وفى يديه قيد حديدى ، وتعثرت قدمه فجأة فسقط على الارض ، ثم قام بمساعدة الحارس ليفتش عن نظارته .

واندفعت نحوه اعطيه النظارة التى كانت قد قفزت الى جانبى ..

— سلامتك يادكتور ... خير :

ونظر الى الدكتور لويس عوض استاذى فى كلية الاداب وهز رأسه فى صمت ، ثم مضى مع حارسه .

صعدناالى الدور الاول ، وكان المبنى الصغير يشغى بالحركة والناس جنود وضباط ومخبرين .. معتقلين مثلى يحملون شنطهم ، وفى يد البعض القيد الحديدى ، والاخرين لم يستكملوا الاجراءات مثلى ... واكتشفت حقيقة أخرى هى ان الضابط الذى القى القبض على شخص هام فى ذلك

المبنى،فالكل يحييه باحترام شديد بما فى ذلك الضباط وعرفت ان أحمد بك « كما ينادونه » هو رئيس قسم مكافحة الشيوعية فى المباحث العامة وانتابنى شىء من الغرور ... وكان الرجل والحق يقال يعرف عمله جيدا فهو متمرس وله خبره واسعة قديمة تمتد الى عهد الملك .. وربما كان ذلك السبب فى تصرفاته معى التى حاول ان تكون مهذبة قدر الامكان فى حين اننى سمعت بعد ذلك ان بعض الضباط الذين اشتركوا فى حملة الاعتقالات تلك الليله تسبب فى كثير من الاشتباكات نتيجة رعونتهم وصلفهم .

واستكملنا بعض الاجراءات الضرورية فيما يبدو ، من تصوير أمامى وجانبى وملأ بعض البيانات فى كارت اصفر .

ومضى كل شىء هادئا مع تغيير نسبى فى أسلوب أحمد بك الذى بدأت لهجته تتخذ طابع الاوامر الحازمة ...

وكان التعليق الوحيد الذى قاله وأنا اسلمه كارت البيانات :

– ياه دانت صغير قوى ٢٣ سنه بس ... أنت طالب ؟؟

– لا ... تخرجت منذ ثلاث سنوات ..

وقال وهو ينظر الى ملف فى يده ... غريبه ... التقارير عنك تقول انك خطير ... ومسئول العمل السياسى فى منطقة بولاق ومسئول أيضا عن الصحفيين فى التنظيم بعد يناير ..

وابتسم كلينا فى صمت ... وان كان مغزى الابتسامتين تختلف تماما ..

كنت ابتسم فى سخرية واعتزاز ... وكانت ابتسامته توحى ببعض خيبة الامل لاتخلو من تقدير .. وضغط على زر بجواره وطلب ضابطا معينا ، حضر اليه فى دقائق وأسر اليه ببعض الكلمات ، ثم قال دون ان يرفع رأسه من المكتب :

– مع السلامه يا .. استاذ ..

وخرجت مع الضابط الشاب والشاويش .

كانت انوار الصباح تنمو وتنفض اللون الداكن عن

الشوارع والعمارات .. كما كانت الشوارع هذه المرة عامرة ببعض المارة وبحركة الترام ... وركبت البوكس في الخلف والى جوارى الشاويش وفى معصمى القيد الحديدى الذى أمر به الضابط الشاب ...

وانطلق البوكس مارا بميدان عابدين ثم ميدان العتبه وقفنا أمام قسم الموسكى ... ونزل ثلاثتنا ، وسأل ضابط المباحث عن المأمور ، ولما لم يجده قال للضابط النوبتجي :

ــ خذ هذا عندك لحين الطلب .

وبرغم ان الضابط النوبتجي كان برتبة يوزباشى فى حين كان ضابط المباحث برتبة ملازم الا أن الاخير جلس على كرسى المأمور فى حين ظل ضابط القسم واقفا ، بل وكانت يديه ترتعد وهو يستوفى اجراءاته .

وأخذت كرسيا كان بجوارى ورميت بجسدى فوقه ، وقد احسست فجأة بتيارات المرض والاجهاد تنال من جسدى وصرخ ضابط المباحث :

ــ قوم يامسجون .. قوم ..

وتلفت حولى فلقد حسبت انه يأمر انسانا آخر ..

وعاد يقول والشرر يتطاير من عينيه الضيقتين ويشير بعصاه صغيرة فى يده :

ــ أنت ... أنت .. ياولد أنت .. قوم .

ــ أنا لست ولد .. ولست مسجون .

ولم أقم .. !!

ومضت لحظات .. طويلة وممدودة ، وعينى فى عين ضابط المباحث ، وقد نسيت مرة أخرى المرض والارهاق فى حين كان ضابط القسم ينتقل ببصره بسرعه بيننا فى حيرة ، أما الجاويش فلقد وقف متحفزا بجوارى ويده اليسرى شبه ممدودة استعدادا للصفع أو الضرب .

ولم يكن هناك مخرج فيما يبدو ... وبدأت أعد نفسى لصدام كنت على استعداد له . وكان اليقين الذى غمرنى هو انى لن اخسر شيئا ، فماذا بعد القيود الحديدية ؟؟ .. ان كل شىء يتضاءل بعد ذلك ولا تنتظر من انسان يحب الحياة حقا

ان يتردد فى الوصول الى آخر مدى طالما فقد حريته الغالية ..
كان هذا هو الشعور الذى تملكنى وانعكس فى نظرتى الثابتة على ضابط المباحث الذى أخذ يضرب بعصاه على المكتب فى رتابة ووجهه يفيض بتيارات العنف والغضب (٠) وفتح الباب فجأة .. دخل مأمور القسم .. لم أكن اعرف

بالضبط ماذا سيحدث لو لم يدخل المأمور البدين ليملأ الغرفة بالضحكات والقفشات والترحيب ليس فقط بضابط المباحث .. بل بى أيضا ... شىء واحد كنت اعرفه هو أنى على استعداد لان اذهب الى آخر مدى ..

وانتهت عملية التسليم وقبل ان يخرج ضابط المباحث رمقنى بنظرة حاول ان يقول فيها اشياء كثيرة ، ثم قال :
ــ دا معتقل شيوعى خطير .. لابد من التحفظ عليه بشدة ويوضع وحده ياحضرة المأمور ... وخرج ومعه الجاويش وتعمد أن يغلق الباب بعنف .. وكأنما ارتاح الجميع من كابوس ثقيل ، وبان ذلك على وجه المأمور الضاحك الذى بدت حركة من يديه على المكتب تنم عن ذلك . وقال ضابط القسم بعد أن استرد أنفاسه من الورطة التى وجد نفسه فيها بصوت مسموع :

احنا مالنا ومال المعتقلين يافندم .. هنوديه فين دلوقتى الحجز كله مليان .
وقال المأمور دون ان يفقد روحه الخفيفة .
ــ حجز النساء اخباره ايه ؟!!
ــ فيه اثنتين قدام وايراد جديد النهارده الفجر .
وأشار المأمور الى :
ــ حطه معاهم ..

ثم غمز بعينه وضحك بصوت عال ..
ــ ابسط ياعم ... حبسه حلوه ... ديك وثلاث برابر .
ودخلت الحجرة واغلق العسكرى الباب بمفتاح غليظ ..
ووقفت اتأمل الغرفة المظلمة كان كل شىء معتما ساكنا ..
وكوة صغيرة فى أعلى الجدار المقابل للباب يتسرب منها بعض ضوء النهار الوليد ويتبدد على الجدران العلوية دون ان يكون

له انعكاس في الداخل وايضا بعض ضجة للشارع المجاور .
واخذت اتحسس بيدى الجدار المجاور للباب ولما لم أجد احدا وضعت شنطتى على الارض وجلست فوقها ومددت رجلى فى حذر – خوفا من ان تصطدم بأحد ثم اسندت رأسى على الحائط واحسست ببعض الارتياح .. وبدأت التقط انفاسى .

كانت الساعات الخمس الماضية بكل أحداثها وتوتراتها تساوى حقبة زمنية كاملة عشتها باعصابى وبذهنى وبمرضى لحظة بلحظة .. وأخذت تمر فى خيالى المنهك بسرعة وبتداخل غريب كأنما هناك أكثر من شريط سينمائى يعرض داخل رأسى فى وقت واحد .. الوجوه الغريبة التى تطل على سريرى ، صرخة اختى ، بكاء سامح الصغير ، وصوت عجلات اللموزين وهى تجرى على الكورنيش .. نظارة الدكتور لويس عوض على سلم مبنى المباحث .. القيد الحديدى ... بيتنا فى القرية ، شجرة التوت امامه ، وجه أخى الاكبر الذى مات منذ سنتين .. أبى يرتدى بدلته وهو يتمتم بايات القرآن .. أمى وهى تصر على أن اشرب الشاى باللبن فى الصباح .. خالى وهو يتوعدنى ان لم اكف عن شقاوتى الزائدة ، عم أحمد عجوز القرية وهو يحكى لنا قصص العفاريت والغيلان على المصطبة .

ورحت فى عالم غريب ... خليط من الحاضر والماضى لاهو باليقظة الكاملة ولا هو بالنوم الكامل كأنما نام نصفى وبقى نصف آخر يعى انه فى زنزانة مغلقة وسمعت صوتا انثويا يهمس قريبا منى .

– دا نام كتير قوى .. الساعة بقت اتناشر ... ايه حكايته ؟؟

وقال صوت انثوى آخر :

– تلاقيه كان سكران طينه خدوه محضر تشرد .

– لا ياشيخه دامعاه شنطه ولابس بدله وباين عليه ابن ناس .

– صلى على أبو فاطمة .. هو فيه ابن ناس يترمى هنا !!

وفتحت عيناى .

كانت تفاصيل الزنزانة واضحة تماما ٠٠ وعلى مقربة منى فتاتان تجلسان باسترخاء حاولت احـداهما ان تبتســم حين نظرت اليهما ، وهناك فى الطرف الاخر وعلى مقربة منى أيضا اخرى متدثره فى معطف يضع رأسها بين يدها ومستنده على شنطة ملابس كبيرة ويبدو انها غائبة عن المكان والزمان ٠٠ ثم جدران عالية صماء تكشف بقع الشمس التي تسربت خلال النافذة الضيقة من انها مصابة برطوبة مزمنة اسقطت اغلب الطلاء ٠

واشعلت سيجارة ٠

وقالت احدى الفتاتين : اللى يشرب لوحده يشرق ٠

وقدمت لهما علبة السجائر وتناولت اصغرهن سيجارتين بلهفة شديدة وواشعلتهما على الفـور ، ثم اعطت واحـــدة لزميلاتها وهى تخرج نفسا طويلا مصحوبا بزفرة حارة ٠

ـ ياه أربعة وعشرين ساعة مشربتش سجاير ٠٠ أنت جت لنا من السما ٠٠٠

هكذا ارسلتنى السماء لهذه الفتاة المحرمانة والحلوة أيضا ٠٠ اليست مهمة تستحق ٠٠٠

واستطردت الصغيرة :

ـ أنا نيرمين راقصة فى الباريزيانا ، وســونيا زميلتى ، أحنا معروفين ومشهورين قوى وتوقفت لحظة ثم قالت :

ـ والله أقولك ٠٠ أنا اسمى الحقيقى نوال ودى ســعديه مسكنا الاداب واحنا بنرقص فى الباريزيانا ٠٠٠ آى والله ٠

وعادت لتتوقف ثم تستطرد :

ـ بالحق بالحق احنا بنشتغل فى الصالة رحنا مع واحـد زبون فى شقته كبست الاداب وسبوه هوه وخدونا أحنا مـع انه هو اللى غرر بينا ، واخرجت ضحكة نصف ساخرة ونصف ماجنة ثم استطردت ٠٠ مش عارفه البلد دى ماشيه ازاى ٠٠ ماهو يايبقى فيه غلط يامفيش غلط ٠٠ طيب يسيبوا الراجل وياخدوا الست ليه ٠٠ وأخذت نفسا اخر اعتصرت فيــه السيجارة ٠٠ ثم التفتت الى فجأة :

ـ قوللى ٠٠ انت ايه ومين وعلشان ٠٠ سايبنى ادش من الصبح وأحكى لك على كل حاجه وانت ساكت كما أبو الهول ٠٠ متكونش مخبر ؟؟

وفرضت الابتسامة نفسها على وجهى ..

كانت الفتاة غلباوية فعلا .. وخفيفة الدم أيضا ، ولم يكن من الصعب ان يستشف الانسان من وجهها المريح وعيونها المتألقة انها من هذا النوع المحب للحياة .

وأشارت زميلتها التى تميل الى البدانة :

– الله دا بيعرف يضحك !!!

واتسعت ابتسامتى وتحولت الى ضحكة لها صوت

قالت التى هى أميل الى البدانة والكبر ..

– هجام .. نشال .. ولاتهريب مخدرات .

قاطعتها خفيفة الدم متالقة العينين :

– لا دا لازم من طبقتنا .. برمجى .. بتاع صـــــلات ولا شقق ولا ..

وكنت لابد ان اتدخـــل بسرعـــه : لا معتقل .. معتقل سياسى ..

وسكتت خفيفة الدم ، وبان عـلى وجهها عدم الفهم او عدم التصديق ، أو الاثنين معا ..

وقالت الاكثر بدانة وقد وجدت فرصة لتتفوق بها عـلى زميلتها ولو مرة :

– سياسى ..

آه شفتهم فى الحبسه اللى فاتت .. ربنا يكفينـــا الشر دا احنا تهمتنا اخف .

قالت الاخرى وقد اكتشفت شيئا جديدا :

– يعنى ايه ..

– السياسيين دول بيروحوا وراء الشمس .. دول اللى بقى حطين راسهم براس الحكومه .. ربنا يديم علينا بوليس الاداب دا نعمه ..

ثم بدأت تحكى لها ذكرياتها القديمـــة عن المســـجونين السياسيين فى القناطر وسجن مصر ، وفى صوت تعمدت أن تخفضـــه لكى لايصـــل الى مسامعى .. بينما كنت أنا أغرق مرة أخرى فى بحر من ذكريات الامس .

وانتبهت على المفتاح الغليظ وهــــو يدوى فى الباب ، ثم صوت الجاويش :

ـ ثريا حبشى ۰۰۰ المعتقلة اللى جات الفجر فين ۰۰

وجاء صوت السيدة التى كانت تجلس فى الجانب الآخر من الزنزانة :

ـ ايوه ياشاويش ۰۰۰ فيه ايه ۰

ـ جهزى حــاجتك ۰۰ البوكس وصــــل ۰۰۰ خمس دقائق ۰۰

ـ على فين ۰۰

ـ يمكن القناطر ۰۰۰ الله اعلم ۰۰

ثم التفت ناحية الفتاتين وقال :

ـ الظاهر انتو هتشرفونا الليلة كمان ۰۰ حتى الســـجن مسالش عنكوا وأغلق الزنزانة ۰

قلت بصوت عال :

ـ مدام ثريا ۰۰ زوجة المهندس فوزى حبشى ۰

ـ ايوه ۰۰ مين حضرتك ؟؟

ـ صحفى بجريدة المساء ۰۰

ـ أهلا ۰۰ فوزى كلمنى عنك كثير ۰

وتقدمت ناحيتها اسلم عليها بحرارة واساعدها فى لملمة حاجياتها ۰۰ وفوجئت بان وجهها يكتس بســـتار من الحزن الكثيف وعيناها زائغتان بشكل غير عادى ، تكاد تحس فيهـا انها غائبه عن المكان تماما فتكلفت بعض المرح وانا اقول :

ـ حبسه وتفوت يامدام ۰۰ ملقوش فوزى خدوكى ۰۰

ـ أبدا خدونى وخدوا فوزى ۰۰۰ ياريت على قد كدا ۰۰

قلت منزعجا :

ـ والاولاد ؟؟

ـ ماهو دا اللى مجننى ۰۰ سبتهم الاتنين عند الجيران ۰۰

واحسست بأن شيئا من الماضى السحيق ينفجر فى عقلى كنت اعرف أن المهندس فوزى حبشى لديه طفلين بين عام واربعة أعوام ۰۰۰ وقد كنت اتصور وأنا اهرب من صرخات اختى

وبكاء سامح الصغير ان هـــذا شيء فظيع ٠٠٠ ودارت رأسي بسرعة وأنا اتصور المهندس فوزى وزوجته ياخذونهما الفجر ويتركان الطفلتين يبكيان ويصرخان بين يدى الجيران ٠

ان الانسان احيانا يحتاج لان يعطل عقله ومشــــاعره لكى لاتنطلق منه مشاعر الذئب ٠

ولما لم يكن هناك وقت ليضيع٠٠فأخذت استمد كل قدراتي لكى أخفف عن الأم الملتاعة وأؤكد لها ان الطفلين يلعبان الآن مع جدتهما بعد ان اتصل بها الجيران ٠٠ والغريق يبحث دائما عن قشة ٠ ولقد وجدت لثريا القشة التى حاولت ان تتعلق بها وعدت اؤكد :

– طبعا الجيران اتصلوا بمامتك وخدت الاولاد معاها ٠٠٠ شيء مؤكد ٠٠

وشددت على يدها وهى تخرج فى أثر الجاويش الذى جاء يأخذها ٠ وقالت وقد عادت بعض الشيء الى نفسها :

– لمـا تشوف فوزى سلم لى عليه ٠٠ قالوا لى فى المباحث انه رايح القلعة ٠

– شدى حيلك انتى واطمئنى على الاولاد ٠٠ وسلامى لاميمة أبو النصر يمكن تلاقيها فى القناطر ٠

وخرجت وأخذت اتصور أميمة أبو النصر منذ اســــبوعين وهى تحتج لان طاهر عبد الحكيم تخيل ان السيدات يمكـــن ان تعتقل فى مصر ٠

هل يمكن ان تكون أميمة قد اعتقلت ؟

ولم لا ٠٠ وقد اعتقلوا ثريا ٠٠ أم الطفلين ٠٠ فحينمانفقد التعامل بالعقل ٠٠ يختلط كل شيء ويضيع ٠

تعودت أن اغني لنفسي طول حياتي ولست أدرى لم اتوقف الآن .. فاحساسي بالحياة يزداد .

يوليوس فوتشيك - تقرير من المقصلة

كانت كل ذكرياتى عن القلعة مجرد معلومات تاريخية غير دقيقة مع زيارة واحدة بصحبة والدى منذ سنوات .

فلقد كان من عادته اذا جاء لزيارتنا فى القاهرة ان يصطحبنى معه فى جولاته .. وكان يرسم لنفسه برنامجا دقيقا يحرص على تنفيذه ، هو أن يصلى يوما فى الحسين ، فاذا لم يسافر يصلى اليوم الاخر فى السيدة زينب ، فاذا حدث ولم يسافر وهذه مرات قليلة يصلى اليوم الثالث فى الازهر .. أما اذا جاء عليه اليوم الرابع فقد كان يطلع الى القلعة فى جامع محمد على ... وفى أحد هذه المرات النادرة اخذنى معه .. وتناقشنا يومها حول محمد على وصلاح الدين ويوسف بن يعقوب باعتبار كل منهم ارتبط تاريخه بالقلعة .

ولكن القلعة التى ذهبت لها هذه المرة كانت تختلف تماما رغم ان الطريق واحد

فلم يكن هناك ذلك العطر التاريخى الذى يملأ عليك الحواس وأنت تمضى على الطريق الصغير المتعرج الموصل الى القلعة .. لم يكن هناك حتى الاحساس بانك فى الطريق الى جزء غال من ارض الوطن ، بل كان يغمرنى الاحساس والبوكس يلتقط البعض منا من الاقسام المختلفة ثم يصعد بنا الى معتقل القلعة ، اننى اذهب الى المعتقل الذى بناه الانجليز كأحد مظاهر سطوتهم وتسلطهم على شعبنا .

كان المعتقل الذى وصلت اليه منذ أيام بعد ان قضيت يوما فى قسم الموسكى قد بدأت تكتظ زنازينه وعنابره بمئات المعتقلين . فالزنازين التى تصطف على الجانبين والتى كان من المقرر ان تتسع لفرد واحد وضع فيها اربعة وخمسة كما حشر فى العنبر السفلى الذى يشبه البدروم والعنبر العلوى أكثر من مائة فى كل عنبر .

وبالرغم من كل شىء فقد كانت القلعة بعد ليلة الاعتقال وليلة القسم تمثل على الاقل بالنسبة لى نوعا من الانفراجة ، فهناك العشرات من الاصدقاء والمعارف الذين يقاسمونك المصير . وهناك الفرصة لان تجلس وتحكى وتسمع من رفاق يعانون مثلما تعاني ويحلمون مثلما تحلم .. ولقد حاولت قيادة المعتقل من البداية أن تفرض نظاما صارما فى اغلاق الزنازين والعنابر . ولكن ذلك لم يكن ممكنا اذ انه وفى الايام الاولى كان هناك تقريبا أيراد كل بضع ساعات وربما كل ساعة .

ومازلت اذكر الزميل سامى عبد المسيح وهو يقف فى العنبر العلوى يراقب باب الادارة عندما تفد مجموعة جديدة من المعتقلين ليصيح :

— اورد ياخضر .. منين يازملاء ؟

ثم يصيح .. المنصورة وصلت .. طنطا شرفت . المنيا بتحيى . .. أسيوط على الخط . . اسكندرية صيفت . وهكذا .

مئات المعتقلين جاءوا من كل شبر تقريبا من أرض مصر الطيبة من أسوان وقرى النوبة الى الاسكندرية ومطروح والعريش .. عمال وطلبة، وموظفين وكتاب وصحفيين ومحامون وأطباء .. فلاحون ومدرسون واساتذة جامعات ومهندسون وعمال زراعيون ، فنانون وضباط سابقون وحرفيون .

كانت الغالبية العظمى منهم قد اعتقلت ليلة ٢٧ مارس الشهيرة . وبعضهم التقط من عمله او من الشارع .. ثم يردون على القلعة بعد ان شرف بعضهم الاقسام ليوم أو يومين حسب الظروف والتساهيل .

وكان وراء كل واحد قصة ، بعضهم وخاصة من وفد من الاقاليم تعرض لالوان من التعذيب الذى يتقنــه عادة بعض ضباط وعساكر الاقسام ، وبعضهم حول عملية القبض عليه الى مظاهرة واسعة اشترك فيها ابناء الشارع وابناء الحى أو القرية ، وكان من اطرف ماسمعته من صديقى محمد حمام انه رآنى فى العربة السوداء فجر « يوم الوعد » على الكورنيش فلم يذهب الى منزله واستطاع ان يهرب لمدة اسابيع ثم التقطته بعد ذلك عربة سوداء أخرى من ميدان محطة مصر بعــد ان اختطفوه عــلى طريقة جيمس بوند .. عاش المعتقلون الايام الاولى فى تلك القصص والحواديت المثيرة كما بدأت تتشكل تلقائيا مجموعات السوابق أى الذين شرفوا المعتقلات فى فترة سابقة ليشرفوا على استلام الاكل من المتعهد وليقوموا بتوزيعه اذ كانت خبرتهم السابقة تؤكد ان المتعهدين الذين يوردون الغذاء ، وخاصة للمعتقلين ، يقومون بعملية نهب واسعة على حساب جماعة يعرفون انه لاحول لها ولاقوة .

كما بدأت تتشكل وخاصة فى العنبر البدروم ســهرات ثقافية وترفيهية وسياسية .

وسيظل المعتقلون يذكرون ولاشك الدكتور محمد الخفيف (الذى توفى سنة ١٩٧٢ ، بهبوط مفاجأ فى القلب) ، بخفة دمه وسرعة بديهته وقفشاته ونكاته ، وقد شكل مجموعــة من سعيد الخيال (القاضى) ، والدكتور سعد بهجت (الصيدلى) ومحمود السعدنى (الصحفى) وعدد اخر من الزملاء كانت تبعث الدفء والضحك فى قلوب المعتقلين طوال الليل .

هذا وبينما كان الدكتور عبد الرازق حسن (مدير البنك الصناعى) ، والدكتور فوزى منصــور (الاســتاذ بكلية الحقوق) ، ومعهم احيانا الدكتور لويس عوض ولطفى الخولى يعقدون مايشبه المنتدى الثقافى والسياسى يحضره عدد كبير من المعتقلين ، بالاضافة الى انه كان يستدعى كل ليلة بين عشرة وعشرين من المعتقلين ليجرى التحقيق معهم فى مبنى المباحث العامــة .

وكان كل واحد منهم يعود بقصة تسمع .. بعضهم رفض

ان يحقق معه فى مبنى المباحث العامة ، وقد كنت واحدا من هؤلاء الذين طلبوا من وكيل النيابة ان يجرى التحقيق معى فى سراى النيابة ٠

والبعض اكتفى بالاحتجاج ، ثم قال رأيه كاملا فيما يحدث وفيما وجهت اليه من اسئلة ٠

وكان من الواضح وخاصة بعد الايام الاولى أن معتقل القلعة مجرد محطة تجمع ، ففى الاسبوع السابق لوصول دفعة مارس كما تسمى كان المعتقلون السابقون الذين ألقى القبض عليهم فى يناير قد رحلوا الى سجن الواحات الخارجة ٠٠ كما أصبح ضربا من المستحيل ان يستوعب معتقل القلعة تلك المئات التى ملأت زنازينه وعنابره والتى يفد بعض منها كل يوم تقريبا ٠٠٠ لهذا كله لم نفاجأ حينما جاء قائد المعتقل ذات مساء ومعه الحجلات « سلاسل طويلة يربط فيها مابين عشرين الى ثلاثين معتقلا » ، وبدأ ينادى حوال مائتى اسم كنت واحدا منهم ٠ وتجمعنا فى الممر الطويل بين الزنازين والزملاء الباقون يتطلعون الينا من فتحات العنابر وفى عيونهم كما فى عيوننا نفس التساؤل ٠٠ الى أين ؟

كانت الايام العشرة السابقة فى معتقل القلعة بما فيها من تجمع ولقاء واحداث قد شغلت الكثيرين منا عن حقيقة ما يدور وما يمكن ان يأتى ، بل ربما فى غمره الالتقاء مع الاصدقاء والرفاق نسى الكثيرون أنهم بدخولهم القلعة قد خطوا خطوة اساسية نحو مستقبل مجهول ٠

وحينما أوغل ليل الشتاء وانتصف ونحن جلوس فى صفوف متراصة فى الممر بدأ صوت الحجلات برنينها المزعج يقطع الصمت الذى كان قد اطبق على الجميع ، والكل يتساءل الى ٠٠ الى اين ؟

واجتاحنى احساس عنيف بأنى مقبل على اخطر رحلة فى حياتى ٠

وجاء صوت رخيم ورصين وممتلىء من داخل الزنازين المظلمة أشبه بصوت بول رويسون المغنى الزنجى الامريكى ٠
كان صوت محمد حمام :

زعق الوابور علـى السفر ·· أنا قلت رايحين فين ·· رايحين تغيبوا سنه ·· وللا تغيبوا اتنين ··

وبدأ الطابور الطويل يخرج من باب معتقل القلعة ليتلقفنا مجموعة أخرى من الضباط والعساكر · يحشرون كل مجموعة منا يربطها جنزير واحد فى عربة من عربات السجون المغلقة وسط جو من الاوامر والصرخات والتى يفتعلها الضبـاط والعساكر ·· ووقف قائد الترحيلة يلقى بأوامره الاخـيرة بصوت عال :

ـ كله يسمع ··· احنا رايحين معتقل الفيوم ··· مش عاوزين صوت ولا ضجة ·· أى محاولة للخروج على النظام هتقمع فورا ··· عندى أوامر مشددة بضرب النار فى المليان ···· خليكو عاقلين والترحيلة تمر على خير ·

الترحيلة ···· الفلاحون فى قريتنا يتجمعون فى ديسمبر من كل عام بجوار الترعة ينتظرون عربات المقاول التى تأتى دائما فى الفجر لتنقلهم الى بلاد الغربة لمدة شهرين وثلاثة ، يعملون فيها من الشمس للشـمس فى ظل اقسى انـواع السخرة نظير قروش قليلة ·· بعضهم كان يعود وبعضهم كان لايعود ·· ويدفن هناك فى أرض الغربة وتظل ذكريات ترحيلة الشتوية بالنسبة لنا أطفال القرية ذكريات حزينة اليمة فيهـا الوداع والدموع والمجهول ··· وهذه ترحيلة أخرى ·· من نوع آخر وان كانت لاتختلف ، فطالما اسـتمرت ترحيلـة الشتوية للفلاحين فى قريتنا ستستمر ايضا ترحيلات الغربة لابنائهم ولن يحسون بفيض الالم والمعاناة الذى يعانيه فلاح مصـر ·

وزمجرت موتورات لوريات الترحيلة يتصدرها وتحفزها من الخلف بعض عربات السادة « المقاولون » ·

وأحسست بلفحة من الهواء البـارد النقى خلف أذنى واستدرت أودع القاهرة من فتحة كبوت العربة ·

كانت القاهرة نائمة ساكنة،الشوارع خالية تغمرها الاضواء فى صمت وبائع جوال يجمع بقايا الخضر ويحملها على عـربة كارو صغيرة ويرفع رأسه قليلا يتامل هذ الطابور الطويل من

اللوريات بنرة نصف نائمة .. وعند كوبرى عباس جماعة من الشباب تتسابق ربما بحثا عن الدفء ، وفى ميدان الجيزة بعض الذين لم يذهبوا بعد الى بيوتهم واخرون ـ ربما بكروا فى الخروج من منازلهم .

وخرجت بعض الاصوات من داخل احدى العربات تغنى بصوت خافت :

ـ بـلادى .. بـلادى .. لك حبى وفـؤادى وبدأ الصوت الخافت يعلو شيئا فشيئا رغم صرخات واوامر العسكر مصر يا ام البلاد .. انت غايتى والمراد .

وشملت الاغنية كل عربات الترحيلة ..... وانطلقت اصواتنا قوية عالية .. تهزم برد الشتاء وتبدد صمت الليل وسواده ، وزادت العربات من سرعتهـا عـلى طريق الفيوم الصحراوى هربا بالترحيلة السرية .

لنضحك في خفة لان الحرارة
لفحتنا ، لان البرد قرصنا لان
الجوع اصابنا لان العطش
يستبد بنا لنضحك حتى يكون
حديثنا سخيا سخاء القيل

بول ايلوار

ابريل - سبتمبر ١٩٥٩

واحد تمام ...

اتنين تمام ...

تلاته .. اربعه .. خمسه .. ١٥ تمام ، اسطوانة متكررة نسمعها كل نصف ساعة فى هذا المعتقل الغريب الذى بنى اصلا ليكون معتقلا لاسرى الحرب فى الحرب العالمية الثانية .. ثم تحول الى معتقل لتجار المخدرات .. وانتهى به المطاف ليضم أكثر من اربعمائة معتقل سياسى من الديمقراطيين والاشتراكيين والشيوعيين .

ولست ادرى بالضبط من الذى بنى هذا المعتقل ، ولكن المؤكدان مخططة كان قد زار او رأى على الاقل معتقلات أوشفيتز وبوخنوالد التى اقامها النازيون فى بولندا والمانيا مع اختلاف بسيط فى الحجم وعدم وجود غرف الغاز الشهيرة .

وتلك العنابر الممتدة بالعرض على الجانبين اربعة فى الجهة اليمنى ومثلهم فى الجهة اليسرى يفصلهم ترعة من الاسلاك الشائكة وتحيط به من كل ناحية سوران من الاسلاك الشائكة بينها منطقة محرمة هى الى حد كبير شبيهة بالصورة التى رأيتها لمعتقلات النازيين فى احدى الكتب التى تروى بالصورة وبالحدث ماكان يجرى فى تلك المعتقلات .

كان الجو الذى ووجهنا به من اللحظ الاولى فى معتقل العزب بالفيوم يختلف عن الجو الذى ألفناه طيلة العشرة ايام الماضية فى القلعة ·

فوضع فى كل عنبر أربعون معتقلا فى البداية ثم تضخم بعد نزوح دفعات جديدة من القلعة فى الايام التالية فأصبح فى كل عنبر بين ستين وسبعين معتقلا ·

وكانت قوائم الممنوعات والمحظورات كثيرة ·

ابتداء من الورقة والقلم التى تعد جرما كبيرا الى حرية التنقل داخل العنبر والواحد أو كما قالها الضابط البدين حمدى :

ـ كل واحد على سريره ·

أى ان عليك داخل العنبر الواحد ان تجلس وتنام وتتحرك بحرية فى مساحة السرير فقط · بل لقد وصل الامر بهـــذا الضابط المغرور الذى كان يتمخطر فى ممرات المعتقل حاملا فى يده كرباجا ان يعتبر ان مجرد الهمس بين زميلين يناما على سريرين متجاورين مخالفة عقوبتها الجلد ·

كان نصيبى فى عنبر (٢) وقد حدد ذلك موقعى فى الحجلة التى ربطت فيها فى « الترحيلة » ، ولقد كان عنبرا يعبر فى تكوينه بحق عن الوطن الكبير ·

فالغالبية العظمى من العمال من شبرا الخيمة وحلوان وكفر الدوار والاسكندرية من بينهم محمـــود عطا الله رئيس نقابة عمال كفر الدوار وعبد الغفار سلام وعبد الجواد القطان رئيس نقابة عمال النسيج ، ثم بعض الفلاحين من الشرقية والدقهلية والبحيرة والفيوم ثم مجموعة من المثقفين بينهم الدكتور فائق فريد عضومجلس الامة عنشبرا وجزيرة بدران ·وعلى الشلقانى الكاتب الصحفى ، وجمال كامل الفنان التشكيلى وعادل ثابت العالم المعروف وعبد السلام مبارك الصحفى فى المساء والدكتور جميل حقى الصيدلى ، ثم عدد آخر من طلبة الجامعات ·

ومضت الايام الاولى وقد اخذنا بالمفاجأة والجو الكئيب يسود المعتقل · فكل عنبر يخرج « الفسحة » لمدة ثلث ساعة فى اليوم وعلينا ان نفرغ فى هذه الدقائق من قضاء الحاجة والاغتسال والمشى فى الحوش الضيق الذى يقع خلف العنابر ليقبع كل مرة أخرى ولمدة ٢٣ ساعة و ٤٠ دقيقـــة الى العنبر ليقبع كل على سريره ، كل ذلك وسط جو من الهستيريا والتحفز يشيعه

قائد المعتقل وضباطه ومعهم على وجه خاص الجاويش محمد غطاس أو حضرة الصول كما يناديه العسكر مصحوبا بنزوات متلاحقة من جانب ادارة المعتقل من شتائم مقذعة الى الاعتداء بالايدى على البعض ٠

ولابد وان الجميع قد احسوا بما احسست به حينما فتح عنبرنا فجأة في الايام الاولى وصوت غطاس ينبح بصوت عال « انتباه » ليدخل قائد المعتقل ووراءه الضابط حمدى وكرباجه يلعب من الخلف كذيل الكلب ٠

كان الشعور بالسخط خلال تلك الايام قد استبد بى وفى ذلك اليوم بالذات وخاصة وقد حدثت مشادة بينى وبين جاويش الفسحة حينما كنت امسح وجهي بالفوطة واصر على انى اعطى اشارات لزملائى فى العنابر الاخرى ٠

وتدخل الزملاء منعا لتدهور الموقف وسكت الجاويش بعد ان حصل على علبة سجائر وينجز ، ويبدو ان علبة السجاير لم تؤخر الصدام سوى ساعة بعد ان انتهت كل العنابر من طوابيرها(٠)وقفت امام سريرى مثلما طلب مناواخذ طابور العسكر يتمخطر فى هدوء بيننا داخل العنبر القائد فى المقدمة ووراءه الضابط حمدى ثم الجاويش غطاس ثم جاويش الفسحة ٠

كان القائد فيما هو واضح من رتبته وسنه الذى جاوز الخمسين أنه ترقى من تحت السلاح أى انه بدأ حياته « نفرا عاديا » وكان وجهه الجامد وعينيه الغائرتين يعكسان جمودا وغباءا شديدين ٠

وتوقف الركب أمام أحد الزملاء وساله القائد عن اسمه ومهنته فلما عرف انه عامل ازاحه بيده فى عنف موقعا اياه على السرير وفرقع حمدى بالسوط يلهبه على ظهره مرتين فى حين انطلق غطاس ينبح بسباب قذر ٠

وتملكني شعور بالغيظ والحنق بينما كان القائد يقترب منى ثم توقف أمامى مباشرة بعد ان صاح جاويش الفسحة :

ــ هو دا يافندم ٠٠

وابتسم القائد فى غباء واخذ يتاملنى بنظرات بلهاء وهو يعبث بعصاه الصغيرة فى شعرى المنكوش ، بينما حمدى يفرد كرباجه ٠

— بتشتغل ايه :
— صحفى فى جريدة المساء ..
— يعنى جرنالجى .. مش كده ؟
— حاجه زى كده ..
— علشان كده كنت تبدى اشارات وتكتب على الهواء ..
— اكتب على الهواء .. !!
— طبعا أنا عارفكم كويس .. انتم شياطين ... تعملوا أى حاجـــة ..
— أنا كنت بامسح وجهى بالفوطة .. اللى بتقوله سيادتك دى أوهـــام ..

صرخ الضابط حمدى : أوهام يابن الـ ..
وكاد يهوى بسوطه ، ولكن يد القائد اسرعت وامسكته .
— بلاش دلوقتى ياحمدى .. هو هيحرم يعمل كده تانى .. مش كده .. ؟؟

وعلى قدر صرخة حمدى ، بل وأعلى من صرخته قلت :

— أنا لم أفعل شيئا .. ثم ان اللى هيشتمنى هشتمه ستين مره .. هكذا خرجت الكلمات دون ان أفكر فيها .

ومرت لحظات صعبة طويلة لم يستطع حمدى أو غطاس ان يقوم بأى مبادرة بينما بدأت تسود العنبر همهمة غضـــــب ملحوظ .. ورفع القائد يده مهدئا .. وكانت تلك من لحظات ذكائه النادرة ، ثم قال موجها كلامه لكل العنبر .

— مش عاوز هيصه .. الاوامر لازم تمشى ، واللى هيخرج عن النظام هنعرف نادبه كويس . ثم انسحب ووراءه زبانيته .. واغلق الباب .

وصاح عبد الغفار سلام أحد الزملاء النقابيين فى صوت تعمد ان يكون مسموعا وخافتا فى نفس الوقت :
فى ستين كسحة .. هو كده الشغل .
وشملت العنبر ضجة مرحة .. وانطلقت بعض الضحكات وجاء كثيرون يشدون على يدى ونادى زميل على عنبر واحـــد واخر على عنبر تلاته وقـــــد كنا بين الاثنين وأخذا يحكيان

لهما عبر النوافذ الحديدية ماجرى ، ولم يتدخل العسكرى الواقف بين العنبرين كعادته فى مثل تلك الاحوال .

اسبوع كامل مضى ونحن نتلقى كل يوم ضربات مفاجئة والمعاملة تسوء وتمضى بوتيرة اسرع وكنا فى تلك الاثناء اشبه بمن دخل الحلبة فى الجولة الاولى وفوجىء بخصمه يكيل له الضربات قبل ان يكون مستعدا . والاتصالات ممنوعة ، بل ومحرمة بين عنبر وآخر وحتى فى داخل العنبر الواحد كانت عيون العساكر مسلطة علينا تحصى كل حركة ، حتى ان حمدى أبو كرباج أخرج زميلا خارج العنبر وانهال عليه باللكمات لانه تحرك من سريره وكان ماحدث فى عنبرنا فى ذلك اليوم أول لكمة نوجهها الى الخصم لنثبت وجودنا على الحلبة .

والواقع ان الفترة التى قضيتها فى معتقل العزب فى الفيوم كانت كلها مباراة ملاكمة طويلة ، بيننا وبين الادارة ... اسبوع واحد فقط كانت اللكمات من طرف واحد .. ثم ظهرت بعد ذلك ندبة كاملة من جانبنا .

الادارة بكل هيلمانها وسلطتها وقسوتها توجه لنا لكمة هذا اليوم ونحن بعقولنا وبحبنا للحياة واصرارنا للدفاع عن القيم الجميلة حتى داخل الاسوار نوجه لها لكمة فى اليوم التالى .

هكذا سارت الامور طوال قرابة ستة شهور ..
من ناحيتنا نجحنا فى تكسير جو الارهاب الكئيب المحيط بنا وامكن تنظيم شبكة اتصال عبر النوافذ بين العنابر كلها . ومايجرى فى عنبر واحد أصبح يعرفه سكان عنبر ٨ فى نفس الليلة . وبدأنا نتحرك ونفكر بعقل الجماعة ففرضنا حرية الحركة داخل العنابر كأمر واقع ، بل وبدأنا ننظم الجلسات والندوات الثقافية والترفيهية .. هذا يحكى بعضا من القصص العالمية لهمنجواى وشولوخوف وايليا اهرنبرج وجميس جويس وجوركى وطه حسين ونجيب محفوظ .

وذاك يعرض مسرحيات لتوفيق الحكيم وشكسبير واسيورن وكشيكوف وسارتر واونيل وتنس وليامز وبريخت ونعمان

عاشور والريحانى وآخر يعرض بعضا من الافلام ٠٠ ومجموعة تقوم بعرض كتب وافكار لســارتر وهيجل وماركس وفولتير وروسو ومحمد عبده والافغانى . وآخرون يتغنون بالحان سيد درويش وبول ردسون وعبد الوهاب وعبده الحامولى وفرانك ســيناترا .

ورغم كل الحظر والاوامر تمكنا حتى من استحضــار بعض الصحف والمجلات (٠) على ان كل هذا كان يحدث خلال معارك متصلة ٠ فالادارة لم تسكت عنا يوما واحدا ، ولم تسلم لنا بأى حق ٠٠٠ كانت تتغافل يوما أو يومين ثم تنزل بكل ثقلها فى اليوم الثالث لتجمع مندوبى العنابر مثلا لتقوم بجلدهــم أمام مبنى الادارة ولتحاول ان تشيع جوا من الارهــاب ٠٠٠٠ وفى مثل ذلك اليوم يصول ويجول غطاس ولايكف لسانه وذراعه عن العمل ٠

ونعود لتمسك بالمبادرة فى اليوم التالى فنمتنع عن تسلم الطعام أو نتباطأ فى الدخول الى العنبر بعد انتهاء مدة طابور الفسحة أو نرسل مندوبين اخرين لقائد المعتقل لينذره بتحمل المسئولية ، وبان يوما ما سيأتى ويدفع ثمن كل هذا ٠٠ فيعود ليعتذر وليقسم بشرفه ان شيئا من هذا لن يتكرر ٠٠ ولكــن قسمة سرعان مايضيع بعد بضعة أيام . ولم يكن من الممكن أن تستمر لعبة القط والفار بيننا وبين قيادة المعتقل ٠٠٠ جاء يوم كان لابد وان تحدث المعركة الفاصلة ٠

قبل ذلك بعدة ايام كان أحد الضباط قد عثر عــلى بعض الاوراق مع أحد الزملاء ٠ والورقة والقلم كانت بالنسبة لنا كبيرة الكبائر ٠ فاســتدعى المهندس فوزى حبشى الى الادارة وقامت مجموعة من العساكر ومعهم الضـــابط بضرب الزميل بالشوم ثم جلده على العروسة ولا ادرى لماذا تسمى هذه الآلة الرهيبة بذلك الاسم ، اللهم الا اذا كان ذلك لان المضروب يربط على الصليب فى حالة احتضان ٠

وبعد ذلك بيومين أخذت جماعة من الزملاء المرضى الذين كان من المفروض ان يذهبــوا بهم الى مســتشفى الفيوم القريب للكشف فضربوا أمام الادارة بالكرباج وجريد النخل ٠

وكان لابد ازاء هذا التصاعد في عدوان الادارة من التفكير في خطوة جديدة ·· اكثر فاعليه وأكثر خطورة ·

وفي هذه الليلة دارت الاتصـــالات بين جميع العنابر ··· وكان القرار ·· وفي اليوم التالي رفضنا استلام الاكل ·· وحين جاء قائد المعتقل ليرهب وليرغب قابلناه بهجوم شديد ، وقال له زميل عامل :

انت لست أهلا للحديث معك ··· اننا سياسيون ولسنـا تجار مخدرات ، لذلك فنحن نريد مسئولين من القاهرة للتحدث اليهم ··· وكان من الواضح انه قد اسقط في يد القائد الذى حاول ولمدة يوم كامل ان يحل المشكلة حتى لايظهر على الاقل أمام المسئولين انه عاجز عن قيادة المعتقل ··

وازاء اصرار الخمسمائة معتقل استنجد القائد في اليوم التالي بوكيل المحافظة الذي جـــاء الى المعتقل بفرقة كاملـــة احاطت بالعنابر من كل ناحية ·· ولمدة ساعة ظلت تمارس علينـــــا عمليات ارهاب نفسي محكم ··· ضجة واصوات عالية واوامـــر مشددة هنا · وعساكر تهرول هناك وأصوات البنادق وتكة الدبشك ·· وبعض الطلقات المدوية في الهواء ·

ووكيل المحافظة وقائد المعتقل يتعمدان ان يصدرا أوامـــر تكون مسموعة لدينا ·· اضربوهم بلا رحمة ·· اللي يرفع رأسه اضربه في المليان ··· دول خونة ·

ساعة كاملة ونحن قابعون في عنابرنا المغلقة نوافذهاتسمع ونرصد كل حركةوكل صوت وتتقابل عيوننا في حيرة ودهشة احيانا ، ولكن في ثقة في اغلب الاحيان ·· كما قد اتخـــذنا قرارنا بالمواجهة الى اخر مدى ·

وبدأ الماتش ··

اخرجوا عنبر واحد الى الحوش ·· وأمام كـل معتقل وقف جندى شاهرا بندقيته ووضـــعت أواني الاكل بين المعتقلين والجنود ·

وصاح وكيل المحافظة الذي جاء ليجرب حظه معنا :

ــ عندى أوامر بضرب النار في المليان ·

وبحركة مسرحية قال : عسكرى استعد .
وأخذ العساكر فعلا وضعهم ووضعوا اليد على الزناد .
وبحركة مسرحية أخرى قال :

ــ معتقلين .. كل واحد يتقدم خطوه .. وياخذ اكله .
ولم يتقدم أحد ..
وأعاد وكيل المحافظة أمره السابق بصراخ حاد :
ولكن أحدا لم يتقدم ..
ــ دخلوهم العنبر ..
وجاء الدور على عنبرنا .

ودخل الزملاءعنبر واحد وعلىوجوههم ابتسامة النصر والثقة
وتكررت نفس المسرحية .. وتكرر نفس الموقف .
وفى ضيق شديد صاح قائد المعتقل ..
ــ اضرب ياعسكرى .
ولكن العساكر لم يضربوا وتطلعوا الى وكيل المحافظة ، ولقد كانوا كلهم من قوة المحافظة وليس من قوة المعتقل .

ولكن وكيل المحافظة أشار بان يخفضوا بنادقهم .. ثم اشار إلى الزميل محمود عطا اللــه رئيس نقابة عمـــال كفر الدوار قائلا :

ــ انت تعالى هنا .. قرب.. مش عاوز تاخذ الاكل ليه ؟؟
وبدأ محمود يحكى فى ثبات عن التعسف الذى نلاقيه داخل المعتقل من القائد وضباطه والجلد المستمر الذى وصل الى حـد جلد المرضى وسوء التغذية الذى نتعرض له ومنعنا من طوابير الشمس ومن الورقة والقلم والكتاب والصحيفة والراديو .

وتقدم الدكتور فايق فريد وتقدمت معه لنساعد محمود على شرح مشاكلنا . كان وكيل المحافظة من ذلك النوع من الموظفين الذين يخلصون لمهنتهم ، ولا تشغلهم السياسة من قريب أو بعيد وبالتالى لم تكن لديه مصلحة خاصة فى تعقيد الامور .

كان موظفا يريد ان يقوم بمهمته بنجاح .. وكانت المهمـــة الملقاة على عاتقه مثلما أوضح هو ان نوقف التمرد ونأخـــذ الغذاء .

واستطعنا ان نشرح قضيتنا جيدا فنحن نعرف ان وكيل المحافظة ليس مسئولا عن اعتقالنا لكى نطالبه بالافراج عنـــا ، وركزنا مطلبنا في ان نعامل معاملة انسانية ، وان تقف جميع اساليب التعذيب من ضرب وجلد واهانات ... وان تتاح الفرصـــة لان نكتب خطابات لذوينا ونتسلم خطاباتهم وان تفتح العنابر فترة أطول ويسمح لنا بقراءة الصحف والاستماع الى الراديو واستخدام المكتبة .

كما اضاف الدكتور فايق فريد موضوع التغذية .. وطالب زيادة مخصصاتنا فى الغذاء حيث ان غذاء المعتقل كان يكلف ٥٦ مليما وهو مبلغ ضئيل لايمكن ان يفى باحتياجات طفل .. كما شكك الدكتور فايق فى أمانة ادارة المعتقل والمتعهد .. فقطعة من الجبن القريش ومقادير ضئيلة من الفول وثلاثة ارغفة لايمكن ان تقيم أود أى انسان والا اذا كان المطلوب قتلنا بالجوع البطىء .

كان وكيل المحافظة يسمع الى شكوانا ووجهه يموج بمشاعر كثيرة متضـــاربة فالمطالب التى نضـــعها أمامه يتمتع بها أى مسجون عادى فى السجون سواء كان لصـــا أو قاتلا أو تاجر مخدرات ، وكان بين الحين والاخر ينظر الى قائد المعتقل ومعاونيه يريدمن أحدهم ان يكذب الوقائع التى نقدمها .

بينما كان قائد المعتقل والضابط حمدى ينفثان الغيظ والشرر من عيونهما فى صمت .

أما غطاس فلقد وقف وهو يتوعدنا بحركات من يديه ووجهه .. وحينما اثرنا قضية الغذاء وتواطؤ المتعهد مع الادارة تسلل غطاس متجها نحو مبنى الادارة .

وكسبنا المباراة .. أو على الاقل هـــكذا بدت الامور من السطح .. فنقل الضابط حمدى والجاويش غطاس من المعتقل، وأوقف الضرب والجلد .

وجاء متعهد آخر كما سمح لنا باستلام خطـــابات ، بل وطرود اغذية وادوية من ذوينا ، أما المطالب الاخرى فقد حصلنا على جزء كبير منها بالممارسة .

ويبدو انه في نفس اليوم الذي حققنا فيـــه انتصـــارنا في معتقل العزب بالفيوم وانهاء سياسة التعذيب والتجـــويع .. كان هناك قرار اخر في القاهرة قد اتخذ بعد ان ثبت ان تجربة الفيوم لم تنجح .. ففي الاسبوع الاول من شهر يونيو اخـــذوا اربعين زميلا وحرلوهم الى سجن الواحات الخارجة .

تسلمت أول خطاب من والدى بعد اربعة شهور وبالرغم من انني قرأت الخطاب فور تسلمه مرة وثلاث الا انني عدت اليه في المساء اقرأه على مهل تحت اضواء العنبر الشاحبة .

كان الخطاب مليئا بعبارات موحية ففيه يقول والدى :
« لقد امسكت بالقلم وقبضت عليه لكي يكتب ما أمليه عليه ولكنه رفض في اصرار كأنما يقول لى كيف اكتب وأنت تمسك بخناقى » .
وفى فقرة اخرى يقول الخطاب .

«بالرغم من انك ابنى الاصغر الاانك كنت دائما حكيما عاقلا تحب الخير للناس قبل ان تحبه لنفسك » ، ثم يضيف « ليس عندي سوى ماقاله رسول الله (والله ما اقلت الغبراء ولااظلت الخضراء من رجل اصدق من أبى ذر) .. » .

واحسست بمشاعر الطفل الصغير ازاء والده وملأ وجهه الحبيب دمعة ترقرقت في عينى واجتاحنى احساس غريب في تلك الليلة اننا نلتقى فعلا ، وانه يشد على يدى ويحتضننى الى لى مرة اخرى عن عمر بن الخطاب وعلى بن ابى طالب وعمر بن

عبد العزيز وابو ذر الغفارى ، ثم ضحكاته العالية والصافيـــة وهو يقول : «هل تعرف ان اباذر كان له اخ اسمه انيس مثلك مرة اخرى اتصور اباذر الغفارى كما تصورته دائمـــا بوجهه الاسمر وعينيه اللامعتين بالحب ومعاوية ابن ابى سفيان وقد اصبح خليفة للمسلمين بعد ان اغتال تعاليم الاســـلام وهـــو يصرخ :
— ياأبى ذر لقد اشتكى الاغنياء منك وقالوا انك تؤلب عليهم الفقراء .
ويقول أبو ذر :

ـ انى انهاهم عن الكنز لقوله تعالى (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) •
ـ انها نزلت فى أهل الكتاب ياأبا ذر •
ـ بل نزلت فينا وفيهم •
ـ انى كامير للمؤمنين آمرك ان تكف •
ـ والله لاستمر على دعوة الناس ولأبشرن الكانزين بعذاب النـــار •

ـ خير لك ان تنتهى عما أنت فيه •
فيقول ابو ذر فى ثقة المؤمن بالحياة والناس والخير :
والله لا انتهى حتى توزع الامـــوال عـــلى النـــاس كافة
ويصرخ معاوية مهددا :
ياأبا ذر •• هذا فراق بينى وبينك •• جاذروالا •
فيردد ابا ذر بصوت اعلا :

ـ والله لا انتهى حتى توزع الاموال عـــلى الناس كافة •• والله لاانتهى حتى توزع الاموال على الناس كافـــة •• وخيم الصمت والهدوء والليل على المعتقل • فلقد كانت ليلة استلام الخطابات،وعاش كل منا حياةخارج الاسوار من خلال خطاب أب أو ام أو زوجة أو حبيبة أو ابن لاول مرة منذ شهور •• كنت ارفع رأسى لاتأمل الزملاء وقد رقدوا فى أوضاع مختلفة بعضهم اضطجع على حافة السرير مغمضا عينيه والبعض الاخر جلس صـــامتا يعبث بشـــعره ، وارتدى عادل ثابت بيجاما جديدة وصـــفف شـــعره وجلس حالما وفى يده خطاب زوجته •• واغرورقت عينا الدكتور جميل حقى بالدموع وهو يمســـك بخطاب امه اما عبد الســـلام مبارك فقد اخذ يجوب الممر الفاصل بين الاسرة واضعا يده خلف ظهره بعد ان تســـلم خطابا من زوجته المعتقلة فى القناطر ••

وادركت ان الجميع مثلى يعيشون فى جزر الاحلام الخاصـــة التى بدأت تحضر فى احلامهم بعد ان تسلموا الخطابات •
وفى هدوء الليل انساب نفس الصـــوت القوى الرصين بنبرته التى تحمل الحزن والالم الخصب :
يا لى انتى بينى وبينك سور •

بكره العيون هتشوف النور ..
بكره يا روحي الهنا
هيفيض على الدنيا
وقبل متفوت سنه
هنعيش فى حريه

كان الصوت قادما من احد العنابر التى عاشت كلها ليلة خارج الاسوار .. ويبدوا ان العسكر قد ادركو هذا فكفوا ليلتها عن نداءاتهم بالتمام .

كان لليلة سحر وطعم خاص ،ولاول مرة افكر فى الفيوم الاخرى تلك الواحة التى انتزعها اجدادنا من بين الصحراء وزرعوا فيها الحياة والدفء . ونسيت المعتقل والاسوار واخذت اجوب واحه بلادى الكبير وما احمله لها من ذكريات .. عين السلين وكوم اوشيم والسواقى السبع التى اختارها المغنى الشعبى العظيم والمجهول ليبثها شكواه وآلامه فهى بكل مائها تنعى وناره لاتنطفىء .. ويا لها من نار عظيمة خالدة تلك التى لا تنطفىء ابدا بل تظل مشتعلة تبعث الدفء والنور فى القلوب حتى ولو كانت داخل اسوار شائكة وامسكت بالقلم اكتب خطابا لوالدى ..
وكتبت كلمات ناظم حكمت :
ابى ..

أن أجمل الايام هى تلك التى لم نعيشها بعد وأجمل الاحلام هى تلك التى لم نحققها بعد واو كنت أعرف ما سيأتى لكتبت له .
واقسى الآلام هى تلك التى لم نعانيها بعد .

قفوا ســاكتين . كغابة من الناس كثيفة خرســاء بأذرع مكتوفة ونظرات قوية كأنهـا السلاح في حــرب لم تنلها هزيمة

(شيل – قصائد المقاومة)

سبتمبر ١٩٥٩ .

الترحيله مره اخرى ...

والقمر هو نفس القمر الهادىء الساكن الذى يجوب سماء مصر الصافية يغرق الوادى فى بحر من النور الصامت تتضاءل الى جانبها تلك اللمبات الكهربائية الشاحبة التي تتناثر على رصيف محطة المواصلة .. جنوب سوهاج .. ومادام هناك قمر ومادامت الرياح الخفيفة المنعشة تحمل الى الانف عطـر المزارع والارض الطيبة المحيطة والممتـــده على مراى البصر تتلاشى الحجلة وبتضاءل القيد الذى يمسك بمعصم اليـــد ويهون كل شيء ..

هكذا رقدنا على رصيف محطة المواصلة بعــد رحلة دامت خمسة عشر ســاعة من الفيــوم الى محطة بني ســويف بالعربات ثم من بنى سويف الى المواصلة فى عربة مغلقة فى اخر القطار مخصصة لنقل الحيوانات – مرورا بالمنيا واســيوط وقنا وسوهاج ..

كان من الواضح فى الايام الاخيره لنا فى معتقل الغــرب بالفيوم انهم بصدد تصفية المعتقل بعد ان فشلوا فى تحويله الى مكان للارهاب والتعذيب .. وان كانـــوا قد احتفظوا به يتحول بعد ذلك الى معتقل (تصفيه) .. اى لمن يرغبــون ان

يخرجوا بالثمن الذى يفرض عليهم ٠٠ وكنا نحن الدفعة الثانية التى ترحل الى الواحات بعد دفعة يونيو ٠٠ وقد اختاروا فى هذه المرة أربعين ممن تصوروا انهم قيادة المعتقل وضمت الدفعة مندوبى العنابر ومجموعة من الشخصيات والكتاب والنقابيين المعروفين من بينهم الدكتور فايق فريد والدكتور حسين كمال الدين وعلى الشلقانى والدكتور فوزى منصور واديب ديمترى وفيلب جلاب وشوقى عبد الحكيم وابراهيم عامر ومحمود عطا الله ومحمد صدقى وفخرى لبيب وفتحى خليل ولطف الله سليمان وفاروق ثابت ومحسن الخياط وعبد الله كامل ومحمود السعدنى واسعد حليم ٠

والمواصلة بلدة صغيرة فى اعماق الصعيد تقع بعد سوهاج بعشرات الكيلو مترات حيث يضيق الوادى بشكل محسوس فلاتمتد الخضره على الجانبين لاكثر من بضع كيلو مترات ثم تبدأ هضبات الصحراء الشرقية من ناحية والبحر اللامتناهى من رمال الصحراء الغربية من ناحية اخرى (٠) ودخلت القرية التاريخ المصرى من اوسع الابواب ٠٠ فطوال الخمسين عاما الماضيه كان المواطنون المتمردون العاقون من وجهة نظر السلطة يأتون الى هذه القرية بقطار الصعيد لينتظروا قطارا اخر من نوع قطار الدلتا الصغير لينقلهم الى اعماق الصحراء ٠٠ الى الواحات الخارجه والداخلة ٠٠ على بعد اكثر من مائتى كيلو مترا ٠

ولقد عرف هذا الطريق كل من احب مصر وخرج معارضا للسلطة دفاعا عن عقائده ٠ منذ حكم الرومان حين هرب المسيحيون الاوائل بدينهم الى الواحات بعيدا عن طغيان دقلديانوس ثم كانت المنفى الرسمى لسلطة الرأى والانجليز، وقد قيل ان انصار سعد زغلول نفوا هناك الفترة ٠٠ وفى ايام اسماعيل صدقى ومحمود محمود نفى اليها اعداد كبيره من الشباب والموظفين وكان النفى ياخذ شكل تاشيره بالنقل الى الواحات ، وربما كانت المرة الاولى التى ذهب اليها معتقلون بشكل رسمى فى عام ١٩٤٧ حين نفى الى هنا عدد من ضباط وصولات سلاح الطيران منهم سيد سليمان رفاعى

وفؤاد حبشى ويوسف مصطفى الذين اتهموا بالشيوعية ٠٠ ومنذ هذا التاريخ طابت الفكره للمسئولين لكى يلقوا فى غياهب صحراء الواحات بخصومهم السياسيين بعد ان كانت جبل الطور هى المكان المختار لهذا الهدف ٠

كان الافق الشرقى الغارق فى أعماق الصحراء قد بدا يحترق مبشرا بظهور الشمس الوليدة وقد نام بعضنا سندا راسه على ظهر اقرب زميل له فى الحجله بينما كنت احس بيقظه شديد ربما لانى سرقت بعض الساعات نمت فيها فى القطار وربما للاحساس الذى اجتاحنى وجعلنى التهم بنهم شديد كل أراه حولى فى تلك البقعة النائية من صعيد مصر التى لم تطاها قدمى من قبل(٠)كانت القطارات السريعة المتجهة الى اسوان والاقصر والعائده منها تتوقف قليلا عند المحطة واستغرق مع الركاب وانفعالاتهم حين تصطدم انظارهم بالترحيلة ٠٠ البعض يتهامس ويشير الينا والبعض الآخر يكتفى بالنظرة الجامدة ٠ وطفلة صغيرة ترمى الى بكعكة فى يدها ٠٠ تماما مثلما كنت افعل مع الاسود أو القرود فى حديقة الحيوانات ٠ وقال احمد شوقى عبد الحكيم زميلى فى الحجلة وهو يلاحق بنظراته قطارا كأن يغادر المحطة والضربات المتلاحقه للعجل ترن على القضيب ٠

ـ ياه ٠٠ تعرف كان ممكن كلهم يموتوا تحت العجل ٠
ـ مين ٠
ـ دفعة يونيو ٠

واخذنا نتخيل الصوره كما سمعناها على ارض المعركة كانت الدفعة التى سبقتنا فى يونيو الماضى قد تعرضت لمأساة كادت ان تتحول لتراجيديا جماعيه ٠٠ فحين وصلوا محطة المواصلة وبدأت اجراءات انزالهم من العربة بدأ القطار يتحرك (٠)كانت هناك مجموعة كبيره مازالت داخل العربة فى حين كان هناك بعض الزملاء قد نزلوا على الرصيف ويربط الجميع سلسلة واحده ٠

وزادت سرعة القطار والذين فى داخل العربة يتشبثون

بمواقعهم فى حين كان الزملاء الاخرون يجر جرهم القطار على
الرصيف ثم على الفلنكات .. واخذت اتصور عبد الستار
الطويلة والدكتور رزق عبد المسيح وعزب شطا وغيرهم
والقطار يسحبهم وهم يصطدمون بالزلط وخشب الفلنكات
وبين لحظة واخرى يتوقعون ان تشدهم عجلات القطار
لتطحنهم جميعا ومعهم الزملاء الذين كانوا داخل العربة .

لحظات قاسية سواء كانت دقيقتين حسب الرواية التى
وصلتنا او خمس دقائق حسب الرواية الاخرى .

ولقد قال لى عبد لستار الطويلة بعد ذلك وقد كان اقرب
المجموعة الى العجله ..

كانت راس تدور بنفس السرعة التى تدور بها عجلةالقطار
كان مصيرى ومصير الاربعين الاخرين الذى يرتبطون بالسلسلة
الواحدهيتوقف على مدىقدرتى فى الابتعاد عن عجلة الموت..
كنت قد سمعت ورايت فى الافلام عن انواع التعذيب فى
القرون الوسطى حين كانوا يربطون الفلاح الى ذيل حصان
جامح أو عربة تجرها مجموعة من الخيول .. ولكن فى هذه
المرة كل قطارا جامحا .. صورة كلما تخيلتها حتى هذه
اللحظة اغمضت عيناى ورعده شاملة تجتاح كل جسدى ..

ولقد تدخلت الصدفة تماما مثلما يحدث فى الافلام المصرية
لكى لاتمضى المأساه الى النهاية فقد تنبه خفير فى المزارع
المجاورة لما يحدث واطلق عدة اعيرة نارية مرت جوار السائق
جعلته ينظر الى الخلف ليرى المأساة وليوقف القطار ..

واخيرا جاء القطار الصغير ...

وملأنا عربيتين بينما ربض الحراس فى العربة الخلفية
وتحركنا صوب الشرق .. كانت الشمس قد بدأت تنخفض
عنها كل اثار المخدر والغلالات الحمراء وغمرت المكان باشعتها
الدافئه ثم الساخنه .. بينما كان القطار هو الاخر وبعد
بضعة كيلو مترات قدخلف وراءه الوادىالاخضر ويدخل وسط
كثبان ممتدة من الرمال وبعد اقل من نصف ساعة كنا قد

غرقنا تماما فى بحر من الرمال ، والهضاب والقطار بمن فيه هو المظهر الوحيد للحياة والحركة ٠

كانت كل خبرتى السابقه بالصحراء هى طريق القاهـرة الاسكندرية الصحراوى وطريق القاهرة الفيـوم ، ثم بعض المعلومات الجغرافية ٠ وبعض الصـور ، ولكن ذلك كله شىء والاحساس بالصحراء الذى احتاجنى ونحن نوغل سـاعات طوال فى اعماق الرمال شىء اخر ، ان القضية ليست مجرد امتداد اللون الاصفر الداكن على مدى البصر والاحسـاس بالوحشه والخوف ٠٠

انها احساس اخر تماما ربما توصل اليه بعد دراسـات مطوله اساتذه التعذيب ٠٠ الاحساس بانك تفارق الحيـاه فعلا ٠٠ وفى كلمة انه الاحساس بالعدم ٠
وقد شغلنى فى الساعات الاولى الرؤياء الجديد ، فاخـذت اتطلع من نافذه القطار واسرح بخيـالى فى تلك التكوينات الغريبة للرمال الصخور الداكنه ٠٠ وبينما كانت الشـمس تستبد اكثر واكثر بذلك الخـلاء الموحش بدأت اتخيل على مرمى البصر اشباح غزلان تجرى أوذئاب نفر مذعورة من صوت القطار ٠٠ ولعلى كنت اتشبث بوهم انه لابد وان تكون هنـاك حياه ٠٠ ولكن ساعات اخرى بعد ذلك اخرست حتى اوهامى واجتاحنى ذلك الاحساس القاتل ٠٠ وهو فقدان الاحساس بالحياة ٠٠ وبدأت استعيد كل الصور التى كنت اقرأها عـن الصـحراء كمجـرد تعبير وتركيبات لغـوية ٠٠ ت ٠ س البيوت شاعر اليأس والارض الخراب وهو يختار الصحراء نموذجا للافلاس والموت العدم (تعالى لترى الموت فى قبضه من الرمال) ٠٠ ولا ادرى لماذا اجريت فى ذهنى مقارنة غريبة ٠٠ كنت اتصور نفسى فيها وحيدا اصارع امواج بحر مترامى ولاشىء سوى مياه زرقاء ممتده ٠

ومره اتصور نفسى فى غابة كثيفة مليئه بالوحوش العظيمه والوحوش الحقيرة أقفز بين الاشجار هربا ممن يعتبرنى قوته وبحثا عمن اعتبره قوتى ٠

ثم اعيد نظره اخرى للرمال الممتده فاوقن ان حياة البحر رغم امواجه المتلاطمه وحياة الادغال رغم المخاطر المتعدده اقل قسوة بكثير من أن يتوه الانسان فى الصحراء ٠٠ على الاقـل

هناك حركة وحياة يمكن ان تستمد منها بعض الامل ، ولكـن الرمال جرداء قاحله تهرب منها كل مظاهر الحياه ٠

سبع ساعات والقطار اللاهث يدب على قضبانه الضيقه بلا انقطاع ٠٠ وزحفت صفره الرمال على وجوه الرفـــاق وكفت السنتهم عن الحركة وكانت عيونهم تقول كل شىء ٠٠

كانت علامات الطريق المثبت فـــوقها ارقام الكيلو مترات تجرى فى اتجاه مضاد ومساو لسرعة القطار ، كل علامة تقفز تطوى معها صفحات كتاب الحياة فيما قبل سبتمبر ســـنة ١٩٥٩ ٠

مائتى كيلو متر مائتين وعشرين و مائتين وثلاثين ،مائتين وخمسين ثم على مرمى البصر سورا أبيض غريبا ولامعـــا وسطا الاصفرار الداكن المحيط ويعلو السور كلما اقتربنا منه وتتضح ملامح المبانى الداخليه ويشـــــير أحمد طه : ــ أخيرا وصلنا ٠٠ هذا هو سجن المحاريق ٠

كان أحمد طه الوحيد بيننا الذى يعـــرف المكان قد غادر هذا المكان منذ ثلاثة شهور فقط بعد ان انهى فترة العقوبة التى اصدرتها ضده محكمة عسكرية ١٩٥٤ حيث كان مـن ابرز القادة العماليين الذين سعوا الى تنظيم وتكوين اتحـــاد عمال قومى يكون معبرا عن الطبقة العاملة المصرية ولقد كان احمد طه يستلهم فى ذلك تراث اخيه عبد القاد طه الضابط الاسمر الذى اغتاله الملك فاروق فى اوائل الخمسينيات بعد ان بدأ مثله مثل كثيرين من الضباط الشبان يكشفون فضائح النظام الملكى والمأساة التى عاشها الضباط والجنود فى حرب فلسطين نتيجة خيانة النظام والاتجار بالاسلحة الفاسدة : كان احمد مثل اخيه شرسا عنيدا فى الدفاع عن الطبقـــه العاملة المصرية وكان وهو موظف صغير فى شركة ماركونى

يكون اللجـــــان النقابية ويذهب الى النمسا ممثلا للعمـــال المصريين فى المؤتمر العالمى للنقابات العماليه ..
وحينما القى القبض عليه سنة ١٩٥٤ دافع عن العمال المصريين وعن حقهم فى تنظيم انفسهم بعيدا عن تدخل السلطات وهاجم ذوى الياقات البيضاء من النقابيين الصفر الذين باعوا مصلحة الطبقة العـاملة مقـابل بعض الميزات الخاصة الصـغيرة التى اغدقها عليهم البوليس السياسى .
وبالرغم من أنه كان قد اتم الســـنوات التى حكم عليـه بها وافرج عنه فى يناير ١٩٥٩ الا ان ذلك لم يمنعهم مـــن اعتقاله فى ٢٨ مارس هو وزوجته فقد كانوا يعرفون انه ليس من النوع الذى يسلم السلاح .

★★★

واقتربنا من بوابة السجن الغريب الموحش وسط صفين من العساكر يقفون فى حالة استعداد بينما كل منا يحمـــل حاجياته وشنطه وأقدامنا تغوص فى الرمل الذى لم نتعود عليه ..

كانت الشمس الشـــديدة طوال النهار قد بدأت تشـحب وتصفر اشعتها وهى تكاد تغرق من خلفنا وسط الرمال ..
ونحن ندخل كالاشباح الأسطوريه الزنازين التى اعدت لنا بالابراش والبطاطين .
وجلست على البرش متعبا مرهقا بعد رحلة دامت اكثر من ٢٤ ساعة واحساس بالوحشة يملوء اعماقى بينما كان زميلى محسن الخياط على البرش المجاور مسند رأســـه على جدار الزنزانة يتمتم فى صوت نصف مسموع كلمات بول ايلوار الشاعر الفرنسى الذى أعدته النازيون .

على الغابه ، على الصحراء
على صدى طفولتى
على كل الصفحات البيضاء
حجارة كانت او دما
ورقة أورمادا

اكتب اسمك .
على بركة الشمس الاسنه
على بحيرة القمر المتألق
على كل لهفة فجر
على الجبال الرعناء
على مزلاج بابى
على جباة رفاقي
على ملاجىء الخربه
على جدران صخرى
وحتى فوق الصمت
اكتب اسمك .
على عتاب بلا رغبه
على عزله عاريه
على مخاطرة خفيه
على امل بلا ذكرى
على خطوات الموت
اكتب اسمك .
وبقوه الكلمة .. ابدأ حياتى ثانيه
لقد ولدت لاعرفك ... ولاحبك
ولاسميك .. أيتها الحـرية .

- ٨ -

ومن بين القضبان ٠٠ وفى
عتمة الليل وبالرغم من الجدران
الثقيلة الجاثمه على صدرى ٠
فان قلبى ينبض مع ابعــد
نجم فى السماء ٠

(ناظم حكمت)

اكتوبر ١٩٥٩

المحاريق ٠٠٠

ياله من اسم يعبر تماما عن تلك البقعه الجرداء الموحشة ٠٠٠ وأى محاريق اكثر من أن تقبع فى زنزانة خلفها حراس ثم اكثر من مائتى كيلو متر من محيط اصفر يفصـــلك عن ماء النيل وخضرة واديه ٠٠٠

وبغض النظر عن بعض الحكايات التى ترجع الى وقائـــع تاريخية او الى روايات اسطورية فان المكان كان « محرقة » بحق ٠٠٠ يقولون ان الاسم يرجع الى العصر الميلادى الاول حينما كان يتعرض المسيحيون الاوائل لعسف واضطهـــاد الحكام الرومانيين ٠٠ وأن جماعة من هؤلاء قد هربوابمبادئهم الى تلـــك البقعة والقى القبض عليهم فاحرقوا فى أحـــد الاخاديد ٠٠ ومازالت هناك بالفعل ، وعلى بعد بضعة كيلو مترات مـــن الســـجن بعض المقابر والشـــواهد التى يزورها المسيحيون من حين لآخر ٠٠

والبعض يقولون انالتسمية تعود الى شدةوقسوة الشمس واشعتها فى تلك المنطقة حتى انها تحول كل شىء الىلونداكن أو فاحم ، وبالفعل فأن كل شىء هناك فى حالة شبه أحتراق ٠٠ الرمال ليست صفراء بذلك اللون الكهرمانى المعروف بل

يشوبها رمادية خفيفة وبعض اشجار النخيـــل والزيتون والخروع المتفرقة هنا وهناك سوداء اللون ضعيفة البنيـــة كالحة ..

حتى الانسان .. وقد رأينا بعضهم ونحن فى طريقنـــا الى السجن ، من النوع القزمى النحيف الذى يخالط شحوب وجهه ســـمرة داكنه ، وتحس لدى رؤياهم بأنك امام نماذج متحفية وتاريخية انعزلت عن التطور البشرى ووقفت كجنس منفرد تحيطه الصحراء الشرسة من كل ناحية تفـــرض عليه الانعزال والضمور ..

ولقد فسر بعض زملائنا الاطباء هذه الظاهرة بانه نتيجـة للنقص فى مركبات الكالسيوم وانفوسفور المفقودة فى ذلك المكان بالاضافة الى انعدام الاختلاط والتجانس ..

ولقد اكد لنا هذه الحقيقة رؤيتنا فى اليوم التالى لوصولنا لزملاء لنا كانوايقضون فترة سجنهم فى ذلك المكان بعضـــهم مضى عليه اكثر من خمس سنوات .. كان معظمهم من الاسماء التى سمعت عنها كثيرا عندما كنت طالبا فى الجـــامعة ثم اســـمع بين الحين واخر أنه قد القى القبض عـــلى البعض وانه صدرت بحقهم احكام بالسجن تتراوح بين ٣ سنوات وعشرة سنوات ..

كانت البدل الزرقاء التى يلبسونها ووجوههم الشـــاحبة وعيونهم الغائرة قد اوحت لى من اللحظة الاولى لرؤياهم اننى امام اشباح هاملتية تعيش فى تلك الصحراء لتعذب ضمير مصر كلها .

كان منهم صلاح حافظ الكاتب الشاب فى روز اليوســف والـــذى طالما كنت أحس برنة الفرحة والتفـــاؤل وانا اقـــرأ كتاباته .

وكان منهم مصطفى طيبة ومجدى فهمى العاملان اللذان القى القبض عليهما قبل سنة ١٩٥٢ ، ومحمد شطا احـــد قادة

العمال في شبرا الخمية ، وحمدى عبد الجواد وفؤاد عبد الحليم الطلاب فى الجامعة المصرية فى اوائل الخمسينات والذين حوكموا لانهم عملوا على تنظيم الفلاحين وتوعيتهم ضد الاقطاع وجبروته ٠

وزكي مراد ومحمد خليل قاس المثقفان النوبيان اللذان حاولا ايقاظ ابناء جلدتهم من سبات الجهل والتخلف المفروض عليهم ٠

وداودد عزيز ووليام الملك ، اثنان من اشهر واصدق الفنانين التشكيليين اللذان كانا يمثلان مدرسة جديدة فى الفن منه سلاحا قويا فى يد المضطهدين من اجل اعلاء كلمتهم ٠

اكثر من مائة سجين عاشوا فى تلك البقعة سنوات واعتادوا عليها وكانت رؤيتهم لنا والتقائنا بهم اشبه بروافد تتجمع بعضهما جديد وبعضها قديم لتكون كلها مسارا لنهر واحد لديه من الشباب وقوة الاندفاع ما يجعله يحلم بأنه سيمرق يوما من هذه الصحراء دون ان تجف مياهه لتلتقى بالنيل العظيم ٠

هكذا كان شعورى فى الايام التالية وبعد الالتقاء بالزملاء المسجونين أو بهؤلاء الجدد الذين رحلوا قبلنا من الفيوم او من القلعة ٠

كان هناك ثلاثة عنابر كبيرة يضم كل عنبر عشرين غرفة ٠

وفى عنبر واحد وضعنا ووضع معنا كل المعتقلين سواء الدفعه التى سبقتنا فى يونيو أم هؤلاء الذين رحلوا من القلعة فى مارس ٠٠ اما عنبر اثنين فقد اقام فيه المسجونون الشيوعيون ، وفى عنبر ثلاثة كان هناك المسجونون من الاخوان المسلمين الذين صدرت ضدهم احكام سنة ١٩٥٤ فى اعقاب محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر اثناء خطابه فى ميدان المنشية بالاسكندرية ٠

لقد استطاع الرفاق حقا أن يخلقوا حياه خاصة ومزدهرة فى تلك البقعة سرعان ما بدأت تستوعبنى وتخفف كثيرا من احاسيس الوحشة التى انتابتنى فى اليوم الاول .
كانوا فى حاجة لنا مثلما نحن فى حاجة لهم ..
ولم يكن غريبا وفى الايام الاول ان ترى احد المعتقلين الجدد مصطحبا احد المسجونين القدامى .. الاول يحكى عن الحياة الاخرى التى تركها منذ شهور تنبض وتقفز فى الشوارع والمنازل بذكرى شبه خضراء لم تجف بعد ، والثانى يعطيه بعض الخبرات عن عالم السجن الذى عاشه لثلاث او خمس او سبع سنوات .

ولقد ادهشنى ونا اقف امام بعض اللوحات التى رسمها داود عزيز أو وليام الملك ان أجد نبض الحياة قويا فى الخطوط ، فى الفكرة وفى الالوان . وبقدما ادهشتنى تلك القدرة على الخلق والابتكار التى تشع من خلف نظارة صلاح حافظ بعد اكثر من خمس سنوات فى ذلك المكان .

بقدر ما احسست بالخجل من ذلك الضعف والاحساس بالضياع الذى اجتاحنى ونحن فى الطريق يوم وصولنا .
وأحسست بأن هناك فرقا كبيرا بين ان تحب الحياة وتدافع عنها فى داخلك وبين ان تسمح لليأس والضياع بأن يجريان فى دمك .. ان الدفاع عن الحياة قناعة واحساس داخلى وليس مجرد أشكال مظهرية .. فهناك الكثيرون ولا شك الذين يعيشون فى ربوع الوادى بلا قيود ومنافى أو سجون لايحبون الحياة ولا يدافعون عنها بل ويعملون على تشويهها بينما تلمس من اللحظة الاولى فى عيون الرفاق والذى قضى بعضهم اكثر من خمس سنوات بين الاسوار رنة امل موحية مازالت تنظر الى ما بعد الحاجز الاصفر بطموحات متجددة .

كان كل يوم يمر يزداد الانسان فيه تكيفا مع العالم الجديد . عالم السجن المنعزل والذى لم يكن فى حاجة بالقطع لهذا السور الابيض القائم .
وانتهت حكايات اللقاء .. حكايات كلها قديمة واكثرها

حداثة يرجع تاريخه الى ابريل الماضى ٠٠ وحكايات موغلة فى القدم ٠

وبدأت ، مثلما بدأ الزملاء الجدد ، يبحثون عن وجودهم فى عالمنا الجديد ٠٠ البعض من الفنانين وهواة الفن التشكيلى والنحت راحوا يمارسون هوايتهم ٠٠ واخرون مثلى بدءوا يضعون مشروعات قصص او دراسات ٠٠ واغرق البعض انفسهم فى قراءة الكتب الموجودة ولم تكن قليلة وبعضها جيد ٠٠ وتولى بعض الزملاء تنظيم حياتنا العامة فى حدود الامكانيات المتاحة ٠٠ اى ان يتولواهم استلام كل ما يرد الينا من طرود ونقود يرسلها اهالى البعض ثم يقومون بتوزيع الاحتياجات على المعتقلين والمسجونين بالمساواة ، بغض النظر من ان الكثيرين وخاصة العمال والفلاحين لم يكن يصلهم شىء ٠

وفى المساء وحينما تغلق الزنازين وكانت الزنزانة تضم بين ١٢ الى ١٥ شخصا يبدأ توزيع المهام التى يكون عمدة الزنزانة قد حددها ٠

فهذا يعيد طهى الاكل الذى يوزعه السجن والذى لم يكن يختلف كثيرا عن الاكل فى معتقل الفيوم ، قطعة الجبن وبعض العسل الاسود وأروانة عدس او فول وفى بعض الايام اروانة تورلى ـ وكنا نسميها الحشائش الغريبة وبها قطعه صغيرة من اللحم ٠٠ وبعد انتهاء العشاء يقوم اخر بصنع الشاى ٠٠ هذا بينما يكون هناك زميل قد جهز نفسه ليروى لنا قصة عالمية او مسرحية او يحكى بعض خبراته الخاصة ، وفى بعض الليالى تدور مناقشات سياسية حول الظروف التى تمر بها البلاد والمنطقة العربية ٠٠ بينما يشترك كل اثنين او ثلاثة فى تدخين سجارة « ونجز » ٠٠

وفى الصباح كنت اقوم بزيارة لبعض الزملاء المسجونين فى عنبر (٢) اذ كنت مشوقا لان اتعرف على تجربتهم الطويلة فى السجون ٠٠ وايضا للتعرف على تقديراتهم السياسية لما يجرى من احداث ٠

على ان عنبر (٣) حيث الاخوان المسلمون كان يشدنى هو الاخر وكثيرا ماكنت اتوقف طويلا فى الفناء الذى يفصل عنبر اثنين عن عنبر ثلاثة لأتأمل بعض هؤلاء الذين كانوا يتميزون أما باللحية التى اطلقها غالبيتهم او بالاجسام الممتلئة .

لقد كنت دائما اختلف مع الاخوان المسلمين حتى قبـــل ان اكون ماركسيا .. فقد كان هجومهم على حزب الوفـــد وتعاونهم مع الملك احيانا والغموض الشديد الذى كان يكتنف شعاراتهم الوطنية والاجتماعية يبعدنى عنهم فكريا .. كما ان تجربتى معهم فى الجامعة بعد ذلك وعدم قدرتهم على اجراء حـوار او نقاش واللجـوء الى العنف دائمـا قد ضاعف مـن اعتراضى على منهجهم .

واليوم يجمعنا سور واحد وتحيط بنـا صحراء واحـدة وتحكمنا وتتحكم فينا ادارة واحدة ..

ولقد كنت اسأل الزملاء الذين عايشوهم لسنوات فى هذا المكان عن علاقتهم بالاخوان وعرفت انها ظلت علاقات جوار طيبة فقط . اذ كان الأخوان وقيـادتهم يرفضون اجـراء اى حوار مشترك .. بل انهم كانوا يعتبرون وجود الشيوعيين فى السجن امر طارىء لان عبد الناصر من وجهة نظرهم اخطر شيوعى فى المنطقة .

وعبثا حاولت ان أناى بنفسى عن المشـــاكل .. كنت لا اتصور ان هناك من يضمنى معهم سجن واحد ثم لا أعرفهم حتى ولو كانت آراءونا متباينة .

وذات صباح رأيته .

زميلى « عاشور » كان طالبا معى فى الآداب والقى القبض عليه فى ١٩٥٤ وحكم عليه لعشر سنوات لانتمائه الى التنظيم السرى للاخون .

وبرغم اللحية وامتلاء الجسم وتغير بعض تضاريس وجهه الا اننى ناديته . والتفت الى بحذر واقتربت منه ولما لم يستطع ان يتعرف على قدمت نفسى له ..

وسرعان ما القى بالقناع الجامد الذى يضـــعه على وجهه وتعانقنا طويلا ٠

كانت تجمعنا ذكريات كثيرة ايام الجامعة ٠٠ كنا على طرفى نقيض فى قسم انجليزى ولكننا كنا فى نفس الوقت اكثر الطلبة حوارا ومناقشة وحركة ٠

كان هو مثلا يصدر مجلة « الهدى » وكنت اصدر مجلة اسميها « الفجر » ٠٠ بل وكثيرا ما كنا نلتقى فى الكافيتيريا لنجرى حــوارا مفتوحا وسط الطلبة حول الافكار والنظريات المختلفة ومستقبل مصر ٠

كان هويرى ذلــك المســتقبل فى خــلافة اسلامية تستمد اسسها وقواعدها من الشريعة الاسلامية ٠

وكنت ارى هذا المستقبل فى اشتراكية حقيقية تعطى لكل حسب عمله وجهوه دونما استغلال او تمايز طبقى ٠

وكان هناك امر جديد بيننا ٠

كنت اناقشه فى الاسلام الحقيقى لاصل به الى ان مبادئه الاصيلة تتفق مع الاشتراكية التى ادعو اليها ٠

وكان هو يناقش فى الاشتراكية لاقناعى بانها تاتى مــع النظام الاسلامى الذى يدعو اليه ٠

كنت اقول له انت اشتراكى ترفع لواء الاخوان ٠

وكان يقول لى وانت مسلم ترفع لواء الشيوعين ٠

لم يكون لديه الجمود التقليدى الذى تميز به الاخوان فى تلك الفترة بل انه لم يكن يحب العنف الذى يلجأ اليه الاخوان فى الجامعة حينما كانوا يستخدمون الكرابيج والسكاكين فى اقناع معارضيهم ٠٠ بل كان يدينه وبشدة ٠

ولقد كنا اصدقاء حقا رغم اختلاف وجهة نظرنا ولكن لم اشك لحظة فى ان عاشور واحد من ابناء مصر المخلصين ٠

ولقد عشنا يوما كاملا ، وقد جلسنا خلف مطبخ الســـجن نجتر ذكرياتنا المشتركة بل ونضحك حتى تدمع اعيننا .

وعندما حان وقت التمام طلبت منه ان اراه فى الغــد ٠ ولكن وجهه اكتسى حيرة مفاجئة ثم قال :

– افضل ان اراك مرة واحده فى الاسبوع ٠٠ وهنا بعيدا عن العيون ٠

– أى عيون ٠٠ !!

– عيون الاخوان ، انهم لايرتاحون لمثل هذه اللقاءات ٠

لماذا ؟

وابتسم فى مرارة

– انت تعرفهم ٠٠ ولست اريد مشاكل معهم ؟ انهماخوان على اية حال ٠

لهذه الدرجة يجمعنا سجن واحد ومحنة مشتركة وتخافون من المناقشة والجدل ، اننا هنا جميعا لاننا لم نتعلم بعد كيف نناقش الفكرة بالفكرة ٠٠ ألم يفهموا الدرس بعد ٠

وسلم عاشور على اتفاق بأن نلتقى كل يوم سبت فى هذا المكان ٠

وكان يوم السبت ٧ نوفمبر ، وكان موعد لقائى الثانى مع عاشور وجاء متأخرا بعض الوقت وهـــو يتلفت خلفه كثيرا وضحكت

– كأنك تقوم بمهمة سرية

– ان هناك عقولا متحجرة كما تعرف ٠

ومرة اخرى غرقنا فى ذكريات الكلية ٠٠ واخذنا نستعيد بعض اشـعار شكسبير وشيلى ولورد بايرون و ت ٠ س ٠ اليوت ٠

واخذ يتلوجزءا من قصيداليوث « الارض الخراب »بصوت مرتعش ٠

سيدة الصمت ٠

حزينة ساكنة ٠٠ ومنهكه

الوردة الوحيدة فى الحديقة

تنتهى بالآلام ٠

تنتهى بلانهاية ٠

في رحلة بلا آفاق •
وتحت شجر « العرعر » الخروع
تتناثر العظام •
وفي يوم بارد تباركه الرمال
تتحد العظام في الصحراء •
هذه هي الارض التي نقتسمها •
ليس المهم ان نقسم او نوحد
ولكن هذه الارض هي التي ورثناها

لقد كان عاشور مغرما باليوت وباشعاره الحزينة واليائسة وقد كنت دائما اسخر منه ومن اليوث •

ولكني استمعت اليه هذه المرة وقد كان يجيد القاء الشعر ، ووجداني كله يهتز ، ليس لما يقوله اليوت ولـــكن للطريقة التي يقول بها عاشور •

وقبل ان اتركه هذه المرة •• قال

ـ على فكرة •• بعض الاخوان كانوا في الادارة النهاردة وسمعوا كلام واستعدادات عن حاجة بكرة تخصكوا •

ـحاجة زي ايه •

ـ محدش عارف بالضبط •• يمكن ترحيلة •• يمكـــن دفعة جديدة او يمكن حد مسئول هيزور السجن •

قلت له ضاحكاً •

ـ يا سيدي •• على اية حال •• غدا يوم آخر •

وكان بالفعل يوما آخر

اشم شــيئا يحترق
ارجو الا يكون عقلى
(جندى امريكى فى فيتنام)

٨ نوفمبر ١٩٥٩

اجرى .. اجرى .. اجرى .
الكرابيج والعصى الغليظة لاتترك فرصة للتفكير .
اركع .. اركع .. اركع .

وضربات الشوم ودبشك البندقية لا تكف عن العمل فى جسدك .. ونار هائلة مشتعلة تكاد تشم منها رائحة اجساد بشرية تشوى .. وبعض رؤساء قبائل « اكلة الحوم البشر» تجلس فى انتشاء وهى تتفرج على الفريسة .
ـ اسمك ايه ياولد

وسواء اجبت ام لم تجب لابد وأن تنهمر عليك الضربات من كل مكان وبكل وسيلة بما فيها ركلات الاحذية « الميرى»
ـ بتشتغل ايه يابن الـ .

والشوم والدبشك والاحذية لا تكف عن العمل .
ـ عاملى سياسى يابن الـ .

ـ قول انا مرة .. قول انا كلب .. قول انا حمار .
ورغم المفاجأة المذهلة ، ورغم التخطيط المحكم الذى ينقلك فجأة الى عالم يضيع فيه العقل فان واحدا من المائتى معتقـل لم يشذ عن احد ثلاثة فى اجاباته :

ـ انا مصرى
ـ انا اشتراكى مصرى
ـ انا أحسن منكوا .

لم يكن أكثرنا تشاؤما يتصور ان ذلك يمكن ان يحدث ٠٠ وحين طلب منا فى الصباح الباكر مـن ذلك اليوم ان يحزم كل منا امتعته فى انتظار الا وامر ، دارت كل التصـــورات والتوقعات حول ترحيلة جديدة ٠

ولكن اغلاق الزنازين والاوامر المشددة بعدم الكلام ثم ذلك الشحوب القلق الذى يعلو وجه ضباط السجن وعساكره وحتى قائده كان يوحى بأشياء مبهمة صعبة التفسير ٠

كان كل ما استطعنا ان نعرفه ان اللواء اسماعيل همت وكيـل مصلحة السـجون ومعه فرقته الشـهيرة بقرقة همت قد وصلت مساء امس الى الواحات ٠٠ وكان ذوى الخبرة فى السجون المصرية يعرفون همت بأنه ناعم الصوت رقيق الجسد أخمر الوجنات تركى الملامح والجذور ثم شـديد القسوة فى معاملته للرجال وكأن بينه وبينهم ثار ، ولديه ولـع مجنون بتعذيب مـن يتوسم فيهم رجولة مكتملة ثم الاصرار عـلى ان يقول واحد منهم « بأنه امرأة » ٠

وبعض النظر عن الحكايات التى تروى عنه وبانتمائه الى الجنس الثالث الذى هـو ليس بـين الرجال او بين النساء ، فلقد اكدت لى تجربتى مع هذا الضابط الدموى نظرية كنت قد قرأت عنها بخصوص « التفسير السيكولوجى للشخصية النازيه » استخلصها المؤلف من دراسات واقعية على عدد من من مجرمى الحرب النازيين والفاشيين بل وامتد فى دراسته الى الشـخصيات التاريخية التى عرفت بقسوتها واستمتاعها بالتعذيب والقتل ٠

وتقول النظرية ببساطة ان مثل هؤلاء من الرجال او النساء غالبا مايعانون من شذوذ جنسى مما يؤدى بهم الى كراهيـــة عميقة لانفسهم وللناس والحياة حولهم ويعيشون دائمـــا فى « حالة انتقام » ٠

وبدأت اغرب تمثيلية شهدتها فى حياتى بل وكان لى دور فيها .

ينادى احد العساكر ستة اسماء ويخرج الزملاء حاملين

معهم كل أمتعتهم وتمر بعض الدقائق ثم فجأة نسمع هرولة وصرخات مكتومة وصهيل خيل وفرقعات سياط وكأننا نسمع موسيقى تصويرية لاحد افلام المعارك ..

ثم ينادى على ستة اسماء اخرى .. وهكذا .

وحتى هذه اللحظة ، وبمرور اكثر من نصف ساعة على بدأ المشهد الاول الذى اخذ يتكرر كل عشرة دقائق كان كل ما استطعت أن اصل اليه بانفعالاتى المحتدمة مع الصرخات المكتومة وصرخات حوافر الخيل وفرقعات السياط أن شيئا ما رهيبا فى الخارج .. ما هو ؟ !

وجاء دورى ، ونودى اسمى مع خمسة اخرين .. كان من بينهم الصاغ الدكتورمحمود القويسنى،والمهندس الجيولوجى فخرى لبيب ، والشاعرمحسن الخياط والطالب الجامعىوجيه سمعان وعامل النسيج محمد عبد الواحد .

خرجنا من الزنزانة ثم من العنبر فى صف واحد امامنا عسكرى وخلفنا عسكرى كل منهم شاهرا سلاحه .

وقبل ان نصل الى بوابة السجن التى كانت مفتوحة على مصراعيها وامامها صف من الخيالة ممسكين بسياطهم واخرين ممسكين بالعصى الغليظة .. انسحب الجنديان بسرعة واحدهما يقول فى الم واعتصار :

– شدوا حيلكوا .. ربنا معاكوا .

وانتقلنا فورا الى القرون الوسطى بخروجنا من البوابة .

اجرى .. اضرب .. كرابيج .. شوم .. الرأس .. العين .. الجسد يلتهب .. اجرى .. فرسان القرون الوسطى يركبون الخيل وفى يدهم السياط يضربون الفريسة وينهكونها .. وعلى الصفين طابور من كلاب الحراسة يمسك بالعصى تنهش .. وصرخات الغابة الوحشية تمتزج فيها ضحكة الضبع الجائع المجنون مع ضوضاء القردة وعواء الذئاب وولولات الصقور .

ثم وعند نهاية سور السجن قرب البوابة الخلفية .. جلست محكمة التفتيش .. رغم كل شىء .. رغم العصى والسياط التى تنهمر كالمطر .. ورغم الاوامر .. اركع ..

اقعد ٠٠ اخفض راسك ٠٠ فلقد كنت مشـــوقا ان اراه ، امبراطور الجنس الثالث ٠

وريث كل ما هو سيء وحقير وحاقد على الناس والحياة ٠٠ الامبراطور التركى اسماعيل همت ٠

كان يجلس كجنرال يقود حربا خطيرة تحت مظلة اقيمت له والى يساره قائد السجن والى يمينه عدد اخر من ضباطه ٠

كان الدم يكاد ينفجر مـن خدوده الحمراء المكتنزة وهـو يضحك بينما جســده كله يهتز ونحن نخلع كـل ملابسـنا لنقف عراه امامه بينما يقوم الحلاق باجتثاث كل شـعر فى أجسادنا بموس معه ابتداء من شعر الرأس حتى الحاجبين وشعر الصدر والعانة ٠٠ اما ملابسنا وشنطنا فقد القيت فى نار هائلة مشتعلة ٠

وبدأ الجنرال النازى يمارس هوايته مع الرجال العرايا٠
واشار بعصاه الى الصاغ الدكتور محمود القوسينى الذى كان فى اول الصف :

ـ اسمك ايه ياولد

ـ الصاغ دكتور محمود القويسنى
ـ صاغ ايه ودكتور ايه يابن القحبة ٠٠ اسمك ايه ياواد
ـ صاغ دكتور محمود القويسنى
ـ بتتحدى يابن الـ ٠٠ والله لحط العصاية دى فى ٠٠
ـ عيب يا اسماعيل يا همت !!

قالها الدكتور القويسنى فى ثقة ومرارة ٠٠ بينما العصى والسياط تنهمر على جسده العارى وهمت يصرخ ويشاركهم فى الضرب ٠

كان الدكتور محمود القويسنى ضابطا فى سلاح الفرسان حتى ١٩٥٤ وكان اسماعيل همت ايامها قد فصل من الجيش « لمسائل الخلاقية » فى بداية ثورة ١٩٥٢ ثم اعيد ضابطا فى مصلحة السجون ٠٠ وكان الدكتور القويسنى يعرفه جيـدا ويعرف نقاط ضعفه فلطالما وقف اسماعيل همت بين يـدى

محمود القويسنى ذليلا مستضعفا لايجرؤ على ان يرفع راسه اليه مبتهلا بانتوسط لاعادته الى الخدمة .

وجاء الدور على الطالب وجيه سمعان .

– اسمك ايه يابن الـ

– وجيه سمعان .. طالب بأداب القاهرة .

–منين ياوله

– من جزيرة شندويل بسوهاج

وصرخ همت فى نباح كالكلبة

– يابن الـ .. نصرانى وصعيدى و... سيوعى !!

هكذا ينظر التركى همت الى المصريين .. ونسى ان رئيس جمهورية مصر فى ذلك الوقت جاء من الصعيد .. ونسى ايضا التراث المصرى الاصيل الذى لايفرق بين المسيحى والمسلم فى وادينا الحبيب .

وجاء دورى .. وصمت تماما ، لم اجب على صراخـــه واسئلته .

احسست بالتقزز من كل ما يجرى ، نسيت العصى المنهمرة والكرابيج بل نسيت جسدى ونفسى تماما سوى شىء واحد .. لقد كان عقلى متيقظا وكان القرار ان الموت افضل من ان افقد انسانيتى .

– انت مش سامعنى يابن الـ .. اكلم ياوله .. هاموتك .

ووقفت صامتا ، وكففت حتى ان ارفع يداى لاتلقى الضربات او اتحرك هنا وهناك هربا من الشوم المنهمر .

ماذا يمكن ان يقول الانسان لهذا الكلب المسعور .

وتقدم المهندس الجيولوجى فخرى لبيب حيث يقبع همت وهو ويصرخ :

– انت فاش صغير .. انت قاتل .. ستدفع الثمن يوما .

وتراجع همت ومن هول المفاجاة ، ولكن سرعان ما عادت آلهة التعذيب والموت كلها تطبق على فخرى .. كل العساكر بما فى ايديهم من كرابيج وشوم تعمل على جسده العارى .

وسقط فخرى عــلى الارض ، وتجرأ همت واقترب منــــه ؟

واخذ يضربه بحذائه ·
وايقنت ان فخرى قد قتل ·· ولكن ذلك لم يكن كافيا من وجهة نظر الفاشى التركى ، فأمر بأن يصلب فخرى على العروسة ، ووقف ثلاثة من الزبانية يتبادلون ضربه بالكرباج ·· وهمت يصرخ ·

ـ قول انا مرة ·

وصوت فخرى لايكف محملا بكل الآلام ولكنه صادر من الاعماق

ـ انا احسن منك · انا اشتراكى مصرى ··

كنت اتابع ضربات الكرباج على جسد فخرى الذى تفجر كله بالدم والكدمات ويجتاحنى احساس بالعجز الشديد وبالاحتقار الشديد لكل شىء حتى نفسى ·

اكثر من سبعين جلدة صمت بعدها صوت فخرى تماما وارتمى رأسه على كتفه ، كان هناك فيما يبدو اصرار على قتله ، فانزلوه من على « الصليب » واخذ همت يقلب رأسه بحذائه ثم يقول بصوته الانثوى :

ـ لسه عايش ابن الثور ·

وصرخ فينا قائد المعتقل ·

ـ ياللا ·· على العنبر ·· خدوه معاكم ·

وحملنا فخرى بين ايدينا ·

خمسة من العراه يحملون زميلا لهم يطرق الموت جسده ، وخلفهم جوقة من الكورس العسكرى الذى لايكف عن الضرب حتى دخلنا العنبر ·

ترى هل واجهت المرعيات هذا الموقف وهن يحملن المسيح من على صليبه بعد ان نزف حياته قطرة قطرة ··

ترى هل كان بلال على نفس الصورة بعد ان ظل ثلاثة ايام يضرب بالسياط وهو مصلوب فى بطحاء مكه الى ان حمله المؤمنون الاوائل ·

ترى هل جاء نفر من رفاق سبارتاكوس بعد ايام ليخلصوا

المسامير التى دق بها جسده في شجرة على الطريق الرومانى المعروف بطريق الصلبان .
المسيح .. بلال .. سبارتاكوس .. كل هؤلاء الذين حلموا بالخير والعدالة والمساواة .. صور حفرت فى رأسى وانا صغير ولكننى لم اكن اطمع ان اراها واعيشها مثل ذلك اليوم .

عادوا كلهم الى ذهنى ونحن نحمل رفيقنا .. وحين دخلنا الى الزنزانة ظللت صامتالم اكن مصدومامثلما تصور رفاقى، بل لقد كنت فى تمام الوعى والادراك .. كنت ارى فخرى ممددا وسط الغرفة والزملاء حوله يتلمسونه ويريدون ان يبعثوا فيه الحياه من جديد .
وكنت ارى واسمع الدكتور القويسنى وهو يهز فخرى بصوت مبلل بالدموع :

– فخرى .. فخرى .. رد علينا .. ثم وهو يقول بصوت اكثر اطمئنانا .

– قلبه بينبض .. الكلاب . !!
وجيه سمعان وهو يمسك بظهره ويتالم فى صمت .
ومحمد عبد الواحد وقد وضع رأسه بين يديه واخذ ينتحب .

ومحسن الخياط وقد راح يردد :
– دامش معقول .. احنا فين .. احنا فى غابة .

وجاءت دفعة اخرى .. دخلوا الزنزانة .. اجساد عارية منهكة .. يختلط عليها الدم بأثار ضربات الشوم والكرابيج .. ويرتمون وهم يلعنون ويتأوهو .

وجاءت دفعة ثالثة .. اثنى عشر زميلا فى زنزانة ، عارون تماما وقد تغيرت ملامح وجوههم ، بلا شعر وبلا حواجب .
وتقدم منى محسن الخياط يتفرس فى وجهى وهو يقول:
– انت مين .
– انا ..

ـ مش معقول ٠٠ داشكك غـــريب خالص ٠٠ ياخبر ٠٠
وضحك ٠

وتفرست انا فى وجهه ٠٠ وضحكت ٠٠ بل وامتـــدت
ضحكاتنا ٠

وضحك كل من في الزنزانة ٠٠ وبدأت الضـحكات ترن
فى الزنازين الأخرى ٠٠ وفى دقائق كان العنبر كله يضحك ٠

وجاء بعض العساكر يستطلعون الخبر ٠٠ وارتسمت على
وجوههم الدهشة وهم يرونا نضحك ٠

وضرب الشاويش عبد العظيم ـ شاويش العنبر ـ كفا على
كف وهو يقول :
عجيبة ٠

أتدرون من المفلس ؟ ..
قالوا : المفلس من لا درهم له ولا متاع ..
فقال عليه السلام : المفلس من امتي من ياتي يوم القيامه لصلاة وصيام وزكاه ، ياتي وقد تم هذا وقذف هذا واكل مال هذا وضرب هذا وسفك دم هذا .

(حديث نبوى)

٩ نوفمبر ١٩٥٩

وحينما هام الملك لير في مسرحية شكسبير الخالدة على وجهه وحيدا شريدا ومعه مهرجه المعروف كانت كل أحلام لير تدور حول انتصار قيم الحياة الشريفة ، وليس مجرد العرش .
أما المهرج فحين سأله لير عن امانيه قال :
ـ أمنيتى أن اجد حذاء .
ولقد كنت أضحك دائما مع كلمات المهرج الذى لم يشغله فى كل المأساة سوى أنه يريد حذاء يقى به قدمه العارية من غول البرد وغائلته .
وفي ذلك الصباح القارس ادركت أهمية الامنية التى عبر عنها الفيلسوف المهرج . انها أمنية الحفاة الجائعين .
كان اليوم التالى للحفلة الكبيرة التى أقامها الامبراطور التركى اسماعيل همت وانطلق صوت البروجى والشمس ما زالت فى رحم الافق المشرق تتجمع فى فناء سجن الواحات ونحن نجلس القرفصاء فى صفوف متراصة .
والرياح الخفيفة المثلجة تعصف باجسادنا المنهكة شبه العارية والتى لا يسترها سوى بعض الخرق الصفراء التى وزعوها علينا لتصبح زينا الرسمى الجديد .
وتحت القدم العارى لسعات الرمال التى تحولت كلها الى ذرات من البرد الموجع .

ينفذ من القدم الى النخاع فترتعش الدماء فى العروق .
ولقد سمعت كثيرا عن الجو القارى فى الصحارى ، حيث البرودة برودة حقيقية وحيث الحرارة حرارة مستبدة .. ولكنى فى ذلك الصباح احسست كما لو كنت قد القيت عاريا وسط اكوام من الثلج .

وأمام الصفوف جلس قائد المعتقل على كرسى وأمامه منضدة وفوقها كوب من الشاى الساخن يتصاعد منه البخار .. وتلاحقه عيوني وشفتاى بشغف بالغ .
كوب من الشاى الساخن .. حذاء أو حتى بلفة .. شىء لستر الجسم .. بدلا من هذه الحرقه .
كلها كانت أمانى عظيمة وخالدة فى ذلك الصباح .
وجلسنا أكثر من نصف ساعة فى وضع القرفصاء وأوامر مشددة بأن ننكس رؤوسنا ، اى تنظر الى مابين قدميك .
ثم نفخ البروجى .. وجاء الجنرال التركى .. طاووس منتفخ يحس انه ليس فى هذه الدنيا ، وربما فى السماء ، من هو أقوى منه .

وأخذ ينظر الينا فى تشف غريب ، وباحساس بالزهو والتفوق باحثا عن آثار « حفلته الكبرى » التى اقامها بالامس .

وكان الجنرال فيما يبدو قد احس بأنه لم يستطع ان « يذبح » بالامس ماتصور انها فريسة سهلة له ، حقيقة كان هناك من كسرت ساقه أو ذراعه أو بعض ضلوعه فى « مهرجان الضرب والتعذيب » .. ولكن الفريسة لم تخضع ولم تفقد احاسيسها الانسانية الدافئة كما تصور .
ولعل آخر شىء سمعه قبل ان ينام فى تلك الليلة ، هى تلك الضحكات التى انطلقت من الغرف والعنابر التى كانت تسخر منه ، بل وتعمق لديه الاحساس بالحيوانية .
طوال ليلة مس كان « العقل الجماعى » لنا يفكر .. مثلما كان يفكر دائما .. بل ان عقولنا فى تلك الليلة كانت متقدة ومتألقة ربما لاحساسها بأننا لم نعد نملك سواها فى مواجهة عاصفه عاتية من الظلمة والعسف .. ووصلنا الى قرار ..
لابد من هزيمة الغرض الذى جاء من أجله همت ..
وكان الاتفاق بيننا ..

لا مانع من ان نحني رؤوسنا قليلا اذا كانت مجرد عاصفه طارئة ..

أى نقاوم اية محاولة لانتهاك آدميتنا وفى اطار عدم اعطاء الفرصة لهمت بأن يجرى مذبحة .

كنا قد عرفنا بالامس اننا سنذهب فى الغـــد للعمل فى الجبل وكانت هناك ثلاثة احتمالات فكرنا فيها جيدا واستطعنا ان نضع خططا عاجلة ومتغيرة لمواجهتها .

اما ان يكون المطلوب من كل ماحدث هو ان يصلوا بنا الى نقطة الصفر ، أى تجريدنا من كل الحقوق التي يتمتع بهـــا المسجونون لكى نكف عن الحديث فى السياسة والمطالبـــة الافراج ولحصر مطالبنا فى الحقوق التى سلبت منـــا .. أى باختصار ان نفقد شخصيتنا السياسية المفكرة لنتحول الى مجرد مسجونين .. ويتحول صراعنا الى ذاتية حيوانيـــة من أجل البقاء .

واما ان يكون هناك مؤامرة عاجلة يدبرها الامبراطور همت بخروجنا للجبل لانتهاز أى فرصة للتخلص من أكبر عدد منا خارج الاسوار برصاص المدافع الرشاشة .. ويمكن اختلاق مبررات كثيرة .. ابسطها التمرد والهياج .. خاصة وان له سابقة فى ذلك ..

صدرت الاوامر لنا بالنهوض والتقدم نحو بوابة السجن .

ومضينا فى أربع مجموعات متراصـــة تحرســـنا المدافع الرشاشة من الجانبين وتنهال علينا الشتائم والاوامر وضربات الخيزران اللاسع .

وعند البوابة ... حدث شيء له دلالة :

فعندما بدأنا نخرج .. طلب الامبراطور همت مـــن قائد المعتقل ان يوقع على كشف البوابة ، وصمت القائد لحظة ثم نادى على اليوزباشى عبد العال سلومة وكيل السجن وأمره بأن يوقع على الكشف .. وكانت المفاجأة .

قال اليوزباشى سلومة بصوت مسموع :

ـ متأسف يا افندم ... انها ليست مسئوليتى .. وأدركنا الموقف على الفور .

لابد وانه قـــد دار فى عقل المـــأمور واليوزباشى ســـلومة

احتمــالات ان يمارس الامبراطور همت نزقه معنا ٠٠ وهــم لا يريدون ان يتحملوا مسئولية ذلك ٠

ومرت لحظات طويلة قاسية مليئة بالانفعـــال الشـــديد والصامت ٠٠ ونحن وقوف على اعتاب البوابة نشهد الموقف وندرك ابعاده ٠

ولابد ان الامبراطور قد احس بهزيمة مخططه وانكشافه فى تلك اللحظات فعاد يصرخ ولكن بصوت مهزوم ٠٠

ـ خلصنا ياحضرة المأمور ٠٠ دول مسئوليتك ٠٠

ووقع المأمور على كشـف البوابة ٠٠ ولكن بعـــد ان آكد مسئوليته ٠٠

وخرجنا الى الصحراء ٠٠ ترحيلة أخرى ٠٠

المقاول همت ومعه قائد المعتقل « وفرقة الحفلات الشهيرة » فى عربات الجيب فى المقدمة ٠٠ ثم طوابير « العمال والفعلة » يحرسهم الخولية بمدافع سريعة الطلقات ٠٠ وفى الخلف فرقة السجن تحمل المدافع والبنادق ٠

ورغم نسمات البرد اللافحه وذرات الرمل والحصى والشوك التى كانت تنغرس فى قدمى العارية ٠٠ ورغم كل الاحتمالات التى كانت تدور فى الذهن فيترصدها بين لحظة واخـــرى ، الا ان امتداد الافق امامى بلا اسوار كان شيئا طيبا فى حـد ذاته ٠٠ ومع الخطوات السريعة المنتظمة التى أمرنا بأن نمشى بها وشمس نوفمبر التى بدأت تفرض وجودها احسست بدفء وحيوية تسرى فى عروقى فتهزم ماكان يجتاحنى من احاسيس بالبرد والخوف ٠

واخيرا وصلنا الموقع ، على بعـــد اربعة كيلو مترات من السجن ٠٠ كان المكان اشبه بوادى صغير يقع بين تلين مـن الكثبان الرملية ٠٠ وكانت ارضـــه داكنة تختلط فيها لون الرمل الاصفر مع تربة رمادية وانتشرت فيها بعض النباتات الشوكية مما يوحى بأن ثمة حياة كانت هنا ٠

وحانت اللحظة وكان المسرح معدا بعناية ٠

صعد همت ومعه فرقته على الكثبان الرملية وأحاطونا بسرعة من كل جانب بالمدافع الرشاشة ٠

وانتبهت كل حواسى ، وتبادل الزملاء نظرات ذات مغزى ٠

هذه اذن هى المقبرة التى أعدوها لنا ٠٠ وبدأ كل منا يعد نفسه للمعركة التى توقعناها ٠٠ فمع أول طلقة رصاص تصيب أحدنا ٠٠ علينا أن ننشب فيهم أظافرنا ٠
لحظات جربها ولاشك المسيحيون الاوائل حين كانوا يجمعونهم فى الأخاديد ويعملون فيهم السيف ٠

وجربها ضحايا النازية والفاشية حين كانوا يطلقون الرصاص على طوابير المعتقلين ٠

لم أفكر فى أنى قد أكون أول من أسقط ولكنى كنت افكر فى كيف أنتقم ٠٠ كان يجتاحنى احساس بأننى سأصل الى همت نفسه ولن أرض بغيره ، بل وأخذت أتصور كيف ساتصرف معه حين تمسكه يداى بكل الغضب والحقد والالم الذى يجتاحنى ٠

ونادى همت على المأمور لكى ينسحب هو وضباطه وجنوده وصاح الزميل المهندس سيد عبد الله قائلا :
ـ ياسيادة المأمور ٠٠ نحن أمانة فى عنقك وستتحمل المسئولية ٠٠

وانتفض المأمور كالثور الهائج يضرب سيد عبدالله بلكمات عنيفة ٠٠ ولكنه لم يتحرك ، ولم يتركنا بل أصدر أوامره للضباط والجنود بالالتفاف حولنا والبقاء معنا ٠
وكان معنى ذلك ، وبغض النظر عن هياجه وتوتره ، ان المأمور قد حسم أمره وقرر ان يتصرف فى اطار مسئوليته ٠

وعاد همت ينادى ٠٠
ووقف المأمور يصرخ فينا بصوت أعلا من نداء همت ٠٠

ـ : اسمع أنت وهو ٠٠ أنا ممكن أقتلكم كلكم ٠٠ حياتكم عندى لا تساوى شيئا ٠٠ عندى أوامر بضرب الرصاص عند

اى تمرد ٠٠ فاهمـين ٠٠ مش عاوز أى تمـرد ٠٠ فاهمين ، دلوقتى الفئوس والغلقان والديوره هتتوزع عليكم ٠٠ مطلوب انكم تنقلوا التلال الرملية دى ٠٠ أى تقصـير فى العمـل ها اضرب بالنار فورا ٠٠ مفهوم ٠

٠٠ مفهوم ٠٠ كان المأمور بجسده الفارع الممتلىء وصوته العالى المنفعل وهو يهدد ويتوعد وفى نفس الوقت يتجـاهل نداءات همت أقوى من أى شخصية درامية رسمهااسخيلوس أو شكسبير ٠

كان من الواضح أن الرجل قد أخذ موقفه ليس دفاعا عنا وعن أرواحنا ــ بل عن نفسه ،فهو لايريد ان يتحمل مسئولية مجزرة قد يسأل عنها فى المستقبـل ٠٠ ولعله لايختلف عن همت سوى فى ذلك الامر ٠٠ انه يعرف أن هناك غداآخر وقد يكون له حسابات أخرى ٠

وبدأ الضباط والشاويشية يقسموننا الى «مصالب» أىفرق عمل ويوزعون علينا الفئوس والغلقان وأدوات العمل الاخرى٠ وهم لايكفون لحظة واحدة عن استخدام ألسنتهم وعصيهم ٠٠ هذا بينما صعدالمأمور الى همت فوق التل ٠

وكان الموقف كله أشبه بمسرحية غريبة ٠

على المستوى الاول ، وفوق التل ، صراع بين نمطين أنتجتهما مدارس التعذيب والعداء للانسان ، النمط الاول أصبح مسعورا متعطشا الدم بأى شكل وعلى اية صورة مثله مثل النمر المتوحش الذى يسعده البطش بالفريسة حتي ولو لم يكن جائعا ٠

والنمط الثانى أشبه بالثعلب الذى يجرى دائما حساباته بين رغبته فى الفريسة وخوفه من المفتـرس ٠٠ اذ انه يدرك فى النهاية انه يمكن ان يصبح هو الآخر فريسة لمن هو أقوى منه طالما ان الذى يسود هو شريعة الغابة ٠

كان هذا الصراع الوحشى ، يدور على التل ٠٠ ونسـمع بعضا منه ممثلا فى صرخه هائلة للنمر ومحاولات التهدئة التى يقوم بها الثعلب ٠

بينما على المستوى الآخر للمسرح ‥ وتحت التل ، نروح ونجيء محملين بمقاطف الرمل تحت وابل من ضربات الخيزران والشوم الذى لاينقطع بينما عقولنا وقلوبنا وآذاننا كلها مع هـذا الحوار الدموى الذى يجـرى بين النمر والثعلب حـول مصيرنا ٠

ويبدو أن نغمات الضرب المتواصل الذى ينهال علينا مع صورتنا ونحن فى خرقنا البالية نحمـــل الرمال والصـخور مهرولين قد أمتعت عين وسمع النمر وبدأت تشد انتباهه بل وأخذ يروح ويجيء فوق التل متأملا لوحة فنية رائحة تشبع أحاسيسه الحيوانية ‥ بل وأخذ يلقى ببعض أوامره للضباط والعساكر الذين يقومون بدور الايقـاع الصـــوتى بعصـيهم وكرابيجهم ويرسمون فى نفس الوقت ظلال القسوة والهمجية المطلوبة ٠

وكأى مايسترو أصيل ينفعل مع اللحن خرجت أوامره الى الجوقه ٠

ـ : العساكر تشد حيلها شوية فى الضرب ٠ المقاطف تتملى كويس ‥ الاولاد اللى هناك دول ماشيين على مهلهم ، بيتفسحوا ولاد الـ ... ضرب الـكرابيج أحسن ٠ ‥ عاوز أسمع صراخهم ‥ مفيش رحمة بيهم ‥ اضرب زى مابتضرب كلب ٠

وبالطبع كانت أوامر اللواء «المايسترو» تنفذ على الفور ، فيزيد صفير الكرابيج ووقعها على الاجساد كما ترتفع ذبذبات العصى وهى لاتكاد تتوقف لحظة فى أيدى العساكر ‥

أما صراخنا فلم يسمع منه اللواء المايســترو شـــيئا لاننا كتمناه فى الاعماق ‥ وحينما نفخ البروجى فى النفير يودع السيد اللواء النمر وهـو يركب عربته وخلفـه فرقته يغادر الموقع بل والواحات كلها الى القاهرة ، تمثل وداعنا له فى بصقات على الارض خرجت من كل واحد منـا وبدون اتفاق سابق ، بل وشاركنا فى توديعه «بالبصقات» بعض العساكر وهم يخرجون بعض تنهيدات الارتياح ٠

وبالرغم من أن الضرب ، وربما بنفس الوتيرة ، استمر طيلة

اليوم الا أن رحيل همت وفرقته قد أزاح من الموقف عاملا خطيرا ومتوترا كانت فيه أعصابنا ، بل أعصاب قوة السجن بما فيها المأمور ، مشدودة متحفزة ٠
ولاشك ان همت وهو يتجه بعرباته الى أسيوط ثم القاهرة لم يكن سعيدا مثلما تصور وهو يأتى الى الواحات ٠

حقيقة مارس كل ابداعاته الفنية فى الضرب والتعذيب طيلة ٢٤ ساعة ، ولكن حقيقة أخرى لابد وقد أحس بها هو أنه لم يستطع أن ينزع منا آدميتنا وعقولنا ٠
فلقد كان ختام حفلته الليلة الماضية ، ضحكات تنطلق من صدورنا تسخر منه ومن حيوانيته ٠

كما كان ختام مؤامرته فى الجبل ، بصقة جماعية تودع هيلمانه الزائف وهو يتحرك ٠٠
واجتاحنا احساس بالانتصار الصامت ، عكسته نظرات الثقة التى أخذنا نتبادلها وبعض الابتسامات التى ارتسمت على وجوهنا ٠

حقيقة ضربنا واهنا بل ومازلنا نضرب ونهان ونعامل بنفس الدرجة التى يعامل بها الحيوان ، ولكننا استطعنا ان نؤكد عظمة الانسان وقدرته حيث لايملك ان يدافع عن نفسه الا بالعقل والعقل وحده فى مواجهة كل حيوانات الغابة المفترسة ٠

بل اننا استطعنا أن نكسب من بين صفوف العساكر والضباط الذين دربوهم جيدا وشحنوهم بشحنات حيوانية حاقدة ، لقد أيقظنا عقول بعضهم وأثرنا فى نفوسهم مشاعر وأحاسيس انسانية مرة أخرى واكسبتهم فيما بعد ، وباعتراف كثيرين منهم ، احتقارا شديدا لكل ما كان يمارس معنا ولدورهم فيه ٠

وكانت الساعة قد قاربت الرابعة ، حينما أمرنا بالعودة الى السجن ٠

وشمس الاصيل تفرد ظلالنا طويلة ممدودة على الرمال ، وكل منا يحمل فأسا أو مقطفا يعلقه بكتفه ٠

وتمضى طوابير «الشغيلة» مقتربة من أسوار السجن بعد يوم طويل من العمل الشاق والجهد النفسى .. يوم لن ينساه ولا يجب ان ينساه كل أبناء وبنات مصر الطيبين .

ولسعت حواسى رائحة العدس عند دخولى من البوابة .. ولم ألق بالا لحارس البوابة الذى أصر على أن يختم كل منا بعصاه وشتائمه لتعويض بعض مما فاته فى الجبل .. كنت جائعا ، وكانت رائحة العدس أجمل رائحة شممتها فى حياتى بل اننى لم أجرب أشهى وأطعم من وجبة العدس فى ذلك اليوم .

لحل الدين بلا خوذه
عزل شرفاء ٠
بلا أحذية ، بلا قفازات ٠
يتألق شـعاع مـن النور فى
عروقنـا ٠

بول ايلوار ـ قصائد المقاومة

ديسمبر ١٩٥٩

ـ : لماذا ؟

كنت أسأل أبى وعينى غارقة فى بحر من الدموع وشهقات البكاء الخانق تاخذ بصوتى وهو يحكى لى ولاخوتى استشـهاد الحسين بن على ٠

ـ : لماذا ٠٠ لماذا ٠٠

نعم ، لماذا وقد حوصر الحسين من قبل جيوش الفاسق يزيد بن معاويه ، ومنع الماء فى كربلاء ولم يبقى معه سوى أهله ٠
لماذا لم يستسلم الحسين انقاذا لحياته ولحياة أبنائه وأهله ، لماذا لم يبايع فى تلك اللحظة والموت يطل عليه من كل ناحية فى أرض الكرب والبلاء ممثلا فى آلاف السيوف المشهره،تريد رأسه طمعا فى المال والسلطة والجاه ٠

وكان أبى يضمنى اشفاقا ويهدىء من بكائى ٠
ـ : كان الحسين عظيما ، فلم يكن يخشى فى الحق لومة لائم ولا ننسى انه ابن على بن أبى طالب و «فاطمة الزهراء» وسيد شهداء أهل الجنة ٠٠ ولكن الامر لم يكن مقنعا لى تماما وكان هناك شىء ما يكبر معى ، وكان يتساءل :
ماالذى يدفع الانسان لان يرفض ان يقول كلمة يمـكن أن تنقذ حياته وحياة أهله ؟ كلمة واحدة كانت مطلوبة من شهيد كربلاء ليذهب طليقا ومعززا ٠

لقد طلب الحسين من قائد الجيش أن يخلى بينه وبين الماء ، ثم يتركه يفكر ٠٠ ورفض طلبه ٠٠
وطلب أن يعود بأهله الى المدينة ليتقلب الامر ٠٠ ورفض طلبه ٠٠ كان المطلوب كلمه أو الموت . وحمل الحسين سيفه وظل يقاتل ويقاتل حتى خر صريعا وبينه وبين الماء الذى حرم منه بضعة أمتار ٠٠ ولم يقل الكلمة ٠٠ لم يقل بالبيعة المفروضة ، بل اندفع الى مصيره المحتوم وهو يقول بالسيف وتحت التهديد :

فان عشت لم أندم وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

وكان على أن أنتظر فترة طويلة لأمر بتجربة عملية لأعرف الجواب الصحيح على السؤال الذى عذبنى صغيرا اشفاقا منى على حياة الحسين ٠

ان الانسان الذى يحمل فكرة او عقيدة ويؤمن بها ايمانا حقيقيا لايمكنه تركها او هجرها تحت وعيد السيف ، ان أصحاب الافكار الانسانية دائما ما يكونون أكثر تفتحا على الحياة أكثر تفتحا على الأفكار والآراء الاخرى ولكنهم أمام البطش والسيف أكثر قوة ، على عكس من لديهم نزعات ارهابية وفرديه ، فان مثل هؤلاء ينكسر بل ويتحطم عند أول عصا ترفع عليه ٠

وفى موجة الارهاب الدموى واليومى الذى كنا نتعرض له فى الواحات ، كنت أحس بأن الفكرة التى دخلت بها المعتقل تتحول فى داخلى الى يقين غريب ، كنت كلما تلقيت ضربة شومة او لسعة كرباج أقاومها بمزيد من الايمان بالاشتراكية والانسان ، بقيم الحب والعدالة والكراهية العميقة لكل ماهو حيوانى واستغلالى ، كل مايمتهن الانسان ٠٠ كل من يرفع عصا أو بندقية فى مواجهة فكرة أو رأى ٠٠ بل وكان يجتاحنى احساس بالقوة ، ليس فقط ازاء العساكر والضباط الذين يمارسون التعذيب ، بل وازاء من أمروهم بذلك ٠ وكان هذا شعورا جماعيا بين كل الزملاء فى تلك الفترة ، ربما فيما عدا زمرة قليلة ممن يتعمدون أن يدسوهم بيننا لاشاعة جوا لاستسلام

والضـعف فى مثل تلك الظـروف ٠ ٠ وحتى هؤلاء لم يكن ليستطيعوا أن يلعبوا دورهم وسطنا فى تلك الفترة ٠
وكان الامر غريبا بالطبع بالنسبة للشـاويش محمود والشاويش متى وغيرهم من العساكر ٠
فبينما كنا نقوم بأعمال السخرة اليوميـة فى الصـحراء نادانى الشاويش محمود ، ودار حوار غريب :
ـ : بتشتغل ايه ؟
ـ : صحفى ٠
ـ : عاجبك الضرب والاهانة اللى بتشوفه كل يوم ٠ ٠ ٠ دانتو بتعاملوا ولا الكلاب ٠
ـ : طبعا مش عاجبنى
ـ : طب ماتخرج ٠
ـ : ايدى على ايدك ٠
ـ : تسيب اللى فى دماغك ٠
ـ : قصدك أسيب دماغى ٠٠
ـ : ياابنى اخرج ، وانت صغير ، وعيش ، واتمتع بالدنيا، وبلاش حكاية الدماغ دى بيودى فى داهيه ٠
ـ : آهو لو حصل كده ، ابقى كلب بحق وحقيقى ٠٠
ـ : ياخرابى ٠ انتوا دماغكوا دا ايه ٠٠ مصفح ٠٠ حجر ٠٠ روح ٠ روح ٠٠ الظاهر انتو غاوين شقا ٠٠
ولقد كان هذا الحوار أو المناقشات تتكرر كل يوم بين أحد العساكر وبين احد الزملاء ٠٠ وخلال شهر واحد ، كانت الغالبيه العظمى من العساكر وحرس السجن اما متعاطفين تماما معنا ، أو على الاقل غير قادرين على تنفيذ التعليمات المشـــدده التى يشحنونهم بها كل يوم بزيادة جرعات الضرب والتعذيب ، بالرغم أنهم ـ كما علمنا ـ كانوا يختارون لنا أكثر الحرس شراســه وكانوا لايرسلون للواحات سوى من يتوسمون فيهم القسوة بالاضافة الى أنهم كانوا يعدونهم فى مراكز تدريب خاصـــة حيث تلقى عليهم محاضرات خاصة عن التعذيب وشـــحنهم بشحنات عصبيه حاقده بتصويرنا على أننا « كفره وملحـــدون وخونه وعملاء ٠٠٠ الخ ٠
ولكن العصى دائما تنكسر فى مواجهة العقول « المصفحة » ٠٠

كما ان اليد المرتعشة والتى لاتؤمن بما تفعل بل ولا تعـــرف مبررا معقولا لما تفعل تكون خطرا أكثر على من سلمها البنادق .

وهذا ما بدأت بوادره ، وما كان من السهل علينا وعلى قيادة المعتقل أن تدركه .. وفى الجبل حيث كنا نعمل من السابعة صباحا حتى الرابعة ، بدأ كل حارس يتخذ لنفسه صخرة عالية ويجمع حوله بعض المعتقلين يتبادلون الاحاديث والنكات فى حين يستمر العمل بوتيرة هادئة وبطيئة .

وقلت بل وكادت تنعدم الشتائم وضربات الخيزران والشوم .. وأصبح هناك عقد غير مكتوب بيننا وبين الحـــرس فى الجبل .. هو ان ننهض فقط للعمل وبسرعة اذا لاح فى الافق عربة تقل أحد لضباط أو قائد المعتقل .

اخترنا لهذه المهمة زميل خفيف الدم والحركة نحيف الجسم هو عبد الملك خليل كان يقبع فى قمة تل عال فاذا لمح عربة متجهة نحونا يصيح .. بلوهام .. بلوهام .. فينهض الجميع الى الفأس وحمل الرمال والصخور .

ولقد ظل الشاويش متى مشغولا فترة طويلة بمعنى كلمة بلوهام .. حتى أنه اقسم « بالعذراء أم الشهيد » بأن يجلد عبد الملك خليل حتى يبوح له بسر كلمة بلوهام .. ولم يقتنع الشـــاويش متى ربمـــا حتى الآن بأنهـــا كلمـــة لا معنى لهـــا عـــلى الاطـــلاق تفتقت عنهـــا قـــريحة عبـــد الملـــك الســـاخرة .. عـــلى أن الامـــر لم يـــكن يخـــلو فى هذه الايام بأن نفاجأ فى الصباح وقبل ان نصطف فى طابور الجبل بالعنابر تفتح علينا وبالعساكر ينهالون علينـــا ضربا بالقايش والخيزران .. وعرفنا أن قائد المعتقل كان يحرص على هذه الغارات الصباحية الدامية كل اسبوع او عشر ايام لكى يظل الجو ملتهبا وليبعث فى عملية التعذيب « تنشيطا وحيوية » وكذلك كان يحرص على ان يأتى كل اسبوع الى الجبل فيتحول الجبل يومها الى حركة سريعة تقطع الانفاس وتصفر الكرابيج والعصى على اجسادنا ، ونعود فى مثل هذا اليوم وكل منا يحمل أثارا احمرار على جسده أو دماء متفجرة على جبهته ورأسه ، وفى بعض غزوات القائد كان يعود بعضنا برجل دامية من ضرب الفلقة اوضلع مفقوداو جسد ممزق نتيجة الجلد على العروسة .

وفى اليوم التـالى نتلقى الاعتذارات الخفية مـن العساكر والشاويشية بل ان احدهم اقسم بالطلاق يمينا لارجعة فيه أنه لن يضربنا مرة ثانية حتى لو كان الوزير هو نفسه الذى يأمره ٠ وثمة معركة اخرى كنا نشترك فيها جميعا ، عساكر ومعتقلين ، فبالاضافة الى الاحساس بالغربة فى تلك الصحراء القاحلة والبعد عـن حيث الزوجه والام والابن والاب كانت المناطق التى نعمل بها مليئة بالثعابين والحيات الخطـرة والعقارب ٠٠ وقد كادت تحدث مآسى كثيرة حيث كنا نعمـل حفاة الاقدام ، وكثيرا ماينفض الانسان قدمه فجأة بعد أن يحس بأن هناك شيئا يزحف عليها ويكتشف انها عقرب من النوع الخطر ، كذلك فأن حية الطريشة « الحية ذات الاجراس » كانت تمثل لنا انزعاجا شديدا وخاصة فقد اكد الزملاء الاطبـاء مختار السيد وعبد المنعم عبيد وحمزة البسيونى وشكرى عازر وغيرهم أن لدغتها بالقبر ٠ د

وحين يصيح احد الزملاء « طريشة » يسارع الجميـع بالفؤوس ليقضوا على تلك الحيـة الخطـرة ٠٠ لقد كانت حصيلة اليوم الواحد حوالى اربعة حيات وعشرون عقربا وأكثر من خمسين ثعبانا مختلفة الاشكال والاحجام ٠٠ وبدأنا ندرك ما كان خافيا عنا أو عـلى الاقل لم نكن نعتبره مقصـودا فى البـداية ٠

فالقاؤنا فى هذا المكان بالذات الذى عرفنا فيما بعـد أن السكان يسمونه وادى العقارب ، حفاة الاقدام شبه عراه فى عمل لاجدوى منه ولا منفعة لايمكن الا ان يكون فيه من الرسم والعمـد بحيث تقـوم الحشرات السـامة بما لم يستطع أن يقوم به همت وزبانيه التعذيب ٠

وأكد لنا بعض العساكر هذه الفكره وخاصة بعد ان كان اول ضحية بلدغة الطريشة هو واحد منهم ، ولقد عمق ذلك الاحساس بالسخط وبدأت الحواجز تنهار بيننا وبينهم فى كل لدغة عقرب يصاب بها زميل أو يصاب عسكرى بلدغة ثعبان ٠

ووبدأنا نبلور مطلبا محددا هو ان نذهب للعمل بالاحذية ٠٠ وحينما نطق الزميل المهندس سيد عبد الله بهذا المطلب امام قائد المعتقل ونحن فى طابور الصباح استعداد للخروج

انهال عليه القائد ضربا بعصاه اخذها من احد العساكر وهو يصرخ كالثور الهائج .

ـ : أنا معنديش مسجون يطلب حاجة .. ازاى تتجرأ ياكلب .. كويس انكم لسه عايشين .

كانت مفاجأة للمأمور انناا مازلنا آدميين لم نتكيف بعد اكثر من شهرين على معاملة « الحيوانات » التى ارادوها لنا .. وأعطى اوامره فى ذلك اليوم بأن تزيد جرعات العمل وأيضا جرعات الضرب وأختار أحد ضباطه المقربين والمغرمين بالتعذيب لكى يصحبنا كل يوم الى الجبل ليشرف بنفسه على الشغل .

ولحسن الحظ ، وربما لأول مرة يكون للبيروقراطية بعض الفوائد ،فأن الضابط المدلل الذى يضيق بوجوده فى الواحات بعيدا عن القاهرة ونوادى الخمر والقمار . بعيدا عن راقصة الكبارية التى كان مولها بحبها لم يستطع أن يمارس المهمة فيمرمط نفسه كل يوم معنا فى الجبل وسط الاتربة والرمال والشمس المحرقة وايضا وسط العقارب والطريشة والثعابين .

فسرعان ما نفض يده من المهمة بعد اسبوع مارس فيه معنا كل عقده وغبائه وحاول أن يغرق احساسة بالغربة فى ذلك المكان بمزيد من الضرب والتنكيل بنا .

فكان يكتفى بعد ذلك بالمرور لمدة قصيرة ثم يذهب بالجيب الى مدينة الخارجة التي تبعد عشرون كيلو ومترا عن موقع العمل ، حيث كان هناك ممرضة جديدة فى مستشفى الخارجة يقال ان الجميع كان يتنافس عليها من ضباط السجن الى حاكم المدينة وطبيبها والمهندسين العاملين فيها .

ولقد أتاح لنا ذلك « راحة » منه على أى حل .. وعادت الامور فى الجبل الى ما كانت عليه .. حركة شكلية ومجموعات الزملاء تجلس فى حلقات تحت شجيرة خروع أو فى ظلال تل تستمع الى قصة او الى محاضرة سياسية او ثقافية او فنية ، والعساكر هم الاخرون ينضمون احيانا الى بعض الحلقات او يكونوا لهم حلقة اخرى من بعض الزملاء القادرين على تبادل النكات والدردشة معهم .

وحين نسمع صوت عبد الملك خليل الصاروخ فى البريه « بلوهام » تذب الحركة والنشاط فى موقع العمل فلا نسمع

والحصى . وكان الباشويش متى وهو قائد العمل ممتلئة بالرمال والحصى وكان االباتشويش فتحي وهوقائد العمل فى غياب الضابط قد أدمن الجلوس الى الصحفى محمود السعدنى والاستماع الى نكاته وحواديته الساخرة والاذعة المعروفة عن السعدنى .. وكان ذلك فى صالحنا بالطبع وخاصة حين يجلس متى فوق صخره كالملك ويقبع السعدنى بجانبه مضحكا للملك وتنطلق ضحكات متى الضخمة ويعزم على السعدنى بسيجارة ونجز كاملة .

ولقد سافر الباشجاويش متى الى بلدته بجوار أسيوط فى اجازة لبضعة ايام وعاد يمارس عمله وجلساته مع مضحك الملك .. الا اننا فوجئنا في يوم من الايام بالشلويش متحى بجسده الضخم يجري وراء السعدنى الذى اخذ يهرول ويتدحرج على التلال كالفأر الصغير ومتى يقسم « بأم المخلص » ليحطمن رأسه بالشومة .. وتدخلنا بالطبع فى محاولة لتهدئة الشاويش متي ومعرفة السبب فى هذه القطيعة التى لم تكن متوقعة بين الشاويش الهائج والصحفي المذعور .

كان الشاويش متى منذ اليوم الاول لعودته من قريته مهموما حزينا الامر الذى جعل محمود السعدنى يحاول ان يهون عليه ليعرف سبب حزنه .

- أصل الواد ابنى اخد الاعدادية

- طيب ودى حاجة تزعل ياحضرة الصول دا ابنك يبقى عبقري

- أصل اللى مضايقني ياسعدنى ان الواد عاوز يكمل تعليمه والحال زى ما أنت عارف يدوبك عالقد .

- ياراجل واحد عبقرى زى ابنك لازم يكمل تعليمه وأهو التعليم بالمجان وربنا يساعدك لحد ما ياخذ التوجهية

- طيب وبعد الثانوية يا سعدنى .. يروح فين

- يروح الجامعة ياحضرة الصول .

جامعة ايه انت راخر .. هو انا معايا صلدى واحد .. د أنا بستلف على ماهيتى قدها مرتين علشان أمشى حالى .. تقوللى يروح الجامعة .

- طبعا لازم يروح الجامعة ولد عبقرى زى كده ماتحرموش من أنه يكمل تعليمه ويروح كلية الطب والا الهندسة والـلا

الحقوق واللا الآداب ويبقى مثقف .

ـ مثقف .. يافرحتي .. طب وبعد كده

ـ ييجى هنا معانا يا شاويش .

ثم أشار السعدنى آلينا وهو يقول :

ـ أهم كل اللى انت شايفهم دول جم هنا علشـــــان بقم مثقفين .

وهنا بالطبع لم يتحمل الشـاويش متى سـخرية محمـود السعدنى فلم يكن الرجل يتصور أن ابنه العزيز والعبقـرى يأتى الى هذا المكان ليعامل « كالكلاب » مثلما نعامل .

وقام وراء السعدنى يقسم ليحطمن رأسه .. ولكن الامور عادت الى مجاريها بعـد يومين بين الشاويش متى ومحمـود السعدنى ، وبذلنا كل ما فى وسعنا لأرضاء الشـاويش وقام السعدنى ومعه جوقته المكونه من القاضى أحمد البدينى والكاتب أحمد شوقى عبد الحكيم وعامل ماتوسـيان نصر عبد الرحيم باغراق متى مرة أخرى فى بحر من النكات والقفشات الخفيفة التى انسته جريمة السعدنى .. ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد .

فلقد عرفنا عن طريق السجانه أنهم سيرحلون الى سجون أخرى لان فرقة جديدة فى طريقها الى الواحات .

ولم يكن من الصعب أن نعرف السر وراء هذا التغيير فلقد ادركوا أنه بالرغم من التدريب الخاص للعساكر وبالرغم مـن النوعيات الخاصة التى يتم اختيارها وبالرغم من كل الاجراءات التى اتخذت معنا والتى تحرمنا من كل شىء يمكن التأثير به على العساكر ، الا أن عقولنا المصفحة قادرة على النهاية على أن تهز أعماقهم فتكسر فى ايديهم ادوات التعذيب وتذوب كلمات الاهانة فى حلوقهم ، ويضيع كل شىء مصـطنع ولا يبقى فى القلب سوى الود والتقدير أو على حسب تعبير حـد العساكر الذى كان معروفا بقسوته الشديدة معنا .

ـ : كنت أضربكم بحرقة كنت أريد لكم الموت ، فأنتم كفار وخونة وعملاء .. هكذا قالولى .. ثم اكتشفت بعد ذلك انكم أكثر الناس ايمانا وأكثرهم اخلاصـا وأكثر الناس حبا لمصر ولشعب مصر .

كانوا يصعدون ويصعدون نحو الجلجثه والمسيح فى الامام وركبتاه تلتويان تحت ثقل الصليب والعذراء خلفهم وآلاف مؤلفة من العيون تبكى .
ومن أحشاء الأرض خرج صوت .. لاتبكى ياسيدتنا.. تشجعى لتعطى الشجاعة للعالم .

(الانجيل)

٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٩

الساعات الاخيرة من عام ١٩٥٩ والشمس والتلال والصحراء لاتدرك ولا تعى أن حدثا كبيرا قد هز الانسان فى مثل تلك االذكرى حين ولد مسيح البشرية ومخلصها الذى جاء يرفع سيف الحق والعدالة فى وجه الظلم والاضتطهاد والتعسف يرفع سيف الفقراء والرعاه والصيادين والمضطهدين فى وجه القيصر والحاكم والكتبة الفريسيين الذين عاثوا فى الارض فسادا وملاؤا من عرق المتعبين قنينة النبيذ .

والشمس والتلال الصحراء ومعها هؤلاء الجنود الظالمين والمظلومين لايدركون أن هؤلاء الحفاه والعراه الذين تمتزج فى جبهاتهم حبات العرق والاتربة والرمال ، وتنحل أجسادهم وتغور أعينهم ويستبد بهم الجوع ما زالوا يؤمنون ، مثلما آمن المسيح بالانسان المتحرر من الخوف والاضطهاد واستغلال اخيه الانسان يحملون مثلما حمل المسيح صليبهم كل يوم فى رحلة العذاب وبدر كون ايضا مثلما بشر المسيح بأنه لا يفيد الانسان اذا كسب العالم وخسر نفسه .

والعساكر الجـدد جاءوا منـذ أيام ما زالوا متجهمى الوجة لا يدركون مثلما أدركت الدفعة السـابقة انهم امام تلامـذة المسيح المخلصين ووارثي كل قيم العدالة الاسلامية الذى نادى بها سيدنا محمد وطبقها خلفاؤه الراشدون واستشهد الحسين بن علي من اجلها .

ولدى عودتنا من المعتقل بعد يوم عمل شـاق كان كل ما يشغلنا هو كيف نحتفل بهذه المناسبة ، والحقيقة انه طوال العشرة ايام السابقة على رأس السنة كانت تجرى استعدادات حافلة وعلى قدر الامكانيات المتاحة للاحتفال فى وقت واحـد بعيد الميلاد وبمرور عام على بدء اعتقالنا .

فبدأ الزملاء المسجونون يخزنون لنا بعض السكر والشاى لنتذوق هذا المشروب الذى لم نره منذ حفلـة اللواء همت الدموية الا فى ايدى الضباط فى الصباح ، كما اعدت لجنةالحياه العامة التى كانت تتولى تنظيم حياتنا الداخلية بما فى ذلك الاتصـال بالادارة وتدليـك العساكر ، مفاجأة عظيمة تمثلت فى كمية من السجائر استطاعت ان تحصل عليها بوسائلهـا الخاصة لكى يمكن توزيع سيجارة على كل معتقـل فى تلك المناسبة ، وتم ترتيب كل شىء بدقة بالغة .

وعندما أغلقت بوابة العنبر الرئيسية بدأت الاحتفالات على الفور .. وفى كل غرفة أشعل الموقد ـ التوتو ـ ووضـعت « أكواز » الشـاى لتعطر الغـرفة وجلسـنا نتـأمل التـوتو والشـاى تمـاما باحسـاس الانسـان الاول حـين وجـد النـار تشـتعل فجاة حـين ضرب زلطة بقدمه فاصطدمت بأخرى .. كما وزع عـلى كل فرد سيجارة وينجز كاملة . واسندتظهرى ورأسى الى جدار الغرفةوبجوارى الشاعر محسن الخياط وعامل النسـيج مصطفى درويش واشعلت سجارة .. وأخذت نفسا عميقا غريبا موحيا لماجربه قبل ذلك .. كانت رائحة الدخان والكبريت والشاى والعيون المتحفزة التى تنتظر دورها لترتشف قطرات الشاى مع دخان السجائر تشكل صورة رائعة وحزينة ، وناولت السيجارة الى مصطفى درويش الذى كان فى وضع شبه راقد فوضع ساقا على ساق ووضع السجارة فى فمه بشكل ارستقراطى ثم اخذ

نفسا طويلا كاد ينهى به السيجارة ٠٠ ونطق محسن بالشعر وهو يشير الى مصطفى

شوف مصطفى درويش
لما تبرجز شرب الوينجز ٠٠ فين مصطفى درويش

واخذنا نردد كلنا الاغنية بصوت جماعى بينمـــا مصطفى يكتفى بان يهزقدمه على اللحن ٠

ثم بدات الغرف الاخرى ، وكان العنبر يتكون من عشرين غرفة فى كل غرفة حوالى ١٥ فردا ، تدخل فى حالة الانسجام والاحتفال ٠٠ فكان على كل غرفه أن تقدم عملا جماعيا ، أغنية أو نشيد أو تمثيلية ٠ وقدمت غرفة واحد اغنية « فى يوم فى شهر ٠٠ فى سنة »

تخلى السجون وتنام ٠
وعمر سجنى انا اطول من الايام ٠

وقدمت غرفتنا اغنية
فوق الشوك مشانى زمانى ٠

وغرف اخرى قدمت بعض التمثليات المضـــحكة او بعض القفشات والنكت ، وغرف قدمت اغانى سيد درويش ٠ وماج العنبر كله بحياة متدفقة مليئة بالإمل والضحكات ٠ وانقضت ساعات الليل الاولى ، ولاول مرة فى سجن الواحات ، سريعة خفيفة وتلاشت الاسوار وفقدت تمـاما الاحساس بالسـجن وصاح احد الزملاء ٠

ـ عنبر كله يسمع ٠٠ بعد عشر دقائق هيبدأ اول يوم فى السنة الجديدة تحية حب مننا لكل أبناء وبنات مصر ، لأولادنا ولأبنائنا وأمهاتنا وزوجاتنا ولأصدقائنا وصديقاتنا ، لكل طفل ولكل شيخ لكل ولد ولكل بنت ٠٠ ولمصر أمنا وأختنا وحبيبتنا وانطلق يغنى بصوت أجش ٠

بلدى يابلدى وأنا نفسى أروح بلدى
يا عزيز عينى السلطة خدت ولدى

وانطلقنا كلنا نغنى الاغنية التى كان يشدو بها اجدادناحينما اخدوهم الى الصحراء حيث ضاعت حياتهم دفاعا عن المستعمر وأذنابه ٠٠ وأخذت أغنى بانفعال صوتى ، وتجسدت صـورة أبى وقد اكتسى وجهه الاسمر حزن وأخذ صوته يرن فى آذانى

يا عزيز عينى .. السلطة خدت والدى
انتباه .. انتباه .

صوت آخر فجر الضحكات لدى الزملاء . كان تقلدا متقنا لصوت حارس مأمور السجن ولكن الصوت عاد يتكرر ولم يكن فى الامر تقليد اذ فتح باب العنبر فجأة ودخل العساكر فى خطوات سريعة وخلفهم المأمور وعدد من الضباط وهم يوزعون شتائمهم البذيئة علينا وعلى ابائنا وامهاتنا بل والبلد التى قدمنا منها . مسكينة مصر . !!

وفتحت الغرف غرفة غرفة وهجم التتار علينا بالعصى والقايش وأوامر مشددة .. كله يبص للحيط .

وصمت العنبر الا من صوت المأمور وشتائمه وأوامره للعساكر بتشديد الضرب وبعض التاوهات المكتومة وارتطام الاجساد بالحائط أو بالقايش والعصى .

وتحول الموقف كله الى نكتة سخيفة ومقززة فى نفس الوقت .. فبعدما انسحب المأمور وزبانيته بعد أن أوسعونا ضربا فى الدقائق الاولى للعام الجديد ، اكتشفنا ان هناك دفعة جديدة من المعتقلين قد وصلت الى السجن وقام المأمور بحملته الهمجية لتوزيعهم على الغرف وكان نصيب كل غرفة اثنين او ثلاثة .

كانت الدفعة الجديدة ممن قضوا السنة الماضية فى السجن الحربى نظرا لان معظمهم من المجندين والضباط ومعهم ايضا عشرون من ابناء قطاع غزة المعتقلين منهم الشاعر الفلسطينى معين بسيسو وعبد القادر ياسين وديب الهر بيطى ومدير التعليم فى قطاع عزة .

وبسرعة استعدنا مبادرتنا بعدما اغلق العنبر مرة اخرى وكانت الخسائر بعض الكدمات والجروح البسيطة وأخذنا نرحب بالزملاء الجدد وبفرحة حقيقية .. فهم قادمون من القاهرة الحبيبة ، القاهرة البعيدة .. ولاشك ان لديهم الكثير من الانباء وخاصة انهم نجحوا فى عزلنا تماما طوال الاشهر الماضية عن أى اخبار او انباء وبدأنا نمطر الزملاء بالاسئلة .

كيف الحال فى القاهرة هل قرائتم الجرائد وأخبار زملائنا المعتقلين الذين تركناهم فى الفيوم والقلعة ، والعلاقة حاليا بين مصر والعراق .. وبين مصر الاتحاد السوفيتى .

وبدأ محمد طه ، المجند والذى قضى فى السجن الحربى ثمانية شهور يحكى وفى كل كلمة قالها كانت هناك اكثر من مفاجأة .

عرفنا أن هناك خلافا نشأ بين قادة حزب البعث وبين الرئيس عبد الناصر وأن أكرم الحورانى وصلاح البيطار وغيرهم من قيادات الحزب قد قدموا استقالتهم احتجاجا على ما سموه انتهاك الديمقراطية ، وأبتسمنا كلنا فى سخرية وخاصة ان الحورانى والبيطار وكان احدهما يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية كانا منذ شهور فقط أكثر الناس هستيرية فى الهجوم على الشيوعيين وأتهامهم بأنهم « معادون للقومية العربية » لمجرد انهم كانوا يتصورون ان الاسس الديمقراطية هى وحدها الكفيلة بدعم الوحدة .

هكذا أخذت قيادة البعث درسا بعد أن كانوا يقيسون الديمقراطية بمدى قربهم أو بعدهم هم عن السلطة .

وعرفنا ايضا ان هناك اتفاقا مصريا سوفتيتيا ببناء المرحلة الثانية للسد العالى وأبتسمنا كلنا فى رضى هذه المرة فلقد كنا ندرك انه ليس فى صالح مصر ولا فى صالح الاتحاد السوفيتى أن تنشب خلافات بينهما تلك الخلافات التى عملت القوى الاستعمارية والرجعية على تعميقها وتوسيعها طول العام الماضى والتى كانت تريد ان تجنى ثماره فى ابعاد مصر عن عمليات التصنيع والتنمية لكى تظل مجتمعتنا استهلاكيا اسيرا للمجتمعات الصناعية الغربية .

وعرفنا ايضا ان يورى جاجارين رائد الفضاء السوفيتى قد حلق بمركبته فى الفضاء معبرا عن قدرة العلم فى تحقيق أحلام الانسان من أجل مزيد من الخبرة والاستكشافات وليس من أجل الاستعمار والقهر .. وصفقنا طويلا للنبأ وقام أحد الزملاء العمال يرقص وسط الغرفة ، وشرع محسن الخياط ينظم قصيدة شعر بتلك المناسبة .

جاجارين يسافر الى القمر والفضاء رمزا لانتصار الانسان ونحن نسافر الى غياهب القرون الوسطى ، ولكن محمد طه كان يحمل أخبارا أخرى قتلت الابتسامة على الوجوه وحملت معها

جوا من الكآبه الثقيلة .. لقد روى محمد طه أن هناك معتقلين أخرين القى القبض عليهم وانهم ومعهم زملائنا الذين تركناهم فى معتقل الفيوم يقيمون الان فى معتقل أوردى ابو زعبل فى ظروف غاية فى القسوة . كان من الواضح أن ما تم فى الواحات على يد همت وفرقته تم أيضا فى أوردى أبو زعبل مع مزيد من النضج والاتقان .

وعرفنا أن زملائنا هناك منذ أن زارهم همت يخرجون للعمل فى الجبل مع تكثيف شديد فى الضرب والاهانة وانهم حتى الان مازالوا يعانون من وطأة اساليب التعذيب الوحشى التى يمارسها عليهم قائد المعتقل حسن منير ومعه ضابطان اخران هما يونس مرعى وعبد اللطيف رشدى .

وأخذ محمد طه يحكى تفاصيل غريبة عن أساليب التعذيب التى مازالت تمارس مع المعتقلين فى الاوردى ، فبالاضافة الى العمل الشاق فى الجبل والجلد المستمر على العروسة يجمعون فى الصباح للقيام بطابور رياضى لمدة نصف ساعة حيث يطلب منهم ان يقدموا هتافات معينة او اغانى يحددها لهم الصول مطاوع .

حقيقة اننا عانينا ومازلنا نعانى من امثال هذه الاساليب ولكن الصحراء والبعد عن القاهرة والاحساس بالنفى لدى الجميع معتقلين وعساكر وضباط قد خفف كثيرا من « التطبيق » وأستطعنا أن نكسر الحلقة فى عدة نقاط . ولكن الزملاء فى ابى زعبل كانوا سىء الحظ لقربهم من القاهرة حيث الاشراف المباشر للأجهزة وأيضا لوجود ثلاثى حسن منير وعبد اللطيف رشدى ويونس مرعى الذين عرفوا بشراستهم واستمتاعهم بعمليات التعذيب .. وحينما وصل الراوى فى حكاية الى استشهاد الزميل الطبيب فريد حداد نتيجة التعذيب خرجت اكثر من صرخة ملتاعة .. كان الدكتور فريد حداد طبيبا باطنيا مشهورا تقع عيادته فى أول شارع شبرا ، وكان معروفا بدماثة خلقه ورقته الشديدة وعلاجه المجانى للفقراء الامر الذى كسب له احتراما وحبا شديدا بين أهالى الحى .

وحين ألقى القبض عليه ودخل الى أبى زعبل ضمن مجموعة صغيرة من الزملاء أجروا معه بروتوكول الاحتفال فى الضرب

عند البوابه وتجريدة من ملابسه وجره من قدمه للمسئول أمام قائد المعتقل حسن منير ·

وتقدم الضباط يونس مرعى لاعب الكره الفاشل والذى عرف عنه انه يفتقد شيئين العقل و !! وسأل فريد حداد ·

ـ اسمك ايه ياولد

ـ الدكتور فريد حداد

ـ دكتور ايه يابن القحبة ـ اديله ياعسكرى

ـ انت شيوعى ياولد

ـ أنا مصرى أومن بالاشتراكية

ـ يعنى شيوعى ، مصنوع فى روسيا

ـ انا مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمـــال والفلاحين

ـ بترد على ياولد يابن الـ· ·

انهـال يونس مرعى ومعـه بضعة عساكر بالعصى ودبشـك البندقية يحطمون رأس وجسد فريد حداد ، وصـــاح فريد فى وجه يونس مرعى ·

انت كلب فاشيستى

وبصق فى وجهه ويقال انها مازالت بقعة ماثلة على وجه الكلب الفاشى حتى الان بالرغم من كل المحاولات التى قام بها لازالة أثارها · · ثم سقط فريد شهيدا ·

وخيم الصمت ، ذلك الصمت المشحون بأسى الانفعالات ، وتساقطت دموع ساخنة ، وانتخب بعض من عرفوا الشهيد عن قرب بينما راح محسن الخياط يردد قصيده للشاعر الفرنسى بول ايلوار الذى مات فى سجون النازى وهو يدافع عن باريس الحبيبة ·

باسم العيون التى انظر اليها
من أجل اليوم وللابد ·
باسم الامل فى المسجون ·
باسم الدموع فى الظلمة ·
باسم الرجال فى السجن
بأسم جميع الرفاق

الشهداء والقتلى
لانهم لم يقنعوا بالظل ٠
دعونى أنفس عن غضبى
وأستثير الحديد
لنحفظ الصورة العالية
للأبرياء الكادحين فى كل مكان
والذين سينتصرون فى كل مكان
والذين سينتصرون فى كل مكان ٠

الظلم يضرب في كل مكـان
يضرب الابرياء والابطـــــال
والمجـانين ، ولكني سـمعتهم
يضحكون في الشـقاء والتعذيب
يضـحكون للغـد ويولـدون في
الضحك .

(بول ايلوار)

٨ يناير سنة ١٩٦٠

كنت ومازلت متيما بالشاعر الهندى رابندرات طاغور ..
ولقد قيل عنه وعن شعره الكثير فهو شاعر الحب والسلام وهو المؤمن بالانسان المقدس للمرأة المناضل من اجل المتعبين .

ولكن شـيئا آخر كان وما زال يخاطب أعماقى وأنا اقرأ أشعاره ، تلك هى جذورة الحزن الكامن والذى يحوله الى طاقة غريبة يمكنها أن تشع فيضا من الامل والاحلام .

ذلـك الحزن الخصب القـادر على الخلق والابداع هو الذى جعله يغنى للحياة .

لا أريد ان اموت في هذا العالم الجميل
أريد ان احيا مع البشر .
فى ضوء الشمس
فى الحديقة المزهرة
وسط القلوب الحية دعني اجد مكانا
دعني ازرع صباح مساء زهور من أغان جديدة .

ولقد كان علينا أننزرع زهور أغان جديده وســـط تلك الصحراء القاتلة ومع كل تلك الانباء الحزينة عن زملاء آخرين لنا يعيشون فى القرون الوسطى فى غابة أوردى أبى زعبل على بعد ثلاثين كيلو مترا من القاهرة ..

الطريق .. الطريق ..

مجلة تسمع ولا تقرأ .. بعد خمسة دقائق فى عنبر واحد .. وولدت أول مجلة صوتية فى ردهات عنبر (١) تقدم الصورة والخبر والكاركاتير والتحليل السياسى والنقد الادبى والقصة والشعر .

كل ذلك يقدمه رؤساء التحرير بأفواههم .

ونجحت التجربة وتكررت وبات المعتقلون ومعهم الزملاء المسجونين ينتظرون الساعة الثالثة من يوم الخميس كل اسبوع ليسمعوا اخر اخبار مصر والعالم الخارجي مع كل الابواب التى يمكن ان تصدر بها مجلة اسبوعية مكتوبة مع فاروق واحد انها مجلة منطوقة تسمع ولاتقرأ .

وقد كنت واحدا من ثلاثة يرأسون تحرير المجلة التى اشترك فيها بعد ذلك عدد من كبار المثقفين المصريين والفلسطينيين من أمثال الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وأبو سيف يوسف وأديب ديمترى وأير اسكندر والدكتور فؤاد مرسى والدكتور عبد العظيم انيس ومعين بسيسو وطاهر عبد الحكيم وحمدى عبد الجواد ومصطفى طيبة وعبد القادر ياسين وسعيد عارف والدكتور فوزى منصور .. ولم تمض اسابيع قليلة حتى ظهرت مجلة اخرى من نفس النوع هى مجلة الهواء واشترك فيها أيضا بعد ذلك عدد أخر من كبار الكتاب والشعراء من امثال محمود امين العالم وابراهيم عبد الحليم و صلاح حافظ والدكتور شريف حتاته ورفعت السعيد و عادل حسين ... وكان من الواضح أن كلا من مجلة الطريق والهواء كانت ردا فكريا على الواقع المر الذى حاولوا فرضه علينا سواء فى الواحات أم فى أبى زعبل .

وقد بدأنا نكسر الكثير من الحلقات التى كانت تعمل على عزلنا عزلا تاما عن الحياة خارج سور الصحراء الواسع والممتد، وبدأت تصلنا الجرائد ـ سرا ـ كما بدأنا فى استخدام العساكر فى ارسال الخطابات الى ذوينا واستلام خطاباتهم سرا .

وحاول مامور السجن والحق يقال ان يقاوم كل ذلك فبدأ بحملات تفتيشية مكثفة بحثا عن الاوراق والاقلام التى كانت تعتبر أم الكبائر بالنسبة لنا ، كما حرص على أن يراقب بنفسه العمل فى الجبل ولكن ارادتنا كانت أقوى ، كما أن هناك حدثا

أخر كان بمثابة الطعنة القاتلة التى اصابت غطرسه المأمـــور وتعسفه ، ٠فذات ليلة فوجئنا بالعنبر يفتح واستيقظنا على صوت المأمور وهو يصيح ملتاعا ٠٠ عاوز دكتور من فيكم دكتور ٠٠ وخرج له ليلتها الدكتور حمزة البسيونى والدكتور مختـــار السيد والدكتور رزق عبد المسيح ٠٠ وذهب بهم الى الفيـــلا المخصصة له على بعد ثلاثة كيلو مترات من المعتقل حيث كان يرقد ابنه الصغير وقد استبدت به الحمى حتى قطعت انفاسه وأيقن المأمور أن ابنه قد ما ت ٠

ولم تحدث المعجزة مثلما تصور بل ان الامر ببســـاطة أن الاطباء الثلاثة الذين ذهبوا معه كانوا يعرفون عملهم جيـــدا واستطاعوا بوسائل بدائية وبخبرة أن يعيدوا الى صدر الطفل الصغير الهواء الذى كاد أن ينقطع بل وتمكنوا خلال عـــدة ساعات تخفيض درجة الحرارة حتى استطاع الطفل الذى كان يعتبره ميتا منذ ساعات أن ينهض من فوق فراشه وأن يتكلم

ومنذ تلك الليلة والمامـــور الذى كان يتباهى بقـــدراته الجسدية وقوته والتى كان يمارسها معنا فى زهو وخيلاء ، قد أصبح يتجنب دائما أن يلقانا بل أنه سرعان ما اســـــتجاب لمطالبنا فى أن نحول جهدنا الذى نبذله فى الجبل والصحراء فى عمل لاعائد منه الى عمل اخر يمكن ان يكون نافعـــا لنا وللسجن كله ٠

وبدأت قصتنا مع « المزرعة »

فقام عدد من الزملاء المهندسين بمسح المنطقة التى تقع بين السجن وبيوت الضباط وتقع فى حوالى مائة فدان ووضـــعوا مشروعا متكاملا لاستصلاح تلك الارض مستفيدين من وجود بعض ابار المياه القريبة من بيوت الضباط وبدأت رحلة الخروج اليومية تتجه نحو المزرعة ٠٠ وبخطة علمية مدروسة وبحماس ذاتى من جانبنا بدأ تنفيذ المشروع ٠٠ والغريب اننا بدأنا نعمل بجدية فلقد كان اســـتنبات الزرع فى تلك الصحراء يعنى بالنسبة لنا اشياء كبيرة ٠

فالفكرة فكرتنا والجهد جهدنا وأيضا فاننا كنـــا فى امس الحاجة الى الكثير من الغذاء وخاصة الخضر والتى كنا نفتقدها تماما ٠

فطوال العام الماضى وبالذات منذ بدأنا نخرج الى الجبـــــل وهناك احساس بالجوع الدائم فاروانه العدس والفول وقطعة الجبنة القريش والارغفة الثلاثة التى كانت تصرف لنا يوميـــا كنا نلتهمها فور عودتنا من الجبل ليبقى الانسان حتى الساعة الرابعة من اليوم التالى وهو يعيش فى حالة من الجوع الدائم .

ولقد كان هناك بعض الزملاء الذين يحرصـــــــون على ان يحتفظوا بكسرة خبز يتناولونها فى الصباح قبل الذهاب الى العمل وكم كانت تحسدهم الغالبية وانا منهم .

لقد كان بيننا ماهو مصاب بقرحة فى المعدة أو التهاب فى القولون . ولكن الجميع كانوا يلتهمون الفول والعدس بنهم والغريب أن الزملاء المرضى بالامعاء عاشوا ولفتـــــرة طويلة لايشكون ألما ولكن ذلك لم يكن يعنى أن المرض انتهى بل كان يعنى أن ارادة الحياة القوية لديهم كانت تمنحهم الرغبة والقدرة على تحمل الظروف الصعبة التى نعيشها .

وقد بان أثر ذلك بعد فترة حينما بدأ يتساقط عدد مـــــن الزملاء بأمراض قاتلة فى المعدة منهم من وصل المرض معه الى درجة لم تستطع أن تنقذه من براثن الموت .

ففى أول يناير ١٩٦٠ سقط على متولى الديب العـــامل فى مصنع الالياف بشبرا الخيمة بعد أن اصيب بدوسنيتاريا قاتلة ، ومات العامل الشباب (٢٨ سنة) ونحن لانملك سوى أن نصرخ فى وجه الادارة العاجزة محتجين على سياسة القتل البطىء التى تمارس معنا .

وفى نفس الوقت تقريبا وفى زنزانة مظلمة فى معتقل ابى زعبل مات المهندس الشاب رشدى خليل (٣٠ سنة) بعد أن تمزقت أمعاؤه من الحمى .

وبدأنا نفيق على حقيقة مرة .. هى انه يبدو ان هناك حكما بالابادة قد صدر ضدنا فمن لم يمت بالتعذيب قتله الجـــــوع والمرض .

ولهذا كله كان حماسنا للعمل فى المزرعة دفاعا عن الذات ومحاولة الافشال من مخطط الموت البطىء الذى بدأ يؤتى ثماره وكان الانفعال الواضح على وجه المهندسين عبد المنعم شـــتلة

وحسين طلعت وهم يستحثون الزملاء للعمل يحمل هـــذا المعنى ..

على أن الايام الاولى للعمل فى المزرعة قد شـــهدت مأساة هزلية .. ففى فترة الظهيرة كنا ناخذ راحة لمدة ساعة نستنجد بظلال بعض شجر الخروع المجاور لبيوت الضباط من وطأة الشمس القاسية وكانت الاشجار وقتها محملة بثمار الخروع .

وقال ظريف عبد الله المحامى وهو يلتهم ثمرة من تلك الثمار لجمع حوله

لذيذ .. طعمه مثل اللوز .

وكان الجوع الشديد الذى نعانية كافيا لاقناعنا بالتهـــام ثمار الخروع .. واشترك في المادبة اعـــداد واســـعة حتى الدكتور مختار السيد أفتي بأن آكل الخروع صحى .

وضاعت صراخات عم نوح فلاح البحيرة وهو ينهر الزملاء ويحذرهم من آكل الخروع الذى « لاتاكله الحمير » ولكن الجوع المستبد وثناء ظريف عبد الله وفتوى الدكتور مختار اغرتنـا يتناول ثمار الاشجار الموجوده .

الجميع بالتهام الثمار المحرمة .. وبعد اقل من ساعة كنا قـد تناولنا كل ثمار الاشجار الموجوده .

وكانت ليلة مبكية مضحكة .

فبعد ساعة من اغلاق العنبر والغرف بدأ عدد من الزمـلاء يحسون آلام حاده فى امعائهم وأنتاب البعض اسهال شـــديد ثم قيء ، ثم بعد نصف ساعة اخرى كان من الواضح ان اعداد كبيرة من الزملاء قد اصيبوا بالتسمم .. وبدأنا ندق الابـواب بعنف نستنجد بالعساكر ليفتحوا الغرف ، وكانت كل لحظة تمر يسقط اكثر من زميل فاقد الوعى بعد أن انهكه الاسهال والقيء ..وقال البعض انها مؤامرة من نوع جديد تقتلنا ..اما الزملاء والاطباء فلقد بدأو ينصحون ببعض الاســعافات الاولية لمن وصلت حالتهم الى درجة الخطورة والاغماء .

وحضر المأمور ومعه قوة السجن وفتح العنبر والغرف التى تحولت بسرعة الى مستشفى ميدان وبدأ الزملاء الاطباء وكانوا حوالى ١٢ بما فيهم الطلبة فى السنوات النهائية فى الكلية ، بأجراء بعض الاســـعافات وذهبت عربة السجن الى مدينـــة

الخارجة لتحضر بعض الادوية المتاحة والغريب أن عم نوح الذى حظر الزملاء من اكل الخروع هو الاخر يتلوى من الالم ثم اعترف بأنه تناول بعض الحبات حينما اثنى الدكتور مختار بأنه صحى أما الدكتور مختار نفسه والذى تناول اكثر من مائة حبة فلقد ظل يتكابر ويخفى الامه بينه وبين نفسه ليؤكد نظريته ثم سرعا ما انهار وسقط هو الاخر يتلوى .

وحتى الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم كان الموقف خطيرا فحوالى ثلث المعتقلين يواصل عملية القيء والاسهال ويصل ببعضهم الى مرحلة خطيرة والثلث الاخر ممن تناولوا كمية محدودة ـ وقد كنت منهم يتحامل على نفسه فى محاولة لاسعاف الزملاء الآخرين فى حين كان هناك مجموعة أخرى ولحسن الحظ لم نخرج للعمل فى هذا اليوم للقيام بأعمال النظافة داخل العنبر .

وامتلاء العنبر بالحركة وصراخ الالم المكتوم تماما مثل أى مستشفى فى ميدان المعركة وقرر الاطباء نقل ٢٠ زميلا على الفور الى مستشفى الخارجة حيث كان نبضهم ضعيفا ودخلوا فى مرحلة الخطر بينما اجرى لعدد كبير اخر عملية غسيل للمعدة أو اعطاء بعض المضادات للتسمم .

وليلتها لم ينم احد فى المعتقل ، سوى الزملاء الذين راحوا فى غيبوبة استمرت أكثر من يومين وامكن انقاذ حياتهم بعد جهود مكثفة ولكن الى حين .

فلقد تبين بعد ذلك ان الفنان أحمد البيكار الذى مات بعد عام نتيجة سرطان فى الامعاء والعامل على زهران الذى مات ايضا بعد حوالى عام ونصف نتيجة تسمم فى البولينا كانا يدفعان ثمنا غاليا لتلك المأساة التى عشناها مع الخروع .

ولقد تصور مأمور السجن الذى أصبح اكثر انسانية أن من واجبه أن يرسل لحسن المصيلحى . مدير ادارة المباحث العامة فى ذلك الوقت ليخبره بما حدث ربما املا فى ان يأمر المصيلحى صاحب الامر والنهى فينا بتخفيف بعض الظروف التى نعيشها وخاصة حالة التجويع البطىء... واهتم المصيلحى برسالة المأمور وبعث له على الفور برقية يهنىء المأمور فيها بسياسته الحازمة ويعلن سروره بما حدث !!

ثم بدأوا يدقـون المسـيح بالمسامير .
عنـد الدقـة الاولى اهتزت الفلك .
وعند الدقة الثانيـة نزلت الملائكة من السـماء يغسلون جروحه .
وعند الدقة الثالثة فقـدت العـذراء الوعى ومعها العـالم ايضا .
وغرقت الارض في الظلام
« الانجيل »

يونيو سنة ١٩٦٠

الطوارئ

حتى الجو أعلن حالة الطوارئ وتحولت الشمس الى بقعـة صفراء مختنقة ورياح خماسينية معربدة تعصف بأطنان الرمال المتوفرة ووسط كل هذا حركة في الادارة يشترك فيها المأمور والضباط والحرس تماما مثل حركة الرمال المتحركة التى تلقى بها الرياح لتصل الى أعتاب العنبر والغرف .
كانت الساعة قد قاربت الثانية عشر ولم نخرج الى المزرعة وكلما سألنا كانت الاجابة : الظاهر فيه حاجة ، وأخيرا فتحت الزنازين وتجمعنا في فناء السجن وقد اسـتبدت بنا الظنون فمن قائل ان هناك ترحيلة ومن مؤكد ان حفلة تعذيب أخرى تعد . أما الغارقون في أحلام التفاؤل فلقد راحوا يؤكدون أن هناك افراجا ويستدلون على ذلك ببرقية عاجلة وصـلت الى المأمور أمس لم يعرف أحد محتواها وان كان شهود العيان من العساكر يؤكدون ان ملامح المأمور وهو يقـرأ البرقيـة كانت

تعكس اهتماما بالغا وحين تجمعنا في فناء السجن المكشـوف نسينا تماما غضبة الرياح ولطمات الرمال فى انتظار مايمكن أن يحدث أو ان يكون مدبرا ان يحدث وأخيرا جاء المأمور ولم يجلس على الكرسى الذى كان معدا له بل وقف يتأمل صفوفنا المتراصه الجالسة القرفصاء لعله يشبع نفسـه ببقايا مازالت عالقة به حتى بعد ليلة مرض ابنه وهو يدرك انه النجم الذى تنجذب اليه كل الانظار وانه القائد الآمر الناهى فى عباد الله ٠

والواقع أن شخصية الرائد فريد شنيش يستحق بالفعل أن تشـــد اليها انتباه مخرجى المسرح لانه من السـهل أن يجد فيه تلك الشخصية الطبيعية دون أى انفعال او تمثيـل شخصية المختال والمعجب بنفسه ٠ خمس دقائق وقف فيهـا ذلك الممثل الممتاز على خشبة من الرمل وأمامه جمهور من الحفاه ليســوا على اســتعداد على أى حال أن يصـــفقوا له واخيرا ابتسم وانعكست تلك الابتسامة فى شكل تنهدات من الارتياح الصامت خرجت من بعض الصفوف وان كنت قد ظلت أراقب المشهد بحذر شديد فلطالما تعودا من ذلك الممثل العظيم أكثر الآلام والجروح بعد أمثال تلك الابتسامة او حتى الضحكة العالية المدوية ٠ وتكلم بألفاظ مختارة جيدا على غــير عادته وبصوت متهدج على غير عادته أيضا وبنبرة انسانية لم نتعود عليها من قبل حتى ليلة الازمة التى مرت بابنه الصغير ، لقـد جاءت أوامر من القاهرة بتغير الظروف التى تعيشون فيها ومنذ اليوم ويمكنكم ان ترتدوا أحذيتكم ويمكنكم أن تتســلموا خطابات من أهاليكم بل (وقد سمح لكم ايضا التعامــل مـع الكنتين وشراء ماتحتاجون له كذلك لقد أوقف العمل الاجبارى واختتم المأمور أخباره السارة قائلا : أنا سعيد لهـذه الاوامر وارجوا أن تفهموا ماحدث فى الشهور الماضـية انه لم يكن بأرادتى فلقد كنت انفذ التعليمات ٠ وعموما انا سعيد وأتمنى أن يكون ماحدث اليوم مقدمات للافراج عنكم ٠

ورفع نظارته السوداء ومر بمنديله الابيض يمسح شيء ما فى عينيه ٠

غريب أمر هذا الرجل الذى يستطيع ان يكون متكيفا مـع

كل موقف فهو مع الضرب والتعذيب الشخصية القاسية التى تقطع صلاتها بكل ماهو انسانى وخاصة حينما كان يضحك ضحكاته الشيطانية وهو يكسر زراع زميل لنا ويوجه لكمات قوية الى وجهه وجسده ، وهو ايضا يمثل الدور تماما فى هذه اللحظات ليكون حملا وديعا تفر الدموع من عينيه ٠

ولقد قرأت كثيرا مثلما قرأ غيرى عن انقسام الشخصية وازدواجيته ولكنى لم أر شخصية أخرى ينطبق عليها هذا الوصف قولا وعملا سوى الرائد فريد شنيش ربما فيما عدا القصة المشهورة الدكتور ميكل ومستر هايد ٠

وقبل ان يتركنا المامور طلب ان يلتقى فى مكتبه بخمسة من زملائنا حددهم بالاسم ٠ وعدنا الى العنبر لتبدأ عملية تسليم احذيتنا وكم كانت عملية مثيرة ٠ البعض احتضن حذائه وهو يبكى ، هؤلاء الذين لم يبكوا فى مواجهة أقصى أنواع التعذيب وتهدجت كلماتهم بالدموع وهم يأخذون من المخزن الحذاء ومعه بعض الحاجيات الخاصة والمتبقية بعد حفلة همت حين أخذوا منا كل شنطنا وفرضوا علينا الملابس المجهزة لهذه المناسبة ٠ البعض اخذ نظارته التى فرض عليه ان يعيش بدونها والبعض وجد علبة سجائر متبقية مضى عليها اكثر من ثمانية شهور والبعض صورا لاولاده أو زوجته أو صديقته ووضعت قدمى فى حذائى وخطوت ماشيا اول خطوات بعد شهور سبعة من الحفاء وتذكرت مرة أخرى أمنية المهرج فى مأساة الملك لير الذى كانت احلامه تتوقف عند حذاء يضع فيه قدمه ويرد عنه غائلة البرد والثلج ٠

وخفت الحركة فى العنبر تماما على غير العادة رغم الابواب المفتوحة فلقد انتحى كل زميل فى ركن من الغرفة او فى جانب من الممر يعيش مع صورة فى يده قد تكون ابنه وقد تكون زوجة وقد تكون حبيبة يقبلها احيانا ويتأملها بشغف واخذت احملق فى صورة سامح وأهداب أولاد أختى وأعيد تأكيد ملامحها ومعهما أعبر الصحراء الى ذكريات الحياة هناك بعيدا فى تلك الشقة التى تقع فى الدور الثالث فى شارع ٢٦ يوليو صراخهموضحكاتهم ، شقاوتهم معامهم الطيبة ، صراخات سامح

الصغير واصراره على ان يمضى معى وعندما جاءوا للقبض علـى فى فجر اليوم البارد منذ أكثر من عام ونصف ، كانت الحياة تخضر من جديد بعد ان كادت تضيع وتغرق فى تلك الوديان الصحراوية القاحلة ٠

وجاء الزملاء الخمسة بعـد لقاء طويل مـع المأمـور الذى استمر ثلاث ساعات لم نحس بها اذ كنا غارقين مع ذكريات الحياة البعيدة خارج الاسوار وتجمعنا كلنا حولهم نسـمع تفاصيل الحوار مع المأمور الذى كان يبدو وأنه كان مشحونا ووقف فخرى لبيب يحكى وقبل ان ينطق بالكلمة الاولى كانت الدموع قد سبقت الى عينيه ثم بدأت تنهار وهو يقـول لقـد مات شهدى عطية أول أمس فى اوردى ابى زعبل ٠٠ اذن فهذا هو الثمن ٠

كان شهدى واحد من المع المثقفين المصريين ورائد من رواد الفكر الماركسى ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وهو يناضل بقلمه وفكره دفاعا عن العمال والفلاحين المصريين وهجوما على الاستعمار والاقطاع وعمل رئيسا لتحرير مجلة الجماهير التى أغلقها الدكتاتور اسماعيل صدقى سـنة ١٩٤٨ ٠ ثم أعتقـل ولكنه منذ قيام الثورة وقد كان احد المبشرين لها وتحول الى احد المدافعين عنها وخرجت له عدة مؤلفات من أهمها تاريخ الحركة الوطنية المصرية وسجل بها تاريخ الشعب المصرى من أجل الاستقلال والديمقراطية وعدالة التوزيع وحتى حينما القى القبض عليه عام ١٩٥٩ وقدم للمحاكمة بالاسـكندرية اخذ يحذر من هؤلاء الذين يعملون على تفتيت وحدة القوى الوطنية ويرفعون شعار العداء للشيوعية ٠

كانت تلك آخر الأخبار التى وصلتنا عن شهدى قبـل أن نسمع عن استشهاده فى ابى زعبل وقد كان علينا ان ننتظر يومين لنسمع تلك التفاصيل عن مقتل شهدى وعن الجو الذى عاش فيه زملائنا فى ابى زعبل طوال ثمانية اشهر ولقد وصل الينا هؤلاء الزملاء بعد ان تقرر اجراء تصفية اوردى ابى زعبل اكثر من ثلثمائة رفيق كل منهم يحمل قصة تصل الى حـد

الاساطير عن ذلك المعتقل الذى مورست فيه اكثر الاســاليب وحشية وربما تلك التى لم تخطر على بال ٠

وكنا قد سمعنا بعضا منها منذ ثمانية شهور وخاصـــة بعد أن عرفنا بوفاة الزميل الطبيب فريد حداد ولكن الذى لم نتصوره أن يستمر هذا الجو الهيسترى طوال تلك المدة لتنتهى بمأساة اغتيال شهدى ٠

ان ما استطعنا ان نفرضه فى الواحات وقد ســاعدنا عليه البعد عن القاهرة من ناحية وبالتالى البعد عن الاجهزة المعنية بالتعذيب وايضا ذلك الاحساس الذى تفرضه الصـــحراء الشاسعة المحيطة والتى تملاء الكل بأحساس الغربة والوحشة سواء كانوا سجانا أم سجناء ان ذلك لم يتوفـر لزملائنـا فى ليمان ابى زعبل الذين زاقوا الكأس حتى الثماله ٠

ثمانية اشهر يضربون طوال الاربع وعشرين ساعة فى طابور الرياضـــة فى العنـــابر فى منتصـف الليل فى الفجـر حينما يتسلمون « الجراية » أو حتى حينما يشكو احدهم من مرض ٠٠ صورة بشعة لايمكن أن يتصورها الا مخبـــول نزع عقله فراح يعربد حرا طليقا من اى منطق ومن أى ذرة انسانية ٠٠ واذا كان التعذيب علما أو فنا فلابد وان يعترف الانسان أن قائد أو ضباط أوردى ابى زعبل يستحقون لقب اساتذة هذا العلم ولست مبالغا اذا قلت انهم تفوقوا فى بعض الامور على اساتذة النازى فى معتقلات دخاد وبوخنوالد واشـــفيتز أن الصورة التى سمعناها عن يونس مرعى وهوايته المفضلة فى أن يقف على تل عال ليقذف الزملاء الذين يعملون تحت الجبل بالدبش متعمدا أن يصيب رؤوسهم تلك الرءوس التى تحوى عقولا كانت تغيظه وتستفزه وهو الذى لم يقرأ فى حياته سوى روايات ارسين لوبين ولم يعرف متعة فى حياته سوى الخمر والعربدة والفجر مع النساء ٠

وعبد اللطيف رشدى وكيل المعتقل الضـــخم الجثة الذى لايعرف سوى ان يضحك ويقتل وحسن منير قائد المعتقل ذو الصوت الثعبانى الذى كان يصـــفق كالطفل وهو يأمر بجلد زميل او سحبه على الارض ٠

ولقد اخذت اتصور الدكتور لويس عوض المثقف المصرى والعالمى ويونس مرعى يلقيه على الارض ويضربه بحذائه مثلما يضرب حشرة والدكتور فؤاد مرسى اســـتاذ القانون بكلية الحقوق وملابسه تخلع عنه ليضرب على المناطق الحساسة فى جسده والدكتور اسماعيل صـــبرى عبد الله وقائد الاوردى وزبانية يتسلون عليه وهم يأمرونه بأن يدور فى حلقة كالثور لتنهال عليه الكرابيج والشوم ٠٠ والمئات من خبرة أبناء مصر الطيبين من عمال ومثقفين وفلاحين وطلبة وضباط وهم يعاملون تلك المعاملة الوحشية ٠٠ ثمانية اشهر وكان الدكتور لويس عوض مثلما سمعت يفزع من النوم ليلا ليصيح أين نحن ٠٠ لايمكن ان نكون قد رجعنا ألف عام الى الوراء ٠٠ » ولم يهـدأ الزبانية ولو يوما واحدا ٠

وحين انتهت محاكمة شهدى عطية وزملائه فى الاسكندرية ورحلوا الى معتقل ابى زعبل فى يونيو كان اللواء همت وفرقته التى لاتختلف عن فرقة العاصفة الهتلرية ينتظرونهم على باب المعتقل ٠٠ ويومها اقام همت حفلته الهمجية باستمتاع شديد ٠٠ الضرب المستمر حتى الوصول الى البـــوابة ثم خلع كل الملابس وحرقها ثم جر المعتقل من ارجله الى داخل السجن ٠٠ ويقول شهود العيان أن همت كان فى اوج نشـــوته فى ذلك اليوم ولذلك اخرج حفلة فريدة من نوعها فاقت كل حفـــلاته المشئومة السابقة ٠

وبعد انتهاء المرحلة الاولى من الحفلة التى قام بها همت خارج أسوار السجن بدأت مرحلة اخـــرى على يد حسن منير قائد المعتقل ٠

فلا بد هو الآخر بأن يرحب بالوافدين الجدد وعلى طريقته الخاصة ٠٠ وحينما وصل الى شهدى عطيه بادره ٠

ـ انت بقى شهدى عطية ٠٠ عملى علم ٠٠ انت شيوعى ياوله قول أنا مرة ٠

وسكت شهدى فلم يكن هناك مجـــال للرد على مثل تلك الاسئلة ٠

فأمر حسن منير بأن يقلب على ظهره ويضرب بشدة على بطنه .

ثم رفعوه بعد ذلك ليمشي ولكن شهدى سقط فعاد الزبانية ينهالون عليه بالضرب .. ولكن شهدى كان قد فارق الحياة .. ويروى الدكتور اسماعيل صبرى هذه اللحظات التى كان شاهدا عيانا لها « كنا قد أمرنا بان نقف داخل العنابر ووجوهنا للحائط وكان الضرب شديدا على الوافدين الجدد وسمعنا اسم شهدى يتردد مع صوت الشوم والكرابيج ثم خيم الصمت المفاجىء ولم نعد نسمع الا أصوات متباعدة بعضها ينادى: فين أمين التمورجى ، وتركنا واقفين ووجوهنا للحائط ولم نخرج الى الجبل فزاد احساسنا بان شيئا غير عادى قد حدث وحاولنا الاتصال بزملائنا الجدد والذين ادخلوهم عنبر (٢) وعرفنا منهم أن شهدى لم يدخل العنبر وان أربعة آخرين سحبوا من العنبر لخطورة اصابتهم وزاد قلقنا وحاولنا من خلال الشبابيك الاتصال بالزملاء في كل العنابر ان نعرف ماذا حدث .

وعرفنا المأساة ، لقد كان جسد شهدى عطية ملقا فى احد زنازين التأديب بعد ان وضع قائد المعتقل عليها يافطة «مستشفى» مات شهدى مثلما مات فريد حداد بنفس الاسلوب ومثلما مات رشدى خليل وعلى الديب .. وقبلهم مات محمد عثمان فى أحد ردهات مبنى المباحث العامة فى طنطا ..

وبقدر مافجر حدث شهدى الدمع والالم فى عيوننا وقلوبنا بقدر مافجر المأساة التى نعانيها ..

ففى تلك الاثناء كان الرئيس عبد الناصر فى زيارة ليوغوسلافيا ووصلت أنباء استشهاد شهدى عطية وأثارت ضجة في الرأى العام العالمى لما لشهدى من سمعة واسعة ككاتب مصرى تقدمى .

ومن بلغراد أرسل عبد الناصر برقية يطالب فيها التحقيق فى مقتل شهدى .. وكان ذلك يعنى وقف التعذيب البدنى الذى كان يمارس علينا .

ووسط الدموع بل وشهقات البكاء ونحن نسمع من زملائنا ملحمة التعذيب فى أبى زعبل وموت شهدى قام محسن الخياط الشاعر ذو الصوت المبحوح ليقول قصيدة مرتجلة ..

مستقتلين .

ولا عمرنا نرمى السلاح من يدنا .

مستموتين .

نضحك لايام الجراح اللى ارتوت من دمنا . .

وأحنا كده

من صنع أوجاع الجياع المحرومين من شعبنا

واحنا كده

من صنع أهوال النضال عد السنين من عمرنا

نبدر حياتنا ع الطريق

ترويها ايام الضنا

تطرح هنا

لا جلادين

ولا سفاحين

هيغيروا طعم الكفاح من بقنا

طعمه جميل .. ذيك يانيل

والشمس رامية شعرها وراء ضهرها

زى الغدير اللى انسكب منه الدهب

وانت تسيل .. وانت يانيل ..

تاخدى وتدى أرضنا

كانوا يتوارثون الخوف ..
وكانوا يطلقون على هذا الخوف
اسم الحياة وفى يوم جاء رجل
ضئيل الحجم .. لم يقل لهم
شيئا غير عادى .. قال اشياء
يعرفونها من قبل ولكنهـــم
نسوها .
قال انهم ادميون وان لهـم
روحا ، انهم جوعى وايضا أن
هناك شيئا اســـمه الحرية
وشيئا آخر اسمه العدالة .
وشيئا ثالثا اسمه الثورة .

كازانتزاكس الاخوة الاعداء

سبتمبر سنة ١٩٦٠ :

غرقت فى الالوان واخذت استكشف الوادى مرة اخـــرى وكأنى اراه لاول مرة .
منذ عام مررت من هنا وذهبت بعيدا .. بعيدا فى اعماق الرمال الصفراء ، عام طويل طلى بلونين هما الاصفر والكاكى لون الصحراء وبدل العساكر والضباط واحيانا خضرة باهتة شاحبة اما احداثه فتمضى متنوعة حقا ولكنها داخل نمط واحد .. العنبر والمزرعة والبرش .

لكل هذا كان قلبى ينبض بحياة متدفقة وأنا اقف على رصيف محطة المواصلة مرة اخرى ومعى ضابط وثلاثة عســاكر فى انتظار القطار القادم من أسوان فى الطريق الى أسيوط .
كانت الشهور الماضية والتى أعقبت وقف التعـذيب البدنى والعمل الاجبارى ومجىء الزمـــــلاء من معتقل ابى زعبل قد اوضحت الى أى مدى كنا نعانى قبل ذلك .. فعندما أصبح

هناك وقت لالتقاط الانفاس اكتشفنا ان الكثيرين قــد بداوا يضيقون على امراض غريبة ، ربمـــا كانت كامنة طوال تلك الفترة الماضية ، وربمـــا كان الجســـد يستوعبها بأحساسه بالخطر الذى كان يهدده كل لحظة ، ولكنها بدات تظهر وتطفو على السطح حين بدات تقل المخاطر الخارجية التى يتعرض لهـــا الجســـد .

كنا كمن ظل ولعدة شهور يصارع الامواج العالية والقاسية لتظل رأسه تطل من فوق المياه ، وحينما خرج الى الشـــاطىء بدأ يحس بالانهاك والالم للجهد الخارق الذى بذله .

حقيقة اننى كنت معتاد قبل المعتقل على ذلك المغــص الذى ينتابنى أحيانا ليذيقنى مرارة الالم ليوم أو يومين ٠٠ ولكنــه كان قد اختفى تماما منذ الاعتقال حتى بدات اعتقد اننى قـــد شفيت منه ٠٠ وفجاة عاودنى المغص وبشكل عنيف .

ولقد احترت مثلما احتار الزملاء الاطباء فى تشخيص المرض وعبثا حاولنا ان نعالجه أو نسكته ببعض الادوية المتوافرة فى المعتقل فلقد كان يصمت لبضعة أيام ثم يعاود هجماته المـــريرة فأظل ليلة كاملة أتلوى من الالم والصراخ المكتوم .

ولم تكن حالتى هى الوحيدة ، فلقد كان هناك الكثير من الزملاء الذين بدأو يسقطون تحت هجمات امراض غريبـــــة كالاغماء المفاجىء وآلام العظام والالتهابات المختلفة مثـــل تورم الركبتين وتساقط الاسنان والهزل الشديد الناجم عن انيميا حادة .

وكان الزملاء الاطباء يعالجون من يستطيعون علاجـه ، ولكن بعض الحالات وخاصة تلك التى تحتاج الى اشعة أو تدخـــل جراحى فقد كانت تعرض على طبيب السجن ليقرر ترحيـــل صاحبها .

ومن الطبيعى فى الظروف الجديدة وبعد استشهاد شهدى عطية ووقف التعذيب أن توافق الادارة على ترحيل الحـــالات المرضية الشديدة اما الى مستشفى اسيوط أو الى القاهرة .

وعلى هذ الاساس رحلت الى أسيوط لاجراء اشعة عى الكلى ٠٠ وطوال الرحلة من الواحات الى اسيوط كنت اســــــتعيد

الكثير من حواسى التى نام بعضها أو تأقلم بعضها على مرئيات معينة ومحدودة ٠

كانت رؤية الاولاد الصغار والنساء والرجال العاديون دون زى رسمى وكذلك نسمات الوادى ومياه النيل اشياء عظيمة تعيد الخضرة الى القلب والنفس ٠

وفى القطار وبالرغم من اننى ومعى الحراس جلسنا فى ديوان مستقل الا اننى كنت امارس حرية الحركة فى الانتقال فى ردهات القطار وخاصة بعد ان اكتشفت أن الضابط المكلف بترحيلى كان زميلا لى فى المدرسة الابتدائية ، وقد تركنى امرح كالطفل فى هذا العالم الجديد بشرط واحد « هو أنه عند أى محطة يقف عليها القطار لابد وأن أعود الى الديوان لان هناك دائما عيون تنتظر وتراقب » ٠

وقد كان يجتاحنى احساس بالزهو حين يقف القطار فى أحد المحطات لارى صفا من المخبرين والعساكر يقفون على الرصيف فى انتظار الضيف الخطير الذى يقله القطار ويظل بعضهم يتطلع فى الدواوين حتى يقع بصره علينا فيطمئن قلبه ويومى للضابط برأسه تاكيدا للقيام بالواجب ٠

وقد علق الضابط المرافق ونحن نغادر محطة قنا ٠

« ابسط ياعم ٠٠ فى كل محطة تشريفات ٠٠ ولارئيس الوزراء » ٠

ولكنى لم اكن احفل بهذه الاحتفالات وكان كل مايهمنى أن يتحرك القطار لاستأنف تراشق الكرة مع أحد الاطفال - وهو ابن مهندس يعمل فى السد العالى كان عائدا مع امه الى القاهرة ٠

اربع أو خمس ساعات عشت كل دقيقة فيها أملأ عينى وصدرى فى كل حواسى بالحياة التى يعج بها القطار ولا اترك فرصة تفوتنى لكى ارفع رصيد الحياة المخضرة بداخلى بعد أن استنزف هذا الرصيد طوال عام ونصف فى السجون والمعتقلات وقبل أن تطوينى الزنازين مرة أخرى ٠

وحين وصلنا الى محطة اسيوط كان بانتظارى فى المحطة فرقة كاملة مدججة بالسلاح تسلمتنى من ضابط الترحيلة

ومضت بى وسط صفين من الناس الذين تجمعوا ليرقبوا هذا المنظر الغريب شاب يلبس بدلة عادية وفى يده قيد حديدى ويحمل شنطة سفر ووراءه وخلفه وحوله جيش من العساكر شاهرين اسلحتهم .

كنت أمضى مبتسما بل وأقول سعيد وانا اسمع التعليقات المختلفة من الصفوف .

دا معتقل .. شيوعى .. لأ اخوانجى .. والله ظلم .. ربنا معاه .. بكره يخرج دالسة صغير .

وأنطلق بنا البوكس من المحطة الى سجن اسيوط .. عالم أخر .

كنت قد تنقلت من القلعة الى الفيوم الى الواحات .. كما كنت قد جربت الحجز فى الاقسام .. ولكن سجن اسيوط كان أول تجربة لى فى سجن تقليدى .

ومن الواضح أن سجن أسيوط مثله مثل معظم سجون مصر قد شيد على النظام الانجليزى فهناك ثلاث أو اربع مبانى يضم كل مبنى اربعة أو خمسة ادوار ويشمل كل دور مابين اربعين الى خمسين زنزانة .

ومن اللحظة الاولى التى دخلت فيها بوابة السجن ادركت اننى أمام عالم أخر .. وجديد .. عالم يختلف عن المعتقلات التى عشت فيها .

وبالرغم من أن الزنازين كانت مغلقة فى هذا الوقت الا ان الضجة الهائلة داخل العنبر أوحت الى على الفور بأننى اعيش فى سوق أو فى مولد يمتزج فيه الاصوات الى الدرجة التى لاتستطيع ان تميز منها صوتا منفردا .. وقادنى شاويش العنبر الى الدور الثانى وفتح لى زنزانة جدرانها مكسوة بالفلين والكاوتش وقال لى وهو يحاول أن يستظرف معى «زنزانة لوكس علشان خاطرك .. » وعرفت بعد ذلك ان ادارة السجن وضعتنى فى الزنازين المخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام تنفيذا للاوامر بأن « يعزل المعتقل عن الاختلاط بالمساجين » .

وبدات رحلة الاستكشاف داخل السجن الغريب .

عشرون يوما قضيتها داخل سجن اســيوط خرجت فيها مرتين الى المستشفى ، مرة للكشف واجراء الاشعة ومـــرة لاستلام النتيجة ، ورفضت اجـــراء العملية فى الكلى بعد ان اكتشفوا بعض الرواسب القليلة وانهـــا يمكن ان تذوب او تخرج مع البول مع استخدام بعض الادوية دون الحاجة الى عملية ، الامـــر الثـــانى أننى عرفت انهم يضعون المريض فى غرفة مغلقة فى المستشفى بل ويضعون القيد فى رجله .

لكل هذا فضلت العلاج فى السجن عن اجراء العمليـــة فى المستشفى ، رغم اغراءات ممرضة حسناء حاولت اقناعى بأنها ستسهر على راحتى وتمسكت بقول يوسف (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ..) وفى سجن أسيوط تعرفت بنماذج ونوعيات جديدة .. بل واقول واكتسبت بعض الصـــداقات التى مازلت اعتز بها .. فبالرغم من الاوامر الخاصة بعـــدم اختلاطى بالمساجين وبالرغم من عنبر الاعدام الذى وضعت فيه الا أن ذلك لم يقيد حركتى داخل الســـجن وخاصـــة وأن السجاير كانت متوفرة لدى بعد ان ارسل لى والدى حـوالة بريدية بعشرة جنيهات على سجن اسيوط بناء على توصية من زميلى ضابط الترحيلة .

وبعد عدة ايام كنت اعيش « ملكا » فى سجن أسيوط .

الزنزانة مفتوحة طول النهار ولدى حرية الانتقال من عنبر لاخر ويجيئنى الجرائد بانتظام كما كان لى الحق فى استعارة الكتب من مكتبة السجن .. امارس كل ذلك بعلبة ســجاير وينجز يلهفها شاويش العنبر كل صباح للتغاضى عن التعليمات الخاصة بعزلى .

ولقد اكتشفت أن سجن أسيوط لايحوى مجرمين بالمعنى المعروف بالرغم من أن هناك من يمضى فترة عقوبة مؤبدة .. فغالبية الساجين هنا جاءوا اما للقتل من أجل الثأر وللشرف أو النزاع حول الرى .. قليلون هم الذين دخلوا السجن لسرقة

أو اختلاس .. وبمعنى أخر لقد وجدت داخل سجن أسيوط ابناء مصر الطيبين ومعظمهم من الفلاحين والمزارعين ما زالوا يحملون كل بصمات المصرى الطيب الذى يناضل مع الارض بحثا عن الزرع والقوت ويناضل دفاعا عن هذه الارض ضد أى مستغل يحاول ان يمنع عنه المياه او يسلبه ارضه ، ولازلت اذكر «امير» فلاح موشى الاصيل الذى قضى اكثر من عشرة اعوام فى السجن الخمسة الاولى فى ليمان طرة ثم جاء الى سجن اسيوط ليقضى بقية العقوبة (٢٥ سنة) ، ان كل جريمته أن احد البهوات من ابناء الاسر الاقطاعية قد حاول ان يسلبه الفدانين اللذين يملكهما واجباره ليبيعهما ، فما كان من « امير » الا ان حمل بندقيته ووقف على راس الغيط يقسم أن يطلق الرصاص على كل من يحاول ان يعتدى على ارضه ، وقد اطلق الرصاص فعلا على اثنين .. سعادة البيه ومهندس الرى اللذين لم يحفلا بتهديدات « الواد الفلاح » ومات احدهما على الفور واخرجوا اربع رصاصات من صدر الاخر .

-: واين الارض الان يا أمير .

- : بيزرعها ابنى .

ويكبرون ويتسلطون .

وهناك عبد الدايم .. دخل السجن وعمره ١٩ سنة .. كان يدرس فى الثانوية ولكن امه وضعت فى يده البندقية ذات ليلة وقالت له « لقد كبرت وأن تعرف ان اباك مات مقتولا وان الذى قتله .. » وحددت له اثنين ولم تترك له فرصة للتفكير بل واخذته من يده من نفس الليلة ليقتص لابيه ..

وهناك « عبد الكريم » الفلاح الفقير الذى يعمل بالاجر عند اصحاب الاطيان اكتشف يوما أن ابنته التى تعمل عند واحد من « الكبار » تنتحب طوال الليل وحينما سألها اعترفت له بأن « الكبير » اعتدى عليها وانها حامل ، وكان لابد وان يفعل شيئا وبحث عن « الكبير » فلما لم يجده اخذ يدق على بطن ابنته ليقتل « ابن الكبير » فى بطنها .. وقتل الاثنين معا الام والابن ، وحكايات كثيرة كلها تدورحول الثار والشرف أو الدفاع عن الارض .. يرويها أناس طيبون

مازالوا يحتفظون بالاصالة المصرية ولايمكن الا أن يكونوا ضحايا للمجتمع وعلاقته وقيمة ٠

ولقد وجدت نفسى اعيش معهم اغلب ساعات النهار اسمع حكايتهم واحاول أن احكى لهم من جانبى أن المجرم فى هذا كله هو التخلف والفقر الذى يفرضه علينا هـؤلاء الذين يصرون ويكبرون ويتسلطون ٠

وأصبحت جلسـة « العصر » فى زنزانـة أمير موعدا هاما أحرص عليه كما يحرص عليه عدد كبير من النزلاء تماما مثل جلسة المصطبة فى القرية نسمع الحكايات ونشرب الشـاى الاسود فى أكواب من البلاستيك ونتحدث فى أحوال القرية الليل ويصمت الراديو المزعج المنبعث من ميكروفون داخـل وحين تغلق الزنازين وتهدأ الاصوات فى الساعات الاولى من الليل ويصمت الراديو المزعج المنبعث على ميكروفون داخـل العنبر فلقد كنت اعكف على أحد الكتب التى أعثر عليها فى مكتبة السجن ، وكم كانت مفاجأة لى ان تكون مكتبة السجن عامرة بمؤلفات جيدة ٠٠

وفى تلك الليـالى قرأت غالبية روايات ديستوفسـكى « الابله » و « النائب العام » ومؤلفات طه حسين « شـجرة البؤس » و « المعذبون فى الارض » ومع ابى العلاء المعرى فى سجنة « وكتاب الاب عيروط » الفلاحون والحضارة الهلينيـة للدكتور غلاب ، بل وأعدت قراءة كل مسرحيات شـيكسبير وبرنارد شو ٠

أما فى الصباح وحينما يذهب الرجال للعمل فى المرافق المختلفة فى السجن ، سـواء فى المزرعـة أو المطبخ كانت جلستى المفضلة مع جارى العزيز فى الزنزانة المجـاورة ٠٠ وهو واحد من المحكوم عليهم بالاعدام ٠

وقد سمعت عنه الكثير قبل ان اراه ، فلقد حرص الجاويش ان يحكى لى فى ليلتى الاولى فى سجن اسيوط عن رجل الجبل الذى عاش لمدة عشرة اعـوام هو ورجاله فى جبـال اسيوط مرهوب الجانب يكفى ذكر اسمه لكى تقشعر له الابدان ٠

وحسب روايات الجاويش قتـل الرجل العشرات وظـل بعيدا عن ايدى السلطات رغم انه كان يتجول فى وضح النهار

في شوارع اسيوط نفسها ، وكم من حملة جردت ضـــــده وعادت فاشلة ، ولكنه في يوم من الايام ذهب الى قســـــم البوليس وسلم نفسه لانهم قبضوا على زوجته وابنته .
ومن الطبيعي ان اسعى وفى صـــباح اليوم التالى للتعرف على جارى العزيز .. وكانت مفاجأة لى فالذى اراه أمامى ورغم البدلة الحمراء التى يرتديها لايمكن بأى حال ان يكون مجرما خطيرا مثلما صوره الجاويش ، كان الضـــيف أو خليفة الخط شابا وسيما فى العقد الرابع من عمره أميل الى الطول تشع من وجهه وملامحه المحددة براءة طفولية وتلمع عيناه المصريتان بالامل الحزين ويكتسى وجهه بعض الشـــحوب الذى يمتزج بسمرة خفيفة .

وكان من السهل ان نتعارف ، بل ونصبح اصدقاء ، وهذا ماأحسســت به من اللقاء الثانى حينمـــا بدأ الضيف يحكى حياته ومغامراته .. وسمعت منه نفس القصـــة التى كنت اســـمعها فى القرية عن ادهم الشرقاوى والخط وغـيرهم من الخارجين على القانون .

فلاح مصرى تلقى العلم في المدارس الابتدائية ثم لبى نداء الحقل ليعمل مع ابيه لتوفير لقمة العيش للاسرة الكبيرة .
كان يحلم بأن يصبح مهندسا زراعيا ، ولكن ما باليد حيلة فالفدان الذى كان يملكه والده ويشقى عليه طوال العام لايمكن ان يحقق الحلم ، واكتفى الصغير بالعمل فى الحقل وبســـخط طبقى ينمو داخله وهو يرى عربة « الباشا » تمر على الحقـــل فى طريقها الى العزبة ، ويكون نصيبه « تراب كثيف » يغطى وجهه .. وكان المتمرد الصغير يقرأ الكتب والجرائد .. وربما هذا هو الفرق بينه وبين أبيه وأخواته وأهل قريته ، وعرف أنه واحد من ملايين الضحايا الذين يولدون وهناك حكم مسبق وأبدى بالشقاء .

ولكن سخط «الضيف» ظل محصورا فى اطار كلمات عنيفة كان يقولها على القهوة أو بين مجموعة من الاصدقاء يلعن فيها الباشا والمأمور .. الى أن جاء يوم كانت الارض عطشى . وكان المفروض أن نوبة الرى ستصيب الحوض فى ذلك اليوم ولكنه

فوجيء بأن المياه لم تفتح بناء على أمر ناظر العزبة تحت دعوى أن أراضى العزبة ما زالت فى حاجة الى يومين آخرين ٠
وذهب « الضيف » مع مجموعة من الفلاحين يرجون الناظر بأن يفتح المياه لحوضـهم الذى طال عليه الجفاف وبدأ الزرع يذبل ويجف ٠
ولكن الناظر الذى تعود أن يأمر فيطاع أنهى المناقشة بكلمات خشـنة ٠

ــ : روح ياواد انت وهو لسه قدامكم يومين
ــ : والزرع ياحضرة الناظر ٠٠ هيموت ٠
: يموت واللا يتهبت واحنا مالنا ٠

وصاح الضيف :

ــ : مالك ازاى ٠٠ دا قوت ناس ٠٠ احنا مش بنى آدمين
ــ : لا مش بنى آدمين ٠٠ انت هتداقر ياوله ٠٠ امش ٠٠

ومشى الضيف ٠ ولكن ليفتح بفأسه مجرى المياه للحوض ٠٠ وحينما لطمه الناظر على صدغه وانهال عليه ومعه بعض الخفراء بالضرب بالشوم ،، دافع عن نفسه بالفأس ٠٠ وقتل الناظر وفر الآخرون ٠

اما اهل القرية الذين شاهدوا الحادث فلقد أعجبوا بمافعله الضيف فلقد كان كـل منهم يتمنى أن يفعـل ذلك ، ولكنهم انسحبوا الى منازلهم يوصدون عليهم الابواب خوفا من بطش الباشا والبيه المأمور ٠٠ وترحموا على الضيف ٠

ولجأ الضيف الى الجبل ٠٠ وبدأ حياة الطريد ٠٠ وانضم اليه بعد ذلك بعض المتحمسين وأيضا بعض المنتفعين ٠
وطوال عشر سنوات كانت كلمة الضيف مسـموعة لدى الجميع ٠٠ كان يفرض على كل أصحاب العزب «أتاوات» ومن يرفض ينهب ماشيته ويحرق قصره وأحيانا يعثرون عليـه مخنوقا او مقتولا او مشنوقا ٠

ــ : ألم تندم
ــ : ولماذا أندم كنت دائما مع المظلوم ، أما اصحاب العزب فلقد رأينا منهم الويل ٠٠ ولقد قتلت بيدى اثنين من جماعتى لانهم تعرضوا لفلاح فقير وأخذوا منه جاموسته ٠

— : لماذا لم تترك الامر للقانون من البداية .
— : أى قانون .. ان القانون دائما مع الاغنياء ولكن الله دائما مع الفقراء لقد كنت أطبق عدالة السماء .
وحاولت أن أقنع «الضيف» بأن «تمرده» لن يفيد فالقضية ليست قضية البعض من أصحاب العزب ولايمكن أن تحل بالقتل والارهاب .. ولكن «المتمرد الصغير» لم يكن على استعداد لأن يفهم البعد الواسع لمشكلته ومشكلة أهل قريته .
كنت أقول له : — ان الارض المملحة هى التى تنبت الشوك .. ولابد من اصلاح الارض .
وكان يقول : لقد عملت على نزع الشوك على قدر ما أستطيع .

كان الحوار يجرى بيننا عبر باب الزنزانة الحديدى والذى صمم بشكل خاص لكى يظل «الضيف» فى كل تحركاته مكشوفا لحارسه .
وفى الليلة السابقة على ترحيلى من سجن أسيوط .جلست بجوار زنزانته أكثر من ساعتين أودع صديقا عزيزا .. لم يعرف كيف يثور فتمرد بطريقته الخاصة .
كنت قد عرفت أن التصديق على الحكم قد وصل الى السجن وأنهم بصدد الاعداد لشنقه فى صباح الغد ..
ولكن الضيف الذى لم يكن يعلم ، كان متعلقا بأمل أن المفتى لن يصدق على الحكم وان مذكراته لرئيس الجمهورية ستقبل بل انه فى ذلك اليوم كان أكثر مرحا وأكثر اشراقا وهو يؤكد لى انه رأى حلما جميلا وعاش وسط أولاده .. فى الحلم ...
وسألنى الضيف وهو يودعنى بحرارة :
— : متى سيفرج عنك .. لابد أن نلتقى فى الخارج
قلت :
— : لاأعرف .. فليس لسجنى فترة محدودة .. قد يكون غدا وقد يكون بعد عشر سنوات ..
— : ياه .. أنا ظروفى أحسن .. يمكن اطلع قبلك ...
ولقد خرج هو قبلى فعلا ففى السادسة صباحا كانوا يقتادونه الى غرفة الاعدام فى السجن ، وبعدها ببضعة دقائق كانوا يقتادوننى خارج سجن أسيوط فى الطريق الى الواحات .

ايها الانســان البـائس ،
تسـتطيع أن ترفع الجبـال
وتصنع المعجزات ٠٠ ولكنك
تمرغ نفسك في الوحل والخمول
٠٠ الله في داخلك تحمله دون
أن تدرك ٠٠
اما نحـن الذين نعـرفه
فسنشمر عن سواعدنا ونرفـع
اصواتنا عسى أن ننجح

الاب بانايوس ـ الاخوة الاعداء

يناير سنة ١٩٦١

ربما للمرة الاولى منذ سنتين تبدأ الســاعات الاولى للعــام الجديد بضحكات الآمال الصافية ٠٠

فى العام الماضى احتفلنا بمثل هذا اليوم بغزوة ساخنة قادها المأمور واشترك فيها العساكر بشومهم وكرابيجهم وشتائمهم وفى العام الذى سبقه كان زائر الفجر ورجاله يجمعنا فى عرباته السوداء وينزعنا من وسط الاحضان الدافئة للام والأخت والزوجة والحبيبة ٠٠

وبالرغم من أن الكثيرين وعيونهم تغرورق بالدموع الضاحكة كانوا يضعون أيديهم على قلوبهم مخـافة أن تتـكرر العـادة ويتمتمون : « اللهم اجعله خير » ٠٠ الا أن الليلة مرت بسلام فعـلا ٠٠

ليس هذا فقط بل وشـــهدت احتفالات عديدة ومتنوعـة استطاعت أن تكسر هذه العزلة والصحراء وتنتقل بالكثيرين منا الى عالم الحياة المتجدد الصاخب

ومنذ أن عدت من سجن أسيوط كان الجو قد تغير تماما فى الواحات ٠٠ ليس فقط لان التعذيب قـد أوقف كما أوقف

العمل الاجبارى . ولا لاننا تجمعنا كلنا أخيرا فى مكان واحد بعد اغلاق أوردى أبى زغبل المشئوم .. وليس فقط لبعض الظروف النسبية الأفضل التى بدأنا نعيش فيها سواء بالنسبة للمعاملة او فتح الزنازين ليلا .. ولكن ثمة رياح تغيير كانت تجتاح الصدور نفسها وتعطينا المزيد من الثقة بالنفس والمزيد من الاحساس بأنفراج الازمة وقرب انتهائها بيننا وبين السلطة .. وبالتالى الاحساس بأننا على أعتاب الخروج الى الحياة الواسعة مرة أخرى .

كانت الصحف وأيضا الاذاعات المتعددة التى نستمع اليها من خلال الترانزستور تؤكد انتهاء أو على الاقل التخفيف بدرجة كبيرة من حدة العداء والهجمات المتبادلة بين القوى الوطنية العربية . وخاصة بعد أن بدأت الرجعية العربية تتحرك ومعها الاستعمار والصهيونية فى محاولة لجنى ثمار المعركة التى استغلوها بين القوى الوطنية العربية .. وكان الموقف الذى أخذته القيادة المصرية فى مواجهة المؤامرة الاستعمارية ازاء مقاطعة الباخرة المصرية كليوباترا موقفا وطنيا حازما ، كذلك فان بعض الاجراءات الداخلية التى اتخذت مثل تأميم بنك مصر وتنظم ملكية الصحف والحديث عن التغيرات والحد من سيطرة رأس المال على الحكم .. كانت كلها بوادر مشجعة توحى بأن الرئيس عبدالناصر قد بدأ يستوعب الدرس أو على الاقل قد بدأ يدرك لمن يوجه مدافعه الرئيسية .

كانت الانفراجة فى الداخل والاخبار الواردة من الخارج تضبغ الجو كله بلون متفائل ، وراهن البعض على اننا سنخرج فى فترة لاتتعدى شهر واحد فى حين ان البعض الآخر الاكثر تشاؤما تصوروا ان المسألة تحتاج الى عدة شهور أخرى . . وحينما استدعى حوالى ٧٥ زميلا الى الادارة وأبلغوا بأن عليهم أن يرتبوا انفسهم للرحيل فى الغد الى الفيوم تمهيدا للافراج عنهم لم يعد هناك شك فى أن الطريق الى تصفية المعتقل قد فتح . .

وحتى هؤلاء الذين لم يروا فى هذا الاجراء سوى محاولة

لخلق جو نفسى مصطنع اضطروا لأن يسلموا بأن هناك شيئا جديدا وان كانوا قد تحفظوا بأن علينا أن ننتظر لنرى ٠
وقد انتظرنا شهرين ٠٠
كانت المجموعة التى اختيرت محيرة وغريبة ، حقيقة كان بينهم البعض من هؤلاء الذين لم يتحملوا قسوة الظروف الماضية لسبب أو لآخر فارسلوا عدة بيانات وتقارير « يستعطفون فيها السلطات » ويعلنون استعدادهم للكف عن اى عمل سياسى » ٠

ولكن كان بينهم أيضا عدد من الشخصيات القوية والمتوازنة والتى واجهت ظروف التعذيب بشجاعة وببسالة ولم تخفض رأسها من أمثال الدكتور فوزى منصور والدكتور فايق فريد ونبيل زكى وأمير اسكندر وحوده سعد الديب ٠
وعدد آخر من المثقفين والعمال الذين كانت لهم مواقفهم البطلة وعوفوا باعتزازهم بانفسهم وبافكارهم ولذلك كان من الصعب على الانسان ان يتصور انها دفعه للضعفاء والمنهارين كما كان من الصعب أيضا أن اقتنع بأن الامر بعيد عن لعبة ما؟٠
وبالرغم من اننى فقدت فى هذه الترحيلة عددا لابأس به من الاصدقاء بل واثنين من اكثر المقربين الى قلبى الا اننى كنت موقنا انه فى اللحظة التى سيفرج فيها عنهم فسيكون ذلك انهاء للمعتقل كله ٠٠
وعشنا فى الواحات شهرين اعتبرهما من أقسى الشهور التى مرت بنا جميعا ٠
الكل يسال عن أخبار الفيوم ٠٠ وماذا حدث للرفاق هناك؟ ٠٠هل أفرج عنهم حقا ٠٠أم انهم مازالوا رهينة المباحثات العامة هناك تمارس معهم أساليب مختلفة للضغط عليهم ٠ ٠
وتتسرب الينا بعض المعلومات ٠٠ بعضها حقيقى وبعضها كان مدسوسا ٠
وفى يوم من الايام أكد المسؤلون فى سجن الواحات ان جميع الزملاء الذين رحلوا الى الفيوم قد افرج عنهم ٠٠ وعمت الفرحة جميع المعتقلين ٠٠ وبعد ذلك بأسبوع تأتى رسالة من الخارج لتنفى أن أحدا قد افرج عنه ولتؤكد ان المجموعة التى وصلت

الفيوم مازالت في المعتقل .. وتسرى بعض الاشاعات بأنهم يتعرضون هناك لنوع من التعذيب شبيه بذلك الذى تعرضنا له فى الواحات وأبى زعبل منذ فترة .

واشاعة اخرى بأنهم قد نقلوا الى معتقل القلعة وانهم يكتبون اقرارات بعدم الاشتغال بالسياسة وباستنكار أفكارهم ومعتقداتهم .

ثم تأتى رسالة أخرى من الخارج لتؤكد ان زميلا آخر قد استشهد فى الفيوم هو عبد القادر مفتاح المدرس ببنى سويف وهم يرغمونه على فك اضرابه عن الطعام .

موجات غريبة ومتناقضة ومتلاحقة أيضا من الاخبار والاشاعات تعصف بنا وبأفكارنا يمينا ويسارا .. فنعيش يوما يملؤنا التفاؤل ونعيش أياما نمضغ الحزن والحيرة .

ولأول مرة تتوه منا الحقيقة ونعيش فى جو ينعدم فيه التوازن بل ولاأكون مبالغا اذا قلت ان التعذيب النفسى والمعنوى لتلك الفترة كان أشد خطرا واكثر قسوة منه فى مرحلة سابقة حين كان التعذيب ماديا ملموسا تستطيع أن تواجهه وتحدد معه علاقة واضحة كانت دائما هى الرفض والاصرار .

ولكن حمامات «الساونا» الفكرية التى وجدنا أنفسنا غرقى فيها ننتقل من ماء ساخن يقارب الغليان الى ماء بارد يقارب درجة التجمد كادت أن تعصف بتماسكنا .

افراج أو مساومة او تعذيب .. أم ماذا ؟

وانعكس ذلك الموقف بوضوح فى طرقات العنبر ليلا .

فحتى الواحدة بعد منتصف الليل ، قليلون الذين كانوا ينامون أما الغالبية فهى اما راقدة فوق الابراش تسرح مع أحلام فتجدده عن قرب الافراج ، أو مجموعات تجلس فى بعض أركان الطرقة تتسامر وتحكى .. أيضا حول الافراج .. أما عم نمر حسنين وهو عامل فى أحد المطاحن فى الاسكندرية يبلغ حوالى الخمسين من عمره فقد كان لايكف طوال الليل عن ذرع الطرقة فى خطوات وئيدة واضعا يده خلف ظهره وفجأة يسألنى حين يلمحنى أمام الغرفة :

ــ : الساعة كام ..

ـ : اثنين بعد نص الليل
ـ : بالضبط
ـ : اثنين وربع

أكثر من أربع ليالى متكررة يسألنى عم نمر هـذا السؤال وأجيبه بنفس الاجابة الى أن انفجرت فيه ليلة

ـ : جرى ايه ياعم نمر ·· ياعنى ايه بالضـبط ، القطـر مستنى وخايف يفوتك ·

أكثر من عامين ونحن نعيش فى زنازين وغرف مغلقة تضيع فيها معنى الايام بل والشهور والسنوات فما بالك عن الساعة ·· بالضبط ··

وأحس الرجل العجوز بما يجول فى خاطـرى فاقترب منى مبتسـما :

ـ : معلهش يابنى ·· دى يمكن أول حبسـه ليك لـكنها الثالثة بالنسبة لى ، ولعلك لاتعرف تلك الايام التى تسـبق الافراج ·· انها تساوى فترة الحبس كلها ·

ـ : من قال انه سيفرج عنا ·

ـ : أعرف أنك من حزب المتشائمين ·· ولكن كل الاخبار تؤكد الافراج ··

هكذا سيطرت الفكرة على عقلية ونفسية الجميـع · · أما المتشائمين أو المستمتعين بالمعتقل على حسب تعبير بعضهم وقد كنت واحدا منهم فقد كنا نبنى تحفظاتنا على بعض الظـواهر السياسية ، وربما كنا نتحصن بذلك التشـــاؤم خـوفا من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تسببها «روح الافـراج» اذا ماأسفر الموقف عن وجه آخر ·

حتى « عاشور » زميل الجامعة ونزيل عنبر الاخوان كان هو الآخر ممن يؤكدون اننا سيفرج عنا وشيكا مؤكدا وجهة نظر الاخوان فى أن عبد الناصر «شيوعى» واذا كان قد اختلف معنا فذلك ذرا للرماد فى العين ولفترة قصيرة ؟!

ودخلت فى رهان مع عاشور ··

وفى يوم من أيام يناير الباردة عاد الزملاء من الفيوم ·· عادوا ولكن ليس كلهم فلقد خلفوا وراءهم فى الفيوم حوالى ٣٣

ممن استسلموا تماما لكل ماطلب منهم مقابل الافراج ٠

وحين تجمعنا حول الزملاء العائدين نسمع قصصهم وما تعرضوا له في الفيوم تأكدت مثلما تأكد الكثيرون اننا بازاء حملة تعذيب أخرى ومن نوع آخر ٠

تعذيب لا يستخدم العصا والبندقية والكرباج والعمل الاجبارى ولكنه تعذيب معنوى ونفسى يحاول ان يحطم الشخص من الداخل ٠٠

حينما ذهب الزملاء الى الفيوم وجدوا جوا آخر وظروفا تختلف تماما عن تلك الظروف التي عشنا فيها فى نفس المعتقل منذ عام ونصف ٠٠ سرائر نظيفة معدة ٠ ٠ أبواب مفتوحة طول النهار التغذية جيدة كل وسائل الراحة متوفرة الراديو والجرائد والتعامل مع الكانتين بالاضافة الى زيارة الأهل ٠٠

وبعد أسبوع بدأ «الشغل» ٠٠ وانتقل المصيلحى ومعه أركان حربه الى المعتقل ٠٠ وأخذوا يستدعون كل واحد على انفراد ٠٠ لماذا تبقى فى المعتقل ٠٠ لماذا لاتخرج ٠٠ يمكنك أن تخرج الى اهلك فورا .. فقط مطلوب منك ورقة صغيرة أعترف بأنك كنت مخطئا فى أفكارك وتعهد بأنك لن تعمل بالسياسة بعد ذلك ٠٠ ليس هناك أكثر من ذلك ٠٠

والراديو يذيع كل يوم ، بل واسطوانات خاصة تبث أغاني الشوق والضعف ٠٠ زيارات مفاجئة من الابن او الأب أو الزوجة او الخطيبة ٠٠ والحياة مخضرة فى كل مكان ٠٠ بعد سنوات الصحراء والعذاب والتعذيب ٠٠ والباب المفتوح ٠٠ مجرد اعتراف وتعهد ٠

المسالة تستحق ٠٠ الحرية مقابل ورقة ٠٠ هكذا رأى البعض ٠٠ ولكن آخرين رأوا المسألة كلها لاتستحق ٠٠ بل رأوا فيما يعرض عليهم اذلالا وامتهانا لانسانيتهم ٠٠ فالحرية التى يدعونهم اليها بورقة الاعتراف والتعهد لايمكن أن تكون حرية ولكنها تحطيم للانسان واهدارا لآدميته ٠٠ ، لأبسط ما يميزه ٠

كانسان ٠٠ فكره ٠٠ عقله ٠

قال أمير اسكندر للمصيلحى :

— : أنا مصرى .. وكاتب سياسى .. رغما عنـــك وعما تعرضه ..

قال الدكتور فوزى منصور :

— : كيف تطلب منى هـذا الطلب الغريب .. ومن تكون أنت حتى تطلب من أستاذ الاقتصاد السياسى فى الجامعـــة المصرية أن يكتب هذا الهراء .

وقال نبيل زكى :

— : الموت فى الواحات أفضل ألف مرة من الحرية الملوثة التى تعرضها

وقال رمضان شامبوليه (وهو ميكانيكى سيارات من الفيوم)

— : ياعم يا حرية بحق وحقيق يا بلاش .. يفتح الله ..

حوالى أربعون زميلا من مجموع الدفعة (٧٥) .. سخروا من أساتذة غسيل المخ .

عزلوهم فى عنبر خاص وسحبوا منهم كل الامتيازات التى أغدقت عـــلى الآخرين واستخدموا معهم أســاليب الترهيب والترغيب .. جاءوا للبعض بزوجته تبتهل اليه بأن يسمـــع الكلام ليخرج لها ولأولاده .

وجاءوا للبعض بخطابات من زوجة أو خطيبة تهدد بطلب الطلاق أو بفسخ الخطبة .

وجاءوا بأولاد صغار ليبكوا أمام أبيهم ويشكون مر العيش واحتياجهم اليه .

ولكن المدافعين عن الحرية الحقيقية .. حرية الانسان ان يفكر ويبدع ويقول رأيه . صمدوا فى مواجهة كل الهجمات الخبيثة التى قام بها سماسرة «حرية الخوف والانهيار الانسانى»

وبقدر ماكانت عودة الزملاء صدمة لكثيرين ممن تصـــوروا أن باب المعتقل قد فتح وأنها أيام لكى يكونوا وسط الاهـــل والاحباب وهيئوا أنفسهم لذلك بقدر ماكانت قصص البطولة والصمود التى يحكيها الزملاء العائدون توحى بالفخر والعزة وتعيد اصلاح الكثير مما أفسدته روح الافراج الكاذبة داخل النفوس .

وانفعل معين بسيسو الشاعر الفلسطيني والقى قصيدة اعتبرها من اهم قصائده وأكثرها صدقا ..
اكتب .
واركع للورقة .
وأغرس قلمك فى عينى طفلك
واكتب ماشاء لك السجان بأن تكتب
ومضى معين بكلماته الشعرية كالسياط الحقيقية يلهب ظهر هؤلاء الذين يكتبون ماشاء لهم السجان بأن يكتبوا .
اما محسن الخياط فانفعل هو الآخر بغنوه حلوه
أنا عارف طريقى فين
وأروح له منين ..
أنا شايفه قصاد العين
بدايته شروق وآخره شروق
مفيش فى الدنيا دى مخلوق
يوقفنى فى طريقى يوم وأنا سارى
حاخلى الريح جناح ليه
وأنا زاحف بأعصارى .. ومهما الحر هاج بيه

هايسجد يوم لتيارى
ومهما هدوس الشوك برجليه .. ديجرحنى
واخلى الجرح يسقينى
ألم يفضل مصحينى
يفكرنى

بطول حرمانى وشجونى
وحرمان اللى عاش فى جوع
وآه ودمـــوع ..

وزملاء آخرون انفعلوا باللحظة والقوا بقصائد وكلمات .
وتحولت عودة الزملاء الى مهرجان امتلأ بالحمـــاس والانفعال والثقة .

وتركت العنبر يمتلىء بالتصفيق وبالشعر والثقة ، وخرجت وحدى أمشى بجوار السور ، ودموع غريبة تتجمع بهدوء فى عينى . ربما انفعالا بالشعر وبالموقف ، وربما تنفيسا عـن

احلام خفية كنت اسمح لها بأن تعبث بداخلى انا احيـانا .
وناداني «عاشور» قرب المطبخ
ــ : مالك .. دانت سرحان قوى .. على اى حـــال كسبت الرهان ياعم ..
طلع عندك بعد نظر .
وابتسمت . ابتسامة تساوى الدموع التى كانت تتجمع فى عينى ..
حقيقة كسبت الرهـــان ، ولكن كنت أود من اعماقى أن أخسر هذا الرهان .. بالذات .

اذا كنت تريد ان تكـــون شهيدا ، فما عليك الا انتنظر داخل نفسك ٠٠ ثم قل ماتراه يصدق ٠٠ وتذكر ٠ أن المسيح يقتل نفسه ولكنهم قتلوه ٠ ٠

بيتر بروك – مسرحية ٠ يو ٠ اس ٠

يوليو سنة ١٩٦١

حينما يكون الجسد هو الذى يتهدده الخطر ، تنحصر المعاناه فى القدره على تحمل بعض الآثار والآلام الجسدية ٠

ولكن اذا كان المستهدف روحك وعقلك كانسان هنا يكون الخطر فادحا وتكون المعاناه قاسية ومريرة ٠

ولقد مررنا بفترة المعاناه والآم الجسدية وســـقط ضحايا نتيجة الضرب والتعذيب ، ولكنهم سقطوا كآدميين وكمفكرين وكمناضلين ولكن التعذيب الذى بدأ مع ترحيلة الفيوم كان تعذيبا أشد خطرا وأقسى للنفس والعقل ٠٠ تعذيب يطلـق عليك وحشا داخليا يعربد ويجول مع كل اندفاعة فى جسدك ٠

فمنذ عودة الزملاء من رحلة «التعذيب النفسى» ومنذ سقوط عدد آخر من الزملاء فى نفس الرحلة تفتحت شهية الاجهـزة للاستمرار فى هذا الاسلوب وتعميقه ٠

أكتب ٠٠ واخرج ٠٠ مفتاح سجنك فى يدك ٠ ماعليـك الا أن تكتب «عريضة» الى المسئولين تلعن فيها نفسك وأفكارك السابقة ولا بأس من ان تلعن زملاءك ٠٠ وعلى الفور ترحل الى الفيوم حيث ستبقى فترة تتراوح بين أسبوعين الى شهر ٠٠٠ لتكتب مرة أخرى تلعن فيها نفسك وأفكارك السابقة بتفاصيل أكثر ، ثم تنتقل بعد ذلك الى القلعة او السجن الحربى حيث تتلقى بعض المحاضرات من أساتذة دربوا جيدا على عملية غسيل المخ ٠

فاذا ماكنت مطيعا ومستوعبا لكل مايطلب منك فتح لك الباب على مصراعيه لتخرج ·

هذه اللعبة التى درست جيدا من أجهزة متخصصة تلقت التدريب عليها في الولايات المتحدة الامريكية بدأت تمارس معنا بعنف ·· وداخل المعتقل ·

وجاء عدد من الضباط المتخصصين ليقيموا معنا ليل نهار يمارسون فيها عملية «تحويل المتمرد والثائر الى خرقة بالية فاقدة الثقة فى النفس وفى كل شيء»

خطابات موجهة تصل من الاهل ·· كلها تطلب من الابن أو الأب الخروج «وسماع الكلام»

زوجات يطلبن الطلاق ··وأخريات يكتبن يشرحن لازواجهن كيف ضاقت في وجههم الحياة حتى اصبحوا على أبواب الانحراف هكذا ·

وطفلة ترسل لوالدها « اخرج من أجلى ومن أجل ماما ·· قالوا لى انك لاتريد ان تخرج لانك تكرهنا ·· أنا اكرهك »

ووالد مسن يكتب لابنه :ـ

لماذا لا تريد أن تخرج ·· اننى على مشارف الموت وكم كنت أود أن أراك قبل أن أموت ·· اخرج من اجلى كفاك عنادا · »

وما زلت اذكر هنداوى الصادق العامل بشبرا الخيمة ،وكم كان مناضلا صلبا ومصريا تعتز به الطبقة العاملة المصرية ·· تعرض مرات عديدة للضرب وللجلد أيام التعذيب البدنى ولكن الامل والاصرار لم ينطفىء فى عينيه بل كان يخرج من كل «علقة» وهو يقول ساخرا :

زعلانين ليه ·· ولا يهمكوا ·· دانا زى القطط بسبع أرواح ·· «أقبل فجأة بدأ ينطوى على نفسه ويخرج كثيرا ليجلس وحيدا بجوار السور ويظل هناك لساعات طويلة ·· لقد أصاب السهم كعب اخيل والتقيت به يوما فى عزلته :

ـ : مالك ياهنداوى ··

ـ : ولا حاجة ··

ـ : احنا صحاب ·· فيه حاجات كثيرة ·· قوللى

وبكى هنداوى ·· بكى كطفل صغير وهو يرمى لى بخطاب

وصله من زوجته ٠٠ كان الخطاب كما هو واضح كتبه خبير التعذيب النفسى ٠

«ابنتك هدى أصيبت بالتهاب رئوى ، اذهب بها كل يوم الى القصر العينى، بعت كل شيء ولم يعد عندى الا أن أبيع نفسى ٠٠ ولا بد ان أنقذ هدى ٠٠ أما انت فالله يسامحك ـ؟؟

ويومها احتضنت هنداوى وأخذت أخفف عنه وأؤكد له ان زوجته تبالغ فى الكلام بناء على توجيهات الاجهزة وأن ابنته بخير وان زوجته لن تعدم بوسيلة شريفة لكسب العيش ٠أما هم فلن يسامحهم الله ٠

ولكن مثال هنداوى أخذ يتكرر وبصور أخرى ٠٠ أحدهم صرخ فى وجهى وأنا أخفف عنه

ـ : يدك فى الماء البارد ٠٠ فأنت لست بأب ولا تعرف ٠

وآخر قال ساخرا :

ـ : لماذا نعاند وأهلنا فى الخارج يعانون ٠٠ من أجل الفقراء والمظلومين ٠٠ طظ ٠٠ لأحد يحس بنا ٠ ٠ أولادى يجوعون تلك هى القضية الآن ٠٠ لابد ان أخرج ٠

ـ : قلت له فى هدوء

ـ : تستطيع ان تخرج ٠٠

قال لى فى انفعال :

ـ : كيف ٠٠ كيف ٠ ان اكتب مايريدونه ٠

ـ : ألست تريد ان تخرج ٠

ـ : ولكن أريد ان أخرج مواطنا شريفا ٠٠ وليس خرقة بالية .

هكذا كانت معركة قاسية ضارية تدور فى اعماق كل واحد منا وان تفاوتت مظاهرها وفقا لحجم المشكلة الخاصة التى يواجهها كل واحد ووفقا لمدى نضج ووعى الانسان بمثل هذه الاساليب ٠

واحساس ذاتى بالدفاع عن النفس ، وبادراك لابعاد معركة « التصفية السلمية » التى بدأت تشن على المعتقلين بعنف ، تفجرت الطاقات والابداعات الفنية والفكرية ٠

فأنشئت جامعة شعبية تدرس جميع ألوان العلوم والفنون

وكانت هيئة التدريس تتكون من مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية مثل الدكتور فؤاد مرسى أستـــاذ القانون بحقـــوق الاسكندرية والدكتور اسماعيل صبرى عبدالله أستاذالاقتصاد بحقوق القاهرة والدكتور فايق فريد الاستاذ بهندسةالقاهرة والدكتور عبد العظيم انيس الاستاذ بكلية العلوم والدكتـــور عبد المنعم عيد المدرس بكلية الطب ـ القصر العينى والدكتور حسين كمال الدين الاستاذ بعلوم الاسكندرية والدكتورفوزى منصـــور الاســـتاذ بكلية التجارة وعـــــدد آخـــر مـــــن بتصميم بناء مسرح رومانى فى حوش السجن واستمر العمل اســـاتذة الجامعـــات والمختصـــــين فى الفلســـفة والفـــن والحق بهذه الجامعة عدد كبير من الزملاء وخاصة العمال والفلاحين كما أقيمت المعارض الفنية للنحت والرسم واشترك فيها فنانون مثل حسن فؤاد وداود عزيز ووليم الملكوصبحى الشارونى وسعد عارف .

وعقدت المسابقات والندوات حول القصة والشعر اشترك فيها معين بسيسو ومحمد صدقى ومحمود امين العالم ومحسن الخياط ورؤوف نظمى وشوقى عبد الحـكيم وأمير اسـكندر . وابراهيم عبد الحليم وزكى مراد وصلاح حافظ وفتحى خليل وصنع الله ابراهيم وكمال القلش .

كما بدأ نشاط مسرحى واسع وقام المهندس فوزى حبشى بتصميم بناء مسرح رومانى فى حوش السجن وأستمر العمل فيه لأكثر من شـهرين وجاء فى حد ذاته تحفـة فنية رائعة وافتتح بمسرحية جديدة لافريد فرج هى «حلاق بغداد» « ثم « الخبز » لصلاح حافظ ثم توالت عليها العروض المسرحية التى كانت كلها تأليفا وتمثيلا واخراجا من المعتقلين فقدم لشوقى عبد الحكيم مسرحية العتمه وقدمت مسرحيتـين «الكوبرى » و« الغائب » ومسرحيات أخرى للويس بقطر ومحمود أمين العالم . . كما تقدم على المسرح عدد آخر من المسرحيات التى كانت تعد فى الخارج مثل « عيلة الدوغرى » لنعمان عاشور والسبنسه لسعد وهبه وبعض مسرحيات شكسبير وبرنارد شو ونجيب الريحانى .

كما زاد الاهتمام باثراء المكتبة .. وقام كثير من الزملاء باستجلاب كتب من مكتبتهم الخاصة حتى وصل مجموع الكتب عندنا الى حوالى ١٠ آلاف كتاب كلها من النوع الجيد وتضم أحسن وأحدث المؤلفات فى الثقافة والفلسفة والقصة والمسرح والتربية وعلم النفس والاقتصاد .

وهكذا ماج المعتقل بحركة ثقافية وفكرية واسعة فى مقابل حملات التصفية التى كانت تواجه ضدنا

كان سلاحنا فى مواجهة عمليات «للتخريب النفسى» هو مزيد من الثقافة والفكر ومزيد من الوعى والادراك بواقع بلدنا والعالم الذى نعيش فيه .

الفكر .. سلاح الانسان الجديد انسان المستقبل فى مواجهة كل أساليب التعسف والاضطهاد وامتهان الانسان سواء كان امتهانا جسديا أم تعسفيا .

وكان سباقا شاقا ومجهدا .

على الطرف الآخر أساتذة لايقيمون وزنا للانسان كل مادرسوه وعرفوه هى التقاط نقاط الضعف وتضحيتها بكل الوسائل والامكانيات المتاحة يمارسون خبراتهم فى مجموعة من المعتقلين المعزولين عن الحياة فى صحراء قاحلة .

وآخرون يؤمنون بالانسان ،بطاقته بقدراته بغدمشرق تذوب فيه الفوارق الطبقية فتحاصر فيه نقاط الضعف وتطور فيه كل ملكات الانسان من أجل أن يعطى ويبتكر ويبدع لخيره ولخير شعبه ..

ولا سلاح فى يدهم الا ذلك الايمان بالغد وفى اتون هذه المعركة ، الهادئة من السطح المستعرة فى الاعماق يسقط بعض الضحايا .

فقد ثلاثة من الزملاء عقولهم فى المعركة بعد أن اختلطت عليهم الامور وتجاذبتهم الرغبة فى الخروج الى الاهل والرغبة أيضا فى الاحتفاظ بآدميتهم فتاهت عقولهم ..

وزملاء آخرون ، وثقوا مثلما وثق الأب ياناريوس فى رواية الاخوة الاعداء للكاتب اليونانى كازانتزاكس يعرفون أين الحق والخير والعدالة ولكن ضعفهم يجعلهم يقفون على قمة الجبل الفاصل بين رجال الكابتن الاحمر وجيوش الكومندان الابيض

.. لايجدون مخرجا من كل هذا الا بمزيد من اللجوء الى الله تماما مثلما كان يلجأ الأب يانا روس الى المسيح والعذراء ليبكى الليالى الطوال فى المذبح وتحت الايقونة المقدسة ،يجب أن أحصل على جواب .. أريد جوابا واسم الله .. آه لو كان الانسان يستطيع أن يرقص على الجـو الملتهب ، آه لو كان يستطيع أن يسير فى هذا العالم دون أن يسقط فى اليأس والخوف واللعنة .. ولكن ياالهى ماأقسى مايحتمل الانسان من الصراع والألم قبل ان يبلغ ذلك ..

وكان رزق مكاري وهو واحد من الزملاء الذين تاهتعقولهم وهم فى خضم معركة الذات القاسية ، يعذب كل منا ونحن نراه يمضى فى فناء السجن أو فى طرقات العنبر يردد منـولوجا طويلا وبصوت عال أحيانا وينخفض أحيانا أخرى وكأنه هملت حينما لم يكن قادرا على الحسم بعد .

— : أخرج أو لاأخرج .. عملت ايه ولا حاجة ، كل الخير لكل الناس .. كفاية قتل كفاية ضرب .. مراتى أولادى .. أنا جاى .. لا لا .. استنوا اصبروا .. ها . ها . يحيا الوفد . يحيا كل حاجة ويسقط السمك فى الماء . ها . ها .. ولقد طلبنا بأن يذهب رزق والزميلان الى المستشفى او يفرج عنهم ولكنهم رفضوا . وكان مغزى الرفض واضحا هو أن يظل رزق والزميلين الآخرين بيننا كنوع من الاشباح المعذبة تلعب دور الساحرات والمتنبآت فى المسرحيات الاغريقية لكى يظل شبح المأساة معلقا أمامنا وكأنه قدر لا مفر منه .

وجاء حسن المصيلحى نفسه ومعه أركان حـربه الى أرض الواحات ولأول مرة ليشن معركة مباشرة (وليضع شعارا) : « اما الموت فى الصحراء» «واما الجنون» واما كتابه مايملى عليك» وارتكب قائد التصفية بذلك خطيئة عمره ، فلقد كان مجرد وجوده فى الواحات حافزا لاطلاق طاقات هائلة من القوة والصلابة فى اتجاه معاكس تماما لاغراضه .

لقد حسب المصيلحى وفقا للتقارير التى وصلته عن حالة بعض الزملاء وصمت بعضهم وفقدان البعض للعقل ، ان البذرة قد تآكلت من الداخل وانها نزهة المنتصر الذى سيقلع البذور بضربة فأس واحدة .

وحينما بدأ يستدعى فى الليل ، وبعدما تغلق العنابر ، مجموعات من الزملاء يساومها على الافراج بشروطه كان ماسمعه من هؤلاء الزملاء معاكساتماما لكل أحلامه وتصوراته .

كلهم رفضوا عروضه ومزقوا الورق الذى قدمه لهم ورموه فى وجهه ، والقوا فى وجهه أيضا بكلمات لايمكن أن ينساها طيلة حياته .

أنت عميل للمخابرات الامريكية وعدو لمصر وشعب مصر . قالها له عامل بسيط هو هنداوى الصادق الذى اختاره المصيلحى بعد تجربة الخطاب الذى أرسلته زوجته » .

بل ان رزق مكاوى استعاد عقله معه ، وجرى وراءه وهو يصر انه كلب مسعور لابد من التخلص منه .. وقيل له .. أنت فاشى صغير .. وسيأتى يوم تحاسب فيه على كل جرائمك البشعة ..

ولم يتحمل المصيلحى أكثر من ليلة ثانية غادر بعدهاالمعتقل وهو الذى كان قد أعلن عقب وصوله انه سيبقى أسبوعا ليصفى المعتقل بشروطه »

ولابد وأن مرارة الفشل هى التى جعلته يقسم أن احدا لن يخرج من هذه الصحراء الا فى حالتين .. اما محمولا على أربع أو صاغرا لاوامره ومنفذا لتعليماته .

ومرة أخرى نكسب معركةالثقة بالنفس والقدرة علىمواجهة أساليب التعذيب النفسى .

ليس هذا فقط بل لقد كان لزيارة المصيلحى جانبا ايجابيا آخر فلقد أوضحت على الاقل ان هناك رغبة فى تصفيةالمعتقل وأمسكنا بالخيط ، ودارت مناقشات واسعة بين كل الزملاء .

هل نبقى مدافعين فقط ، تمارس علينا كل الاساليب المختلفة من التعذيب البدنى والنفسى والضغوط الخارجية والداخلية لنواجهها الواحد تلو الآخر .. أم ان علينا أننبادر بالهجوم وبكل الامكانيات المتاحة .

وكان لابد من عمل شىء .. شىء أكثر حسما ... وكان القرار .. الاضراب عن الطعام .. حتى الموت أو الافراج .. وكان قرار خطير .

يا أيها الشرفاء لاتهنوا اذا
طفت الذئاب، لاترهبوا طرق
الهدايه ان خلت من عابريهـا ،
سـيروا بنا نستخلص الانسان
من عار العذاب

الحسين ثائرا — عبد الرحمن الشرقـاوى

يوليو ١٩٦١

فى اليوم الاول حماس
فى اليوم الثانى احساس جارف بالجوع
فى الثالث بعض الآلام فى المفاصل وكأن صواميل الجسم تفك ٠

فى اليوم الخامس والسادس مرحلة انتقالية غريبة تحس فيها كما لو كان شيئا آخر منفصل ينمو داخل شرنقة الجسد
وابتداء من اليوم السابع انتقال تام الى مرحلة أخرى الذهن فيها صاف وهائم والجسد نائم متبلد والأحلام كلها تدور حول موائد فيها مالذ وطاب ، ثمانية عشر يوما منذ بدأ الاضراب عن الطعام الذى دخله أكثر من ٣٥٠ معتقلا بعد أن استبعد الاطباء عدد كبير ممن لايستطيعون تحمل مشـقة الاضراب نتيجـة مرضهم أو هزالهم ٠

وقد أصررت مثلما أصر عدد آخر من الزملاء على الدخول فى الدفعة الاولى فى اليوم الاول بالرغم من التحفظات الشـديدة التى أبداها الدكتور عبد المنعم عبيـد فلقـد كان الاحسـاس الجارف اننا وصلنا الى مرحلة يمكن أن يضحى الانسان فيهـا بحياته حفاظا على قيمة وانسانيته ٠٠ كان المطلوب فى البداية ١٥٠ متطوعا وتطوع ربعمائة وتدخل الاطباء يختارون ٠ وفى اليوم الاول أعلن مائتين الاضراب عن الطعام ، وفوجئت ادارة

السجن وحاولت فى البداية اقناعنا بالعدول، ولكنها فى النهاية بعدما أدركت اصرارنا بدأت تتخذ الاجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالة وهى عزل المضربين والكف عن تقديم الطعام أو أى شىء آخر فيما عدا المياه ٠

وبعد الدفعة الاولى بيومين أعلن مائة آخـرون انضمامهـم للاضراب ٠

وفى اليوم الرابع دخل خمسون آخرون ٠

وأدركت الادارة انهابازاء معركة أكبر من طاقتهاواستنجدت بالقاهرة ٠٠فمرور أكثر من خمسة أيام على الاضراب يعنى أن هناك جدية ويعنى أيضا ان حياة المصريين يمكن أن تكون فى خطر ٠٠

وانقضى الاسبوع الاول فى مهـرجانات من الاحتفـــالات النضالية والاناشيد ٠٠ كانت كل دفعة جديدة تدخل الاضراب تلهب المشاعر وتضرم نار الصدور المتلهفة والتى ترى فى معركة الاضراب أول تحد كبير من ناحيتنا فى مواجهة اهدار القانون والحريات واهدار انسانية الانسان ٠

كان احساسى مثل احساس كل الزملاء الذين يشاركونى الغرفة اننا فى معركة حقا واننا نقاتل بسلاح لايستطيع أن يملكه الا من هانت عليه الحياة دفاعا عن الحياة ٠

وكانت لبعض الاناشيد تأثير خاص وأنا أسمعها بعداسبوع من الاضراب وخاصة ذلك النشيد :

شـــتتونا فى المنـــافى	واملأوا منـــا السجون
ســـوف تأتيكـــم ليالى	ظلهـــا حتف المنون ٠٠
انعيـــم وبنـــــوكم	فى المنافى تائهـــون ٠٠

وكنت أضيف على قدر ماأســتطيع ان أرفع صــوتى ٠ ٠ جائعون ٠٠ جائعون ٠ وفى اليوم العاشر جاء الحاكم العسكرى

لمنطقة الوادى الجديد ·· والتقى بعدد منا وطلب فك الاضراب مقابل مزيد من المكاسب مثل فتح السجن ليلا ونهارا وزيادة مخصصات الاكل والسماح بالزيارات ورفضنا · كان مطلبنا الموت أو الافراج ·

وبعد ذلك بيومين جاء مندوب من القاهرة ليعرض بالاضافة الى المكاسب السابقة أن يحمل مذكرة بآرائنا مشفوعة بطلب الافراج ورفضنا ·· وكان مطلبنا الموت أو الافراج ·

وجاء الكثير من المسئولين ·· وكان موقفنا ثابتا ، بالرغم من أن حالتنا الصحية بدأت تسوء ، ودخل عدد من الزملاءفى حالات اغماء خطرة ومع ذلك رفضنا فك الاضراب ·

وفى اليوم الخامس عشر كان من الواضح اننا على وشك ان نقدم ضحايا فلقد ساءت للغاية حالة زميلين هما الدكتور رؤوف نظمى والمهندس عبد الله كامل ·

وجاء نائب الاحكام العسكرى فى المنطقة ليسجل الحالة وليفتح محضرا بأقوالنا وشهادتنا وملأ أكثر من مائة وعشرون صفحة ستظل واحدة من أهم وأنصع الوثائق فى تاريخ نضال الشعب المصرى من أجل الديمقراطية ·· حاول الرجل والحق يقال ان يخلى مسؤوليته فسجل شهادتنا بالكامل ··

وفى يوم ٢١ يوليو أى فى اليوم السادس عشر للاضراب جاءنا مندوب من الرئاسة ليتحدث الينا بتفويض من الرئيس جمال عبد الناصر ··

وأكد الرجل ادانته باسم الرئيس جمال عبد الناصر لكل ماتعرضنا له من تعذيب وانه يجرى حاليا محاسبة للذين نفذوا هذه السياسة ··

كما أكد أيضا أن الظروف التى أدت الى اعتقالنا قد انتهت وان هناك بحثا جديا على أعلى المستويات للافراج عنا وان الرئيس عبد الناصر ومعه عدد آخر من مجلس قيادة الثورة مقتنعون تماما بضرورة الافراج ولكن بعض أعضاء المجلس مازالوا معترضين وأن هذ الاعتراض فى طريقه لأن يزول ·

وقال كلاما كثيرا ·· بل وقال انى موفد لأقول لكم انه لن

يفرج عنكم فقط بل اننا محتاجون لكم وبشـــدة فى المرحلة القادمة ٠

وكان من الطبيعى ان نرفض فك الاضراب ، فحتى الآن لم نسمع سوى كلام ٠٠

وطلب المسئول شيئا واحدا نأخذ بعده قراراتنا وهو أن نستمع لخطاب الرئيس عبد الناصر مساء غد (٢٣ يولو سنة ١٩٦١) ففيه تأكيد عملى لكل ماقاله لنا بل وعلى حد تعبيره فان هناك مفاجأة كبرى ستعلن غدا ٠٠ وهى الثورة الاشتراكيـة وليس من المعقول أن تعلن الثورة الاشتراكية فى حـين يبقى الاشتراكيون فى السجون والمعتقلات ٠

واتفقنا للانتظار غدا لسماع خطاب عبد الناصر .

وكانت المفاجأة ٠٠

تأميم واسع للقطاعات الانتاجية فى الصناعة وتأميم البنوك والشركات والتامين والتجارة الخارجية ٠٠

اعلان ماسمى بالاصلاح الزراعى الثانى ووضع حدا أقصى لملكية الاسرة بمائة فدان ٠٠

الهجوم على الرأسمالية المصرية الكبيرة وتسريحها ٠

الدفاع عن مصالح العمال والفلاحين واشتراك العمال فى مجالس ادارة المؤسسات والشركات وتوزيع نسب فى الارباح عليهم ٠٠ تبنى النظرية الاشتراكية فى التطور .

باختصار كان الخطاب يبدو من الوهلة الاولى تحقيقا لغالبية الشعارات والاهداف التى كنا نرفعها فى السنوات الماضية ٠٠

وقررنا فك الاضراب على أساس أن هناك انتصارا سياسيا قد تحقق باعلان تلك الاجراءات الاجتماعية والوطنية الهامة ٠ وعلى أساس أن الافراج عنا على ضوء تلك السياسـة أمـرا مفروغا منه ٠

فليس من المعقول ، كما قال مندوب الرئيـس ان نبقى فى السجون فى حين أن الاهداف والشعارات التى دخلنا من أجلها السجن ، تتحقق وتتبناها الدولة وتعلنها بشكل رسمى ٠

ولكن فك الاضراب لم يكن سوى بداية لمرحلة جديدة ٠ مرحلة طويلة ومريرة لاتقل ، بل ربمـا تزيد قسوة عن

المرحلتين السابقتين .. فاذا كانت المرحلة الاولى هى مايمكن أن نسميه بالتعذيب الجسدى واذا كان المرحلة الثانيــة هى التعذيب النفسى والروحى فانه يمكن القول انه بالنســبة لنا بدأت مرحلة الصراع السياسى العنيف داخل الاسوار . وفرق بأن تفكر وأنت حرا طليقا أو أن تفكر داخل الزنازين والاسوار

فبعد السكرة الاولى فى أعقاب الخطاب وأيضـا فى أعقـاب انهاء الاضراب والتى استمرت أكثر من أسبوعين لكى يسترد الكثير من الزملاء صحتهم وقدرتهم على استيعاب وهضم وتحليل ماحدث ، بدأت أعنف وأعمق مناقشـات سياسـية يمكن أن تجـرى .

وتبلور داخل المعتقل ثلاثة اتجاهات رئيسية :

اتجاه يرى فى التأميـنـات الواسعـة التى أعلنت نوعا من رأسمالية الدولة ودعما للنمو الرأسمالى فى صورة جـديدة حيث أن الرأسمالية المصرية ضعيفة وغير قادرة على مواجهـة متطلبات مرحلة النمو فلقد قامت الدولة بالتدخل للاسراع فى تنظيم ودفع التطور الرأسمالى .

واتجاه آخر يرى فى اجراءات التأميم تحقيقا للاشتراكية وأخذا بالمنهج الاشتراكى فى التطور وضربا للنمو الرأسمالى وذهب هـذا الاتجاه الى القـول بأنه توجد عـلى قمة السلطه «مجموعة اشتراكية» يجب مساندتها بلا حدود وبدون تحفظ

وبين هذين الاتجاهين برز اتجـاه ثالث كان يرى فى الاجراءات ضربا وتصفية للرأسمالية الـكبيرة وقطاعات من المتوسطة وانه يفتح الطريق أمام نمو غير رأسمالى . ولكن هذه الاجراءات ستبقى عاجزه عن السير فى هذا الطريق دون توفير المناخ والأسس الديمقراطية التى تساعد الحـركة الجماهيرية والشعبية على اعطائها العمق والبعد الاجتماعى اللازمين

وحول هذه الاتجاهات الثلاثة الرئيسية وعشرات التفريعات الاخرى دارت أعنف وأقسى مناقشات سياسية وأغناها فى نفس الوقت ..

ولقد سافرت بعد ذلك كثيرا وحضرت ندوات سياســية وعلمية كثيرة فى الداخل والخارج ولـكنى مازلت أزعـم أن

كانت أغنى وأعمق مناقشة سياسية مررت بها ٠٠ فقط كان يشوبها ظلال السجن ٠٠ وظلال السجن يمكن ان تصفى على الأراء السياسية ٠ ابعادا قد لا تحس بها فأحيانا قد تكون متحمسا لفكرة ولكنك تخفى هذا الحماس الزائد أو على الاقل تخفف منه حتى لاتتهم أو يثور فى نفسك الاحساس بأن هذا جاء نتيجة خوف أو رغبة فى الخروج ٠

واحيانا قد تنبهر بفكرة ويكون هذا الانبهار نابعا ودون أن تدرى من سنوات العزلة القاسية التى فرضت علينا وكانت هناك ثلاثة منابر أساسية يعبر كل منبر منها عن رأى من الآراء الثلاثة ، كان هناك مجلة الطريق اى اتخذت لفترة ما الخط الاول وهو الذى يقول انها اجراءات رأسمالية متقدمة ولن يكون لها فاعلية حقيقية الا بتوافر المناخ الديمقراطى ٠

وكان هناك أيضا مجلة «الهواء» التى ذهبت الى اننا بصدد اجراءات اشتراكية وكان هناك أيضا (الافق) وهى التى أخذت موقفا وسطا بين الموقفين السابقين ٠

ولكن كان هناك البعض وأنا منهم يمسك ترمومتر أساسى للحكم على أى اجراءات وهو انعكاس ذلك على الحركه الجماهيريه والسياسية وفى المحل الاول تصفية المعتقلات ٠

ولم نكد نفيق من مناقشة الاجراءات الاقتصادية والتى أعلنت ٢١،٢٣ يوليو حتى حدثت مفاجأة سياسية أخرى ربما كانت أبعد أثرا وهى الانفصال السورى فى سبتمبر من نفس العام ٠

وعشنا أياما نلتف فيها حول أجهزة الراديو ونتابع لحظة بلحظة مجريات الامور ومن جميع الاذاعات ٠٠ القاهرة ـ دمشق ـ لندن ـ صوت أمريكا ـ موسكو ـ بغداد ٠

وقامت «واس» اى وكالة انباء عبد الستار الطويلة بدور كبير فى نشر ملخص لما تقوله الاذعات المختلفة حول ذلك الحدث مرتين فى اليوم ٠

كان الموقف خطيرا فى اليوم الاول وكنا نضع ايدينا على

قلوبنا وخاصة بعد ان سمعنا الرئيس عبدالناصر يأمر بتوجيه فرقة من المظليين الى اللاذقية للقضاء على الانقلاب .

ولم ينم أحد ليلتها .. فلقد كان الاحساس الاول انها ضربة من تخطيط استعماري رجعي مستفيدة من الاخطاء القاتلة التي صاحبت عملية الوحدة نفسها .. ولكن أن تصل الامور الى حد ارسال قوات فان ذلك خطرا أكبر ليس فقط على سوريا بل وعلى مصر نفسها .

ولكن سرعان ماساد العقل ، وفي اليوم التالي أذاع الرئيس عبد الناصر بيانا أدان فيه الانفصال ولكنه وفي الوقت نفسه أعلن ان مصر لن تستخدم السلاح في فرض الوحدة .

كان الانفصال السوري مفاجأة تامة لنا داخل المعتقلات ، وان كنا نحن قبل أي انسان آخر قد حذرنا منذ ثلاث سنوات من أن قيام الوحدة على أسس ليست ديمقراطية سيعطي الفرصة واسعة لاعداء الوحدة العربية من امبرياليين ورجعيين بالانقضاض عليها .. ولقد كان ذلك الرأي الذي قلناه ، والذي جر علينا متاعب كثيرة هو الذي دفع بالقطاعات الوطنية المختلفة في ذلك الوقت لاتهام الماركسيين بأنهم أعداء الوحدة وأعداء القومية العربية .

بل ان جوهر المعركة السياسية سنة ١٩٥٩ كان يدور حول هذه النقطة .. وحدة فورية شاملة غير مدروسة وتقوم على أساس الغاء كافة التنظيمات السياسية الجماهيرية والوطنية .

أم وحدة مدروسة تتم على خطوات وعلى أسس ديمقراطية سليمة واضعة في اعتبارها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكل بلد.. فالقول بأن القوى الامبريالية والرجعية هي التي ضربت هذه الوحدة قول صحيح ولم تكن في حاجة الى مزيد من الوثائق لفضح تآمر تلك القوى ولكن ان هذه القوى ماكانت تستطيع أن تضرب حلما جماهيريا لدى الشعوب العربية بتلك البساطة مالم تكن هناك ثغرات وأخطاء استطاعت أن تنفذ منها وتضلل .

ومن الصدف الغريبة ان أبو سيف يوسف كان سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي المصري في ذلك الوقت كان يحاكم في

الاسكندرية أمام محكمة عسكرية خاصة برئاسة الفريق الدجوى ، وكان ابوسيف يدافع عن آرائه وخاصة تلك التى تتعلق بالوحدة العربية وكان مما قاله :

« ان الوحدة العربية على الاساس الذى تمت عليه بين مصر وسورية فيها الكثير من الاخطاء التى يمكن أن تعطى للقوى الامبريالية والرجعية الفرص لضربها ٠٠ انى أطالب فورا بدراسة هذه الأخطاء وبوضع حلول حقيقية لها وذلك باعطاء الجماهير فرصة اوسع وباشاعة الديمقراطية وذلك حفاظا على دعم أمنية غالية وسدا للطريق أمام محاولات الرجعية والامبريالية لضرب هذه الامنية والا فهناك خطر الانفصال » ٠

وفى اليوم الثانى جاءت أنباء الانفصال ، ووقف أحمد مجاهد المحامى عن أبو سيف يوسف ليسجل أمام المحكمة ٠

«اننى أطالب بالافراج الفورى عن موكلى الذى أثبت انه كان أبعد نظرا واكثر قدرة على فهم مشاكل العمل الوطنى والوحدوى » ولكن أبو سيف لم يفرج عنه كذلك لم يفرج على أى منا ٠

وكان علينا أن ننتظر اكثر من سنتين ونصف ٠
لماذا ؟ ٠٠ سؤال محير ٠٠

اذا اردتم نصـيحة أيها الحملان الصغيران فاقفزوا من فوق سور الحظيرة .
اخرجـوا من قبوركم ياأولادى المساكين .

كازانتزاكس — الاخوة الاعداء

مايو سنة ١٩٦٢

لم يجف الصراع السياسى داخل المعتقل بل استمر يتخـذ مجراه ولكن على أرضية أقل توترا وأكثر روية .

كانت المناقشات فى البداية ، وعقب اعـلان الاجـراءات الاجتماعية الواسعة فى يوليو ثم بعد ذلك الانفصال السورى فى سبتمبر ، تجرى كلها وهناك شبه قناعة بأن الافـراج عنا مسألة وشيكة .

أليست الاجراءات الاجتماعية التى اتخذت من ضرب المصالح الرأسمالية الكبيرة وتأميم واسع للشركات والمؤسسات الاساسية هو انحياز لوجهة نظرنا التى طالبنا بها ودافعنا عن تحقيقهـا طوال السنوات الماضية وأليس الدور الذى اتضـح وقام به الاستعمار والقوى الرجعية من داخل الاتحاد القومى نفسه ، للعمل على مؤامرة الانفصال هى خير شاهد على صحة وجهـة نظرنا التى سبق وأعلناها فى الوحدة .

ليس هذا فقط بل ان عبد الناصر ألقى خطابا بعد الانفصال بعدة أيام فى جامعة القاهرة قدم فيه نقدا ذاتيا حول كثير من التصرفات والاجراءات التى تمت فى السنوات الماضية .

وكان مما قاله فى هذا الخطاب الكثير مما سبق ونبهنا اليه وحذرنا منه .

قال ان الرأسمالية الكبيرة المصرية حاولت ان تسرق الثورة

وتصوروا ان معركة الاستقلال التى خاضها الشعب المصرى سنة ١٩٥٦ وما أعقبها من تمصير وتأميم للشركات الاجنبية هى فرصة لهم لزيادة كعكتهم على حساب الجماهير ٠

وقال لقد ثبت ان الرجعية تغلغلت داخل الاجهزة وكانت تعمل من أجل السيطرة الكاملة على الدولة وقال ان الذين تآمروا على الوحدة كانوا عناصر قيادية داخل الاتحاد القومى وداخل أجهزة الدولة ٠ وأن مصر ستضع يدها مع قوى الثورة العربية والعالمية فى كل مكان ٠

وقال انه لا طريق أمامنا سوى مزيد من الحرية للجماهير والاعتماد على حركة الجماهير من أجل بناء مجتمع تسوده الكفاية والعدل ٠

بتلك المقاييس التى قالها عبد الناصر نفسه بعد ثلاث سنوات تكون تلك المجموعات التى ألقيت فى السجون ولاقت مالاقت خلال تلك الفترة هى أصدق وأكثر الجماعات تعبيرا ودفاعا عن الحقيقة ٠٠ هذا الكلام الذى أصبح سياسة رسمية للدولة على لسان رئيسها عندما قبل منذ ثلاث سنوات صدرت الاتهامات المخجلة «بالخيانة والعداء للوحدة» على لسان المصفقين والمهللين وكذابى الزفة والمرتزقة ٠٠ ويبدوا أن هذا السبب بالذات كان وراء تأجيل الافراج عنا فاذا كان كدابوا الزفة والمرتزقة قد فضحوا فى سوريا فانهم فى مصر موجودون وقادرون على التلون والتكيف تماما كالحرباء ٠٠ وكانوا متخصصين داخل الاجهزة وجهاز المباحث العامة على وجه خاص ٠٠

ولان رئيس الجمهورية نفسه قد اعترف بصدق الاقوال التى دخلنا من أجلها السجن والمعتقل منذ ثلاث سنوات ، ولان الافراج عنا كان يعنى تلاحما بين أقوال عبد الناصر وبين القادرين على وضع هذه الاقوال موضع التنفيذ ولأن حسن المصيلحى ، ومنذ عدة شهور فقط ، قد أقسم بشرفه ــ وهو شرف تعرفه جيدا المخابرات الامريكية ــ اننا لن نخرج من هذه الصحراء الا محمولين على الاعناق ، أى موتى ، واما منفذين لما يطلبه ويريده ٠

لكل هذا ولأمور أخرى كثيرة اتضحت فيما بعد لم يفرج عنا ، ليس هذا فقط بل وواصلت أجهزة المصيلحى معركتها القذرة فى محاولة التصفية النفسية والمعنوية للمعتقلين .

وعرفنا فيما بعد انه عندما طلب عبد الناصر من المصيلحى البدء فى الافراج عن المعتقلين طلب المصيلحى مهلة للتصرف «حتى لايخرجوا ولديهم احساس بأنهم أبطال».

وكانت أول رسالة واضحه وصلتنا بهذا المعنى ، حينما أعيد الى المعتقل عدد من الزملاء المسجونين الذين كان قد حكم عليهم فى أوائل الخمسينات (من سنة ١٩٥٢ الى ١٩٥٤) بأحكام تتفاوت بين ثمانية وعشر سنوات .

كان هؤلاء قد أتموا سنوات الحكم كاملة رغم أن بعضهم كانت جريمته انه حاول اسقاط الحكم فى أيام النظام الملكى .

وعندما رحلوا الى القاهرة للافراج عنهم لم يكن يخالجنا شك فى انهم خارجون وخاصة بعد كل تلك الظروف .

ولكنهم عادوا الينا بعد أيام وقد تحولوا من مسجونين الى معتقلين أى أن يرتدوا الزى الابيض بدلا من الازرق ويقيموا فى عنبر اثنين بدلا من عنبر واحد .

كانت عودة حمدى عبد الجواد وداود عزيز وزكى مراد ومصطفى طيبة ووديع وهيب ومحمد شطا بعد أن رفضوا عروض المصيلحى والجلوس على كرسى اعترافه المهيمن ، تأكيدا لنا بأن ماتصورناه فى البداية أمرا طبيعيا وهو الافراج عنا ليس بتلك البساطة .. وكان تأكيدا فى نفس الوقت لمغزى ظل ملازما للمرحلة كلها وهى أن الهوة بين الاقوال والافعال ستظل موجودة ومتسعة مهما تغيرت أفكار القيادات التى ترسم السياسه ، فالاجهزة المنفذة هى نفسها لم تتغير .

وقد ثبت كما تأكد بعد ذلك بسنوات ان الحديث عن تغيير جذرى فى المجتمع بنفس أجهزة الدولة القديمة يظل دائما مجرد أمانى رومانسية قد تدور فى عقل أحد القادة ولكنها لا يمكن أن تتحول الى واقع فعلى .

وفرض الواقع الجديد نفسه حتى على أكثرنا تفاؤلا ..

ولكن الامور لم تعد مثلما كانت .. فلقد كانت التغييرات السياسية التى تجرى فى الخارج تعطينا المزيد من الاحساس بالثقة والغريب أيضا ان المزيد من الزهد فى أى افراج يلوثه أى شرط ..

ومضت وتيرة الحياة فى الصحراء بعد أن استعادت نبضها الهادىء . الجامعة الشعبية تحتفل بتخريج أول فوج فى جميع الفروع والتخصصات .. والندوات السياسية والثقافية مزدهرة بل وبدأت تصدر كتب ومؤلفات ومجلات مكتوبة «بخط اليد طبعا» .

وحركة الترجمة تتسع .. ومكتبتنا عامرة . وبين الحين والآخر تقام سهرة فنية على المسرح الرومانى تقدم فيها عروض مسرحية جيدة ..

وفرقة العمل فى المزرعة برئاسة المهندس حسين طلعت وعبد المنعم شتلة تتحفنا كل أسبوع بمنتجات المزرعة من طماطم وخيار وخص وبطيخ وأنواع من الخضر المختلفة لتعوض بعض الشىء النقص الواضح فى التغذية وفى الكالسيوم والفسفور الذى نعانى منه .

ولكن ظاهرة أخرى بدأت تبرز ..

فلقد بدأ عدد متزايد من الزملاء يسقطون فريسة أمراض مختلفة ابتداء من الدوسينتاريا حتى أمراض المثانة والكلى والمعدة .. والعيون . ويبدوا أن فترة الاضراب عن الطعام الطويلة قد قضت على بعض المقاومة لدى البعض فهاجمتهم الامراض بعنف .

ورحل العامل على زهران الى القصر العينى بعد اكتشاف بولينا حادة ولكن على فارق الحياة بعد يومين فى القصر العينى .

وكذلك أسعف أحمد البيكار من نزلة معوية قاسية وأرسل الى القصر العينى ، ولكنهم أفرجوا عنه هناك بعد أن اكتشف الاطباء ان حالته ميئوس منها .. ومات البكار بعد أسبوع من الافراج عنه ..

ولقد أحسست فى تلك الفترة بشىء ما فى عينى ..

كان يجتاحني أحيانا صداع عنيف اعانيه في صـــمت ثم يعقب نوبات الصداع ضعف ملحوظ في ابصـــار عيني وقد كتمت المسألة بيني وبين نفسي لفترة ، فلقد حسبتها مسألة عارضة لاتستحق وانها سرعان ماتنتهي فلم أكن لأريد أن أزيد متاعب الزملاء وخاصة ونحن نواجه كـــل يوم بعض حالات المرض الشديد ٠٠ ولكن الصداع استمر كما استمر تدهور الابصار بشكل ملحوظ ٠٠ وفي هدوء توجهت الى أحد الزملاء الاطباء وشكوت له مما أعاني ٠٠ واستمع الزميل في هدوءثم قام يكشف أولا على عيني وقال وقد امتلئت ملامحه بجـــدية غريبـــة ٠

ـ : منذمتى تحس بذلك
ـ : منذ شهور
ـ : ولماذا سكت
ـ : أحسبها مسألة بسيطة

ـ : ان ضغط العين مرتفع جدا ٠٠ ولا بد من علاج سريع
وفي اليوم التالي كنت أعرض على طبيب السجن الذىاتفق مع الزميل في التشخيص وفي خطورة الاصابة وكتب تقريرا بترحيلي الى مستشفى القصر العيني فورا ٠

وطوال الاسبوع الذى انتظرته حتى جاءت الموافقة بالسفر الى القاهرة كان يتزايد لدى الاحساس بخطورة الاصابة ٠ ٠ انعكس ذلك في اهتمام الزملاء الاطبـاء وفي نظرات الزمـلاء ورعايتهم واصرارهم على ألا ازاول أى عمل ٠

وكم كان ذلك يضايقني بل ويحز في نفسي كثيرا ، فحتى أسبوع مضى كنت واحد من المجموعات التى شكلت لخـــدمة المرضى والرعاية الزملاء الذين يعانون من بعض الازمات النفسية والخاصة ٠٠ ولقد كنت سعيدا وفخورا بهذا العمل الذى كان ينمي بداخلي قدرة هائلة وطاقة غريبة على هضـــم المشـــاكل ومحاصرتها حتى أن سيد البكار كان يقول دائمـــا انني أكثر الناس تفاؤلا في العالم وأن لدى قدرة غير محدودة على تحويل الدمعة الى ابتسامة ٠

لهذا كنت أتألم ٠٠ ليس فقط للصداع القاتل الذى يهاجمنى يوميا وليس لآلام العين وتدهور البصر ، بل واكثر مــن هذا لانى كففت عن الدور الذى كنت أقوم به باستمتاع بل وتحولت أنا الآخر الى حالة ٠

وفى صباح ٦ مايو حملت أمتعتى ولبســت بدلتى وودعت الزملاء الذين حرصوا كلهم على الخروج لتوديعى واتجهت ومعى الحرس الى الاتوبيس فى الطريق الى أسيوط ومنها الى القاهرة ٠

كانت الرحلة على الطريق الصحراوى الجديد الذى انفتـح هذا العام ويصل الواحات بأسيوط يستغرق حوالى ست ساعات قضيتها كلها نائما او شبه نائم فطوال الليلة الماضيــة ظللت وسط الزملاء والاصدقاء الذين أصروا على أن يقضوا معى تلك الليلة ، ربما لاحساس بعضهم اننى قد لا أعود ونظرا لخطورة الحالة ، وربما لاشفاق بعضهم من التجربة ٠٠ وقضينا الليلة كلها نروى ونحكي ونسترجع الذكريات ونحاول ان نتخيــل صورة الغد ٠٠

ووصلنا الى أسيوط وانتظرنا فى المحطة بضع ساعات أخرى حتى جاء قطار السابعة مساء واحتللت أنا وحــراسى ديوانا فاخرا ٠٠ كان هناك بعض المظاهر المتكررة والتى رأيتها فى رحلتى السابقة الى أسيوط ٠٠ الحرس الذين يملأوا المحطة ليبعدوا أى انسان من الاقتراب منك ، ثم صف الحراس الذى تقف عند كل محطة يمر عليها القطار ليطمئنوا الى أن الراكب الخطير قابع فى ديوانه ٠

ولكن الرحلة هذه المرة الى القاهرة ٠٠ الحبيبة ٠

ومضى القطار يقطع الليل والارض مبددا ســكون الوادى بصفيره وعجلاته بينما التزمت بشباك فى الممر أتطلع منه الى الحقول النائمة فى حضن أضواء القمر المكتمل ٠

ومرت ملوى ومنفلوط والمنيا وبنى سويف ، مدن لم أرها من قبل ربما فقط سمعت بأننا مررنا عليها عندما رحلت من الفيوم الى الواحات فى سبتمبر ١٩٥٩

وكانت علامات مضيئة ومشعة فى الطريق الى القاهرة .

لم أنم لم أستطيع ان أجلس لحظة واحدة ، كنت اجهز نفسى لاستقبال القاهرة اكثر من ثلاث سنوات مررت على هذا الطريق بعيدا عن القاهرة .

وحينما لمحت على ضوء القمر اهرامات الجيزة تطل من بعيد كاد قلبى يذوب فى الدقات العنيفة التى اجتاحته .

نسيت عيني ونسيت الامى وكف الصداع أو لم أعد أحس به شيء واحد كان يجتاحني والقطار يدخـــل الجيزة ثم يدور حولها من خلف الجامعة وبين السرايات وبولاق الدكرور وامبابة ليدخل فى احضان قاهرتى الدافئة .. مدينتى العظيمة .. الصامدة ، الغارقة فى الاضواء .. هاأنا أعود .. وامتـلأت عيناى بالدموع .

وبالرغم من اننا وصلنا فى ساعة متاخرة من الليل الا أن ميدان المحطة كان كعادته حيا زاخرا ، وألقيت نظرة على بوفيه المحطة .. هو نفسه لم يتغير وكأنى كنت أجلس عليه بالامس .. وتعود الحياة كلها فى لحظات على نفس المقعد كنت أجلس أتناول افطارى أحيانا واقرأ جرايد الصباح ، ومن هذه البوابة كنت أخرج فى الطريق الى الجريدة .. وعلى بعد مئات الامتار فقط يقبع بيتى .. أختى وأولادها .. وعلى بعد مئات الامتار يوجد الآن الكثير من الاهل والاصدقاء والرفاق .. كنت أحس بهم وبقربهم منى .. رغم آنهم ليس لديهم فكرة على الاطلاق بأننى هنا .. اخيرا .. فى القاهرة .

وكان البوكس فى الانتظار . وركبناه فى الطريق الى القلعة حيث قضيت بضعة ساعات فى زنزانة مغلقة

وفى الصباح كنا فى الطريق الى القصر العيني .
معتقل وضابط .. وثلاث عساكر .

الموسيقى تاتى عبر النهر المظلم
وتنـــادينى واحترق قلبى ألم
أوم ٠٠ ٠ دلنى على الطـــريق
طاغور الناسك

مايو سنة ١٩٦٢

النيل يجرى فى هدوء وعلى سطحه الرقراق ومياهه الصافية التى لم تشبها بعد حمرة الفيضان ، تنعكس الانوار المنبعثـة من الجانبين ٠

ومن شرفة العنبر الواسعة تقف بعض العمارات العملاقـة على الجانب الآخر ٠٠ فى الجيزة ٠ معظم نوافذها وشرفاتها مفتوحة بعضها يغمره النور والبعض الآخر يكتنفه الظلام وبعض منها غارق فى أضواء برتقالية خافتة ٠

وموسيقى تنبعث من مكان ما يصعب تحديده ، تتضـــح أنغامها وتعلوا أحيانا ثم تخفت وتتوه الانغام أحيانا كثيرة مع صوت احدى العربات التى تمـــرق فى خفة عـلى كـوبرى الجامعـة ٠٠

وتحت العين والقدم ، وعلى الشاطىء المجاور عند كازينو «البل فى» يضم ثنائيات عاشقة او رباعيات ساهرة تنعم بليل القاهرة ونيلها وتصل الى اذنى احيانا ضحكة عالية متموجـة تثير داخلى تيارا فائرا متفتحا للحياة يوقظ مشاعر واحاسيس مضى عليها وقت طويل دون ان تمارس حتى كدت انساها ٠٠ ودقت ساعة الجامعة المجاورة اثنى عشر دقة تتبعتها واحـــدة واحدة ٠٠ كل دقة كانت تلقى بحجر فى بركة الداخل فتثير العديد من التموجات المتلاحقة وتعصف بالسكون المفتعل الذى

كان يخيم ، ويمتد شريط الحياة متحركا ملونا ٠٠ فى كافيتريا الاداب ، والطريق لم يتضح بعد والعقل متفتح على استعداد لان يفهم ويستوعب ، وقضايا كثيرة تفرض نفسها عليه ومناقشات صاخبة وهادئة فى البوفيه وفى المدرجات ومع الاساتذة والبحث عن طريق لمصر الحرة مصر المستقلة مصر الديمقراطية مصر التى هى ملك لكل ابنائها وبناتها ٠

وشاب ريفى يحمل فى عينيه ورأسه مآسى كثيرة رآها وعاشها فى قريته ، البؤس والفقر والتخلف ٠٠ والخوف ، ثم يدرس الادب الاوربى والفلسفة ويقارن بين أحوال قريته وبين كل كلمة يسمعها من أستاذ أو يقرأها فى مسرحية مقررة او قصيدة شعر يدرسها ويسأل ويناقش ويختلف مع بعض الاساتذة ويعجب ببعضهم ٠ ويحك رأسه بعنف ويواصل مسيرة الفهم والاستيعاب ٠٠ ويتضح أمامه الطريق ، انه ماجاء الى الجامعة لكى يصبح مدرسا أو موظفا يتقاضى أجرا بمقدار الليسانس بل يغمره وعى غريب بأنه مبعوث قريته بكل مشاكلها الى المدينة وأن عليه أن يقنع تلك المدينة بعدالة قضية قريته ٠٠ ويخطو خطواته الاولى نحو الادراك والوعى الحقيقى ٠٠ بذاته ومجتمعه ٠

ــ : حيلك ٠٠ دانت مش هنا خالص ٠

قالتها الحكيمة السهرانة التى كانت قد تسللت دون أن أدرى ٠

ورميت بنفسى على كرسى فى الشرفة بينما وقفت «سحر» بقوامها الممتد والمتناسق وقد أسندت ظهرها الى جدار الشرفة وساهم ضوء القمر مع امتداد أضواء الشارع والكازينو فى رسم صورة مجسمة لها لاتبين تفاصيلها مثل الهة الاغريق وعادت تقول فى رقة أكثر

ــ : تشرد كثيرا ٠٠

ودون أن تنتظر ردا ، راحت كعادتها تحكى فى سخرية ضاحكة عن «الحرس» الذين نام أحدهم على باب العنبر بينما

ارتمى الآخر على سرير خال ، وانها أصبحت الآن مسئولة عنى ليس فقط من ناحية العلاج بل ومن ناحية الحراسة ... ثم انتقلت من موضوع الحرس الى موضوعات أخرى كثيرة ،ابتداء من شكواها من ارهاق العمل الى ظروف والدتها المريضة الى الخطاب الكثيرين الذين ترفضهم الى قطة صغيرة سوداء فى بيتها الى استعراض ساخر للاطباء والذين تعمل معهم وكيف يغازلها كل على انفراد ويحذرها من الآخر ، واقترحت سحر أن نشرب كوبا من الشاى وقامت تعـده بنفسها .. كانت تلك الليلة الثالثة لوجودى فى عنبر ١٣ «عيون» فى القصر العينى بعد أن استقبلنى فى اليوم الاول الدكتور عصام توفيق الاستاذ المساعد للعيون وكتب لى بالدخول فورا «لاجراء عملية جلوكوما» وبالرغم من أن الدكتور عصام قد أبدى انزعاجه لتدهور الحالة الا انه طمأننى وفى عيونه بريق انسانى وهو يتأمل القيد فى يدى .

— : معلهش ... جت سليمة لم تتأخر كثير .. سأجرى لك العملية بعد خمسة أيام ..

وخلال اليومين الماضيين اللذين قضيتهما فى غرفة خاصة فى عنبر ١٣ كانت كل ساعة بل كل دقيقة مليئة بما يمكن أن يكون تعويضنا عن السنوات الثلاث فى الصحراء .

فى اليوم الاول .. جاءت أختى وأولادها .. وكانت واحدة من تلك اللحظات المليئة بالانفعال حين أخذت تضمنى وتبكى ومعها سامح الذى كبر واقترب منى فى توجس فى البداية ثم اندفع نحوى بعد ان تعرف على «خاله»

وفى اليوم الثانى . جاء أبى من القرية وعلى لسانه كلمة يرددها :

«الحمد لله .. رأيتك مرة ثانية .. الحمد لله ..»

وبالرغم من الاوامر التى كانت لدى الحرس بمنـع الزيارة أو الاختلاط بالمرضى الا أن ذلك لم يكن من الممـكن تنفيذه فالعنبر ملىء بعشرات المرضى الذين يزورهم ذويهـم كل يوم كذلك كان من السهل تدبير بعض المظاهر الشكلية حتى لا يضار

أحد من الحارسين الذين كانا على استعداد لتقديم أى الخدمات ٠ كنت أقضى النهار كله غارقا مع مشاعر الاهل أحكى القليل وأسمع الكثير ٠٠ أخى الاكبر رشدى ويعمل مدرسا راح الى مبنى المباحث بعد اسبوع من الاعتقال يسأل عن مكانى فكان نصيبه علقة محترمه مع حجز فى المباحث لمدة ٢٤ ساعة وأكبر اخواتى تزوج ، وأختى أصبح لها أهداب وهانى الى جانب سامح ٠٠ وابنة عمى دخلت كلية الآداب قسم انجليزى ٠ ٠ وابنة الجيران تزوجت وأهل القرية يبعثون السلامات الحارة ٠

وكان أبى يجلس النهار كله يتأملنى ويتحسسنى كما لو كان قد عثر على شيء فقده منذ زمن طويل

«الحمد لله ٠٠ رأيتك مرة ثانية ٠ »

وحكى أبى كيف انه بعد اعتقالى بفترة ذهب الى الاستاذ محمد نصر ــ والد صلاح نصر مدير المخابرات ــ وكانا زميلين فى الدراسة بالاضافة الى انه ابن قريتنا

وحاول الأب ان يدفع صلاح ابنه ليتدخل للافراج او على الاقل لنقلى الى القاهرة بعيدا عن التعذيب الذى كانوا يسمعون عنه ٠

ولكن صلاح قال :

مستحيل ٠٠ ان أمرهم فى يد الرئيس شخصيا ولايمكن لأحد منا أن يتدخل ٠

وأحيانا ماكان يمر الدكتور عصام ونائبه الشاب الدكتور أحمد فيجلسان قليلا ليسألان عن صحة ماسمعوه وقرأوه فى الصحف الاجنبية والتعذيب الذى تعرضنا له ٠

ولكن الدكتور عصام كان يقطع الحديث فجأة وهو يتطلع حوله قائلا :

ــ : المهم عينيك ٠٠ احنا هنا للعلاج ٠

ويمضى بابتسامة جانبية ذات معنى ٠٠

أما «الطيور الجارحة» من المباحث العامة فقد كانت تحوم

دائما حول الغرفة وقد كان من السهل على ان أكتشفهم بالحاسة الخاصة التى تمت عندى بعد طول معاشرتهم حتى اننى أزعم انه أصبحت لدى القدرة على ان أشم رائحتهم .

كانوا يكتفون بالمراقبة ورصد حركة من يزورنى ولكن أحدا منهم لم يتدخل .

مرة واحدة فى صباح اليوم الثانى جاء شاب مهذب لم أستطع ان أشمه من البداية ، وقدم نفسه على انه ضابط المباحث العامة وأنه موفد من قبل «المصيلحى بك» للاطمئنان على صحتى وحالة عينى وللتأكيد بأن « المصيلحى بك » حزن جدا حينما عرف بمرض عينى وانه يتمنى لى الشفاء سريعا .

وقال الشاب المهذب وهو يسلم

— : ان شاء الله تخرج من القصر على بيتكم .

وخرج . واعتبر أبى أن ذلك تأكيدا بأنهم سيفرجون عنى . وتركت الرجل الطيب يملأ صدره بالآمال ولكنى أحسست بضيق غريب وأنا أسمع عبارة الضابط المهذب واجتاحنى احساس بأن وراء الكلمات معنى آخر .

وأحيانا ماكنت أنزل — ومعى الحرس — الى عنبر المعتقلين فى الدور الاول ، حيث خصص لنزول المعتقلين القادمين للعلاج سواء من الواحات أو من زميلاتنا المعتقلات فى سجن القناطر أو من القلعة .

كان فى العنبر حوالى ثمانى معتقلين وستة من المعتقلات . ولقد كنت دائما أتساءل بينى وبين نفسى ، لماذا لم يدخلوننى عنبر المعتقلين والمعتقلات فى القصر العينى .

ولكن سؤلا أكثر الحاحا كان يثور .. ماذا يجرى داخل الغرف الثلاث المغلقة على ١٤ زميلا وزميلة ؟

ولماذا يوضع الجميع فى مكان واحد .

ولم يكن من الصعب على أن أعرف السبب بعد أن نزلت اليهم مرتين وجلست الى بعضهم عدة ساعات .

كان عنبر المعتقلين فى القصر العينى أحد الخطط الذكية لأساتذة «القتل المعنوى» فلم يكن يسمح بالبقاء فى هذا العنبر

سوى لبعض من الزملاء «الذين أبدوا استعدادا للتفاهم» بعضهم كان يعانى مرضا خفيفا ولكن غالبيتهم كانوا من اصحاب الحظوة لدى الاجهزة كذلك فآن ابقاء بعض الزميلات معهم يمكن أن يؤدى الى قصص تصلح بأن تكون سلاحا يستخدم ضد الاشتراكية والاشتراكيين ٠

حيقة انه حدثت بعض التجاوزات ، ولكن الحقيقة الاكثر والمشرقة انه بالرغم من كل تلك الظروف الصعبة التى صنعت باحكام لانزلاق الزميلات الا أن غالبيتهن استطاع أن يتماسك بل ويقدم القدوة والمثل العظيمة لكيف تكون أخلاقيات الفتاة الاشتراكية ٠

وجاءت سحر بالشاى ٠٠

ولكنها جاءت بشيء آخر اكثرسخونة ٠٠ فلقد غيرت ملابسها وارتدت روبا من الشيفون الاحمر لايكاد يخفى شيئا ٠

وناولتنى الفنجان وعطرها يملأ أنفى ومنبت النهدين يشدان كل ما لدى من ابصار ٠

ــ : شاى يعجبك قوى

هكذا قالت وهى تشد كرسى وتجلس جانبى ٠

ــ : أين الحرس ٠٠

قلتها بدون وعى وأنا أشد الكرسى بعيدا عنها ٠

ــ : واحد نام أمام العنبر ٠٠ والثانى نايم على سرير فى العنبر ٠

قالتها وهى تقترب بالكرسى منى ، وقبل ان احاول نا أبتعد بمقعدى أمسكت يدى بعنف

ــ : ٠٠ كله نايم ٠

وتهت للحظات ٠٠ كانت يدها أشبه بتيار كهربائى صاعق لم أكن لأحتمله ٠٠ بل لم أكن لأحتمل منذ رأيت سحر فى الليلة الاولى ٠٠ كانت ببساطة شديدة جميلة جذابة ، من من النوع الذى يدعوك ويدفعك من أول لحظة لان تضمه بين يديك ٠٠ ولم يكن ذلك تخاريف معتقل قضى ثلاث سنوات فى

الصحراء فلقد أجمع على ذلك كل نزلاء العنبر وعلى رأسهم الشاويش عبد السلام الذى كان يقول لها دائما :
ــ : ليلة واحدة معاكى على سنة الله ورسوله ·· وبعديها أموت وأنا مبسوط ·
وكانت ترد بضحكة لينة وبخفة دم لاتبارى .
ــ : ياراجل انت عجزت ·· متستحملش ساعة ·

ومنذ ليلة أول أمس حينما مرت سحر على فى الغرفة وقدمت نفسها على انها «السهرانة» وأحاسيس جارفة تنطلق وتعربد داخلى ، مرت الليلة الاولى بسلام وبدردشات وتعاريف اشترك فى جزء كبير منها الشاويش عبد السلام وزميليه ·
ومرت الليلة الثانية بسلام صعب ·· فبعد ان انتهت سحر من توزيع الادوية ووضع القطرات فى العيون المريضة جاءت الى غرفتى وأخذنا ندردش بعض الوقت ثم قرأت لى فصلا من أحد الكتب وبعض المقالات فى مجلة روزاليوسف ، ونمت ليلتها مثلما نام شهريار على صوت شهرزاد الذى كان ينفذ الى النخاع ·
أما تلك الليلة فيبدوا ان الامور لايمكن أن تمضى بسلام ··
نام العنبر من العاشرة كالعادة وأغلق البـاب الخارجى ولم يبقى سوى أربع عيون سهرانة ·
عينان يتهددهما الخطر لم تريا لمدة ثلاث سنوات سـوى رمل الصحراء ووجوه الزملاء والعساكر المتكررة وعينان تلمعان بالجاذبية والدفء تنفذ نظرتهما ــ كأشعة اكس ــ الى الاعماق وتشد كالمغناطيس بنبضات قلبك ورعشات جسـدك ·· وتحججت بالذهاب الى التواليت ·
وهرولت مذعورا ومسحورا الى الغرفة ·· وارتميت عـلى السرير ·

وبعد قليل كانت خطوات الاميرة «السـهرانة» تقترب من الغرفة وتدخل ·· ثم جلست على الفـوتيل المجاور للسرير ووضعت ساقا على ساق فانفتح الروب وتعرت ساقيها تماما ·

ياكل قوة فى الارض ويا كل قدرة على التماسك والمقاومة · لقد واجهت الشومة الغليظة وهى ترتفع ثم تهوى على الجسد تلهبه وتمزقه وقاومت ، وواجهت الكرباج ينفرد ويطير ويلسع

وقاومت ‥ وواجهت الجوع ثمانية عشر يوما بلا طعام ،وكسرة الخبز تعنى الحياة ـ ‥ وقاومت ‥ وواجهت قلمـا وورقـة يمكن أن يكتبا شيئا يخرج بى من السجن ٠ وقاومت ٠٠٠ ولكن الساقين اللذين تنفتح عنهما غلالة الروب ، والجسد الملتهب الذى يشع ويضىء من خلف الشيفون ، والشفة السفلى المكتنزة والشعر الاسود المنسدل الى الخلف كموجات بحر أسود ‥ وذلك الصمت المتفجر الذى يلف العنبر بل والقصر العينى كله ليكمن خلف قنبلة متفجرة اسمها «سحر»

قالت فى ابتسامة هادئة :

ـ : عندك حق ‥ الغرفة افضل من الشرفة ٠

ياساحرات اوليس ‥ أيتها المنشدات الجميلات ٠ ٠ دعن أوليس يعود الى أهله ٠

عادت تقول :

ـ : هل أقرأ لك ‥ اشرب الشاى انه ليس سما ‥

ـ : أحس بارهاق ‥ ساحاول النوم ٠

ـ : تخدعنى أم تخدعك نفسك ‥ مش هتنام ٠

ياتاييس ، رفقا بالراهب ‥ لايملك الا ايمانا وعقيدة ‥

ـ : قولى ‥ اوصف لى اول حب لك ‥

ـ : سحر ‥ اريد ان أنام ‥ عينى تؤلمنى وصداع قاس فى راسى ‥

ـ : ألف سلامة ٠

قالتها فى رقة وعذوبة ثم فتحت الكوميدينو وقامت تضع بعض قطرات «البيلوكارمين» فى عينى

ولم أعـد أحتمل ونهديها يكادا يفران مـن فتحة الروب ويلامسان أنفى وأحتضنهما بعنف ٠

ولكنى سرعان ماعدت ودفعتها بعيدا وهى شبه مخدرة ،وقد لمعت الفكرة فى ذهنى وتجسـدت فى سـور كبير يفصلنى عنهـا ٠

كانت تلك الفكرة هى التىجعلتنى أعانى الليلتين السابقتين

·· وهى التى أربكت كل تصرفاتى وجعلتنى أستطيع مرة أخرى ان أحاصر عواطف الحرمان والطبيعة التى كادت تنفجر ·
ومن يدرى ·· ربما دفعوا بها اليك للقضاء عليك ·

ومن لم يسقط بالتعذيب البدنى والنفسى يسقط خرقة بالية فى حضن امرأة ·

وصرخت فى وجهها وقد تمثلت أمامى مثل « عروسة الجلد»
ــ : اخرجى من فضلك ·· قولى لهم أنا مش مراهق ساذج ·· أنا صاحب رأى وعقيدة ·· أخرجى ·

ونظرت اليها تماما مثلما كنت انظر الى ادوات التعذيب الاخرى · · ولابد ان وجهى قد اكتسى بتغيرات حادة ، اذا ظلت سحر تنظر الى فى استغراب شديد ثم لملمت نفسها وهى تقول فى صوت مبحوح مبلل بمشروع بكاء :

: ــ انت مجنون ·· مجنون ·

وتكورت فى السرير أكاد أمزق الغطاء ، ثم نهضت الى الباب وكدت أصرخ اناديها بكل الرغبة المتفجرة ، ولكنى عدت لأرتمى على السرير مرة أخرى وأنا أصارع «ذات» خطيرة جائعة بدرجة وحش بوهيمى لم يأكل لسنوات طويلة ، لقد طلب أوليس البطل المنتصر من حرب طروادة ان يقيده زملاؤه ويربطوه رباطا وثيقا فى صارى المركب وهو يمر بجوار جزيرة الساحرات الهامسات وللآن لم يكن ليستطيع أحد أن يقاوم اغراءهن وصرخ أو ليس وبكى وهو يطلب من زملائه أن يفكوا وثاقه فلقد كان السحر أقوى من ان يقاوم ولعلى فى غمرة الصراع تهت او نمت وربما فقدت الوعى لفترة · وكل ماأذكره اننى حينما فتحت عينى وجدت كل شىء ساكن هادىء ونائم ليس فى الغرفة وحدها بل وفى العنبر كله ، بل وأحسست بهدوء نفس غريب مع قطرات من العرق البارد على جبهتى ثم احساس شامل مبهج ، وفرحه داخلية هادئة ·

لقد انتصرت فى معركة قاسية كان لابد وأن أخسرها بكل الشواهد المنطقية والانسانية ·

وأخذت أستعرض الاحداث مرة أخرى ولكن بطريقة العرض

البطىء وأحس بمزيد من الثقة بالنفس . قد اكون دون كيشوت حاربت أوهاما وأشباحا لا توجد الا فى ذهنى .

وقد أكون قد تجاوزت الحقيقة وتصرفت بغباء .

وقد تكون « سحر » مظلومة من التهمة التى تصورتها .

وقد أكون خسرت «ذكرى» جميلة كان يمكن ان تتحول الى نقطة مضيئة وسط سنوات من الظلام الكفيف مع الصحراء والألم .

قد يكون كل ذلك صحيحا ، ولكنى حينما أتذكر تلك الليلة، فانى أتذكر على الفور أقسى معركة دخلتها كنت فيها معاديا على طول الخط لذاتى ومشاعرى ولغريزتى .

لقد كان انتصارا يساوى ان لم يفق بكثير متعة ليلة جميلة مع أحلى امرأة اشتهيتها فى حياتى .

ليست العبرة فى قتل الحسين
العبرة فيمن قتلوه .. ولماذا
قتلوه .
أنا ثأر الله ان مت شـــهيدا
فاطلبوه

الحسين ثائرا — عبد الرحمن الشرقاوى

يونيو ١٩٦٢ :

صاح الصديق محمد علي عامر او شيخ العرب كما نسميه وقد بأنت الدهشة على وجهه ، فلم يكن العم العجوز يتصور أن يرى في تلك الساعه المبكرة من الصباح حيث يحرص على الخروج من العنبر ليشم هواء الصحراء قبل بزوغ الشمس ..

كنت قد وصلت الى سجن الواحات بعد رحلة استمرت خمسة عشر ساعة وكان الارهاق والمرارة لايتركان فرصـة لمتابعة الاجراءات الروتينية التى تتبع عند حجرة البوابة كما لم يكن عندى رد على الدهشة التى اكتست وجه الرفيـق الطبيب .

ودخلت العنبر وبعض الزملاء يتثائبون ويتركون اعينهم للتأكد من انني أقف امامهم مرة أخرى .. والدهشة والحيرة تملأ العيون وتطرد النعاس بسرعة .. وعشرات الاسـئلة تحاصرني وتتجمع كلها حول البرش الذى ارتميت فوقه .. كيف حدث هذا ؟ لماذا عدت هكذا بسرعة ؟ وعينيك ؟ لم يمض على رحيلك للقاهرة سوى اربعة ايام !! ماذا حدث ؟ وكلما زادت الاســـئلة وكلما تكاثر الزملاء حـــولى يمطروننى باستفساراتهم واحســـاسى بالمرارة والالم ويزداد ويعمق ، فلقد كان اكثر مايثيرنى أن احس اننى أصبحت « حالة » تثير الشفقة والاهتمام .

وكدت اصرخ فى وجه الزملاء بأن يتركونى وحدى ، بـل

تكورت قبضة يدى وكدت الكم أمير اســـــكندر وهو يهزنى بعنف ويقول فى عصبية ٠

ـ : تكلم ٠٠ ماذا حدث ٠٠ لماذا عدت بسرعة ٠٠ وحالة عينيك ٠٠ ولكنى عدت أجتر الالم والمرارة ولما لم يكن هناك مفر امام مئات العيون المتساءلة والاذان المتلهفة ٠٠ فلقــد حكيت ماحدث ٠٠ كان قد مضى على فى القصر العينى ثلاثة ليالى آخرها ليلة الحكيمة السهرانة وفى صباح اليوم الرابــع جاء الضابط المهذب مبعوث مصيلحى بك مرة أخـــرى ٠٠ ولكنه فى هذه المرة كف عن ارتداء ثوب الرقة الزائف الذى كان يرتديه فى المرة السابقة ٠٠ حقيقة كان ناعمــا ولكــن كلماته كانت موجهة بعناية كطلقات مسدس كاتم الصوت ٠

حدثنى فى البداية عن الزيارتين اللتين قمت بهمــا لعنبر المعتقلين والمعتقلات فى الدور الاول وحرص على أن اعرف أن كل كلمة قلتها هناك وصلتهم بما فى ذلك كلمات التحـــذير التى قلتها لبعض الزميلات هناك من الوقوع فى الفخ المنصوب لهم وضبط تصرفاتهم ٠

ثم قال وهو يطلق رصاصته الاولى ٠

ـ اجدر بك أن تقبع فى عنبرك دون تدخـــل فى امور الاخرين ٠٠ هذا اذا كنت تريد أن تعالج عينيك ٠

وتركتها تمر فلم اكن ابحث عن معـــارك ٠٠ ولكنه عاد يطلب أمرا غريبا ٠٠ فبعد أن أكد اهتمام الجهاز كله ـ وعلى رأسه مصيلحى بك بحالتى وحزنهم فى نفس الوقت اقترح ٠٠ أن اكتب التماسا بالافراج نظرا لحالة عينى المتدهورة ٠٠ والى هنا والامر مقبول ٠

واستطرد ٠٠ وان يكون الالتماس مشفوعا بتأكيـــد من عندك بأنك لن تعمل بالسياسة ولن تعود مرة أخـــرى الى ماكنت تعمله .

واتسعت ابتسامته المفتعلة وهو يقول :

ـ بس ياعم ٠٠ تكتب الكلام ده دلوقتى وانشاء الله بعد يومين ولا اسبوع بالكثير تكون بره ٠٠ ومبروك مقدما !!

قلت وانا احاول قدر استطاعتى ان ابلور الكلمات واهدئها حتى لاتخرج بانفعال أو عصبية ٠

ـ انا جاى اتعالج ·· مش جاى اكتب استنكار ·
وكسى وجهه بعلامات دهشة مصطنعة ·
ـ استنكار ·· بلاش الكلام الكبـــير ده ·· وده برضه معقول نطلب منك انت بالذات حاجة زى كده ·· ده مجرد كلمتين روتين مع الالتماس ·

وصمت قليلا اضبط نفسى وايضا كلمات الرد فقد كنت حتى هذه اللحظة لا أريد خنـــاقة أو انفعالا ·· ويبـــدو ـ كعادتهم دائما ـ أنه فهم صمتى نوعا بين الحيرة والبلبلة ·· فأخذ يزيد من طلقاته ··
ـ أيه ·· مش كفاية اكثر من ثلاث سنين ضـــاعت فى الصحراء ·· احنا شباب ونفهم بعض ·· صـــدقنى مفيش حاجة تستاهل ·· أخرج بجلدك وشوف عينيك ومستقبلك ·
وأدركت أن على أن أوقف على الفور هذا السـيل ، فقلت بحزم اكثر ·
ـ لو سمحت انا جاى القصر علشان اتعالج مش علشان اتناقش فى الخـــروج أو عدمه ·· والمفروض انى هعمل العملية بكرة ·
وكانت لهجتى فيما يبدو قاطعة وانعكس ذلك على وجـه الضابط المهذب باحساس بخيبة الامل ثم رمقنى بنظرة طويلة غريبة وهز رأسه قائلا :
ـ انشاء الله تعمل العملية بكرة وتنجح ·
وخرج ·
وعند الظهر اخذت الممرضة أوراق علاجى من الغرفة بناء على طلب الدكتور أمين زيد ·
ـ ومن هو أمين زايد ؟
قالت التلميذة الطيبة :
ـ مدرس فى قسم ٢١ رمد ·

وابديت دهشتى وخاصة واننى أتبع قسم « ١٣ » وهـو القسم التابع للدكتور عصام توفيق ··
ولم تستطع الممرضة أن تفسر لى السر وراء طلب اوراقى ولكنها خمنت واعتقد انها لم تكن تعرف ، بأنه من المحتمل

أن يشترك الدكتور امين زايد مع الدكتور عصام فى اجراء العملية غدا ٠

وكنت على استعداد لتصديق ما قالته الممرضة فلم تكن هناك اى احتمالات اخرى ونسيت الامر كله حينما جاءت اختى باكلة سمك طلبتها فطوال فترة المعتقل السابقة لم اتذوق هذا الطعام الذى كنت احبه ولقد سـألت أحد الفلاحين من سكان الواحات الذى كان يساعد فى اعمال المزرعة عن السمك فقال الفلاح الفقير الطيب باللهجة السريعة المضغومة ٠٠

ـ مابنزرعش الشجره دى هنا ٠

وقبل أن انتهى من الوجبة الشهية جاءت الممرضة وطلبت منى أن اصحبها لان الدكتور أمين زايد يريد أن يرانى ٠

وانتقلنا انا والممرضة ومعى الحرس ـ الى العنبر المقابل ٠

وكان يجلس فى غرفة الحكيمة ٠٠ وجه عادى مثل كـل الوجوه ليس هناك مايميزه سوى التواء بسيط فى الفـك الاسفل وشد واضح فى عضلتي الفك كما لو كان يقـرض اسنانه وبادرنى فى صوت جاف :

ـ انت المسجون الشيوعى ٠

ـ أنا معتقل مش مسجون ٠٠

هكذا وجدت نفسى ارد على الفور وقد اخذت بأسـلوبه الخشن فى الكلام بالاضافة الى انه لم يكلف نفسه الرد على تحيتى ٠

وقام من الكرسى وانفرد امامى ماردا طويلا عريضا واخذ يتطلع الى بنظرات لم استطع تفسيرها ٠٠ واكتشفت حركة عصابية واضحة فى عينيه اليسرى ثم انفجر بصوت اعلا :

ـ متقرفش ٠٠ يعنى غلطت فى البخـارى ياخى ٠٠ مانتو معروفين دايما مسحوبين من لسانكم ٠٠ عارف افكاركم المهببة ٠٠ هذا الطبيب ٠٠ اهى قضية عين بتهددها الخطـر أم افكار مهببة كما يقول ٠ ماذا يعنى ؟

وصمت ، فلقد تعودت ان استوعب أى استفزاز مقصود المهم العملية ٠٠ وعاد يقول وهو يشير بأصبعه كما لوكان يوجه اتهاما ٠

ـ عينك سليمة ، مفيش حاجة ٠٠ ومفيش داعي لوجودك في القصر ٠

قلت في هدوء ولم اكن قد ادركت ابعاد الموقف بعد :

ـ الدكتور عصام توفيق كشف على وقرر اجراء عملية غدا لاني مصاب بجلوكوما حادة ٠

وانتفض امامي انتفاضة عنيفة وصاح في صوت غليظ مشروخ :

ـ هتفهم في الطب كمان هتعلمني شغلي ، انا قلت عينيك سليمة ٠٠ اديني ورق سعادة البيه الفليسوف ٠٠ اتفضل خروج اليوم ١١ مايو ١٩٦٢ ٠٠ امضاء ٠٠ أمين زايد ٠

كان يكتب على اوراقي وهو يؤكد على الكلمات بغيظ شديد وغير مفهوم !! أهو تاربايت ٠٠ ولماذا ؟ انني لم أعرف ابدا أحدا في حياتي بهذا الاسم ، لم اسيء له ، ولماذا هذا الموقف الغريب ٠٠ حقيقه أن صوته وكلماته جافة خشنه ولكنه على أي حال طبيب ، وقد كنت حتى هذه اللحظة اعتقد ان احد لا يمكن ان يمارس تلك المهنة العظيمة دون ان يكون انسانا أولا واخيرا كما أنه ليس الطبيب المعالج ، فأنا في عنبر الدكتور عصام ولست في عنبره والدكتور عصام استاذ مساعد وهو مدرس ٠ انه لم يكلف نفسه بالكشف على ٠٠ ومع ذلك يكتب بخروجي من المستشفى ٠٠ وبصري الذي يذهب !! وعيني التي دخلت مرحلة الخطر كما اجمع كل الاطباء الذين كشفوا على !! ماذا يعني هذا ؟ ماذا يهدف بالضبط الدكتور أمين زايد ؟

وعدت احاول معه ، وأكلم فيه الطبيب ٠

ـ يادكتور ٠٠ معنى ذلك أن اعود الى الواحات ، ويضيع بصري ، فلننتظر الدكتور عصام ٠٠ يادكتور ٠

ولكن أمين زايد فر هاربا من الغرفة ومن العنبر كله دون أن يكلف نفسه بالنظر وراءه وهو يعطي اوامره للممرضة بأن تبلغ الادارة فورا بتأشيرته ، ووقفت في الغرفة ومعي الممرضة منكسة الرأس والشاويش عبد السلام وزميله وقد انعكس الموقف على وجههما ٠

وقال الشاويش عبد السلام :

– داه دكتور بيطرى ده ٠٠ مش بنى ادم ٠

وتهت لفترة واجتاحنى شعور بالحيرة الشديدة مع احساس زاحف بالضياع ولكن سرعان ما استعدت نفسى وقررت أن أقاتل دفاعا عن عينى ٠

عرفت من الممرضة ان الدكتور عصام توفيق كان موجودا فى الصباح وأنه اعطى اوامره باعدادى للعملية غدا ٠ وطلبت الدكتور عصام فى البيت وفى العيادة بعد ان اعتطنى الممرضة ارقام تليفوناته ولم اجده وجاء الدكتور أحمد النائب الشاب وسمع الحكاية واعلن اعتراضه واحتجاجه على تصرف الدكتور أمين واكد لى اننى تحت مسئولية الدكتور عصام وأن احدا أخر لايملك اخراجى كما اكد لى ان حالة عينى خطرة فعلا ٠

وأحسست بالراحـــة وبشىء من التعويض وانا أرى أحمد الطبيب الشاب يقف الى جانبى بحســم فيتصـــل بمدير المستشفى ثم حاول الاتصال بالدكتور عصام ٠

أحمد نموذج آخر لا أعرفه ولم اراه سوى مرتين حينما كان يمر فى العنبر خلف الدكتور عصام ويســتمع الى توجيهاته وملاحظاته على الحالات كنت اراقبه وهـــو يضرب التليفون بعصبية بعد ان ينهى حديثة مع احد المسئولين فى المستشفى ثم يقول فى مرارة :

– مش ممكن ٠٠ دا كلام فاضى ٠٠٠!!

واخيرا عثرنا على الدكتور عصام فى منزله ، وحكى أحمـد ماحدث بنفس الطريقة التى كان يمكـــن أن احكيها وناولنى السماعة لاسمع صوت الدكتور عصام وهو يقول بعصبية :

– ازاى دا حصل ٠٠ مش ممكن ٠٠ دا كلام فاضى ٠

ووعد بأنه سيتدخل وطمأننى الرجل على قدر مايستطيع وان كنت قد احسست من صوته أنه فى وضع ليس أفضل من وضعى كثيرا ٠

أما اختى فقد وقفت المسكينة ترقب الجهود التى ابذلهـا ويبذلها معى الدكتور احمد وهى الاخرى تكرر فى هلع ٠

مش ممكن ٠٠ دا كلام فاضى ٠

ساعتين تزيدان قليلا ضاعا فى غمرة معركة الانقاذ التى كنا نمارسها ٠

كان كل المسـئولين فى المستشـفى يبدون استنكارهم فى البداية ولكن هذا الاستنكار كان يتحـــــول الى صـــمت أو تعليقات مبهمة حينما يسمعون اسم أمين زايد ، ولكن الذى لم يكن ممكنا من وجهة نظر اختى والدكتور احمد والدكتور عصام اصبح ممكنا .

وحدث الكلام الفاضى ، وفى حوالى الرابعة وصلت فرقة الترحيلة « ضابط وثلاث عساكر » ومعهم الاوامر بترحيـلى الى سجن الواحات .. ووقفت اختى والدكتور احمد والممرضة والشاويش عبد السلام وزميله يرقبون الموقف فى صمت مثير وأنا الملم حاجاتى وأعتصر كل طاقاتى حتى لا أضعف امامهم وحينما وضع الضابط القيد الحديدى فى يدى صرخت اختى ودخلت فى نفس الحالة التى مرت بها ليلـــــة الاعتقال .. مسكينة لقد رأت المسيح يصلب مرتين .. أما الطبيب الشاب الذى وقف الى جانبى حتى آخر اللحظة كان هو الوحيد الذى لم يبلع استنكاره ولم يمضغ الكلمات البهمة حينما كان يسمى اسم أمين زايد .. والتفتت عيوننا ، كان وجهه يمـــــوج بأنفعالات متداخلة بمزيج من السخط والضـــــيق واليأس والتمرد .. كان فيما يبدو يمر بالصدمة الاولى .. وباحساس بأنه فى حاجة ربما اكثر منى لمن يسانده ، امســـكت بيده بقوة وقلت وانا احاول الابتسام .

معلهش بسيطة .. بكرة هرجع تانى .

ولم اكد انتهى من حكايتى التى سمعها اكثر من مائة زميل التفوا حولى حتى سمعنا صرخة ملتاعة :

– انهضوا .. داود عزيز .. مات .. بيموت .. عنـــده ذبحـــة .

وهرول الكثيرون من الزملاء ، وقام الاطبـــــاء بمحاولتهم المستميتة لكى يظل النبض الخافت لواحد من اكبر الفنانـــين التشكيلين فى بلدنا .

ولم اعد احتمل الموقف كله ، وتركت الزملا وداود والاطباء يتشبثون بالحياة ويحاولون قهر الدبحة التى اسقطت الزميل وخرجت الى السور .. كنت فى امس الحاجة لكى اجلس مع

نفسي .. وحيدا ، وحالة من حالات الضعف واليأس يجتاحني وأخذت اردد اغنية احيانا ما كان يهمس بها محسن الخياط وكثيرا ماكنت الومه لترديدها .

مدى ايدك ليه .. فى المنفى البعيد
مدى ايدك ليه .. من بين الحديد
وافرديهـــا
واحضنى بنورك جروحى
قبل ماتميل بروحى
للغروب
قبل ماتدوب الامانى
وتشـــــوفيها
لحن تايه
لحـــن انغامه فى دموعى

ووجدت صـــوتى يختنق والدموع تتساقط ويجد بعضها طريقة الى شفتى ثم انفجرت فى بكاء عميق .

آه لو تنكشف الغمة عـــن
عينى كى ابصر ابعاد الطريق .
ماعسى ان تبصر العينان فى
ليل بهيم طمست فيه النجوم .
ماعسى ان يبصر المحزون من
خلف الدموع .

عبد الرحمن الشرقاوى ـــ
الحسين ثائرا

يونيو ١٩٦٢ :

مرة اخرى فى القصر العينى .

البوكس يعبربنا البوابة ، وعند الاســـــتقبال يتوقف .. ويبدأ الموكب التقليدى .. الضابط فى المقدمة وأنا خلفه احمل امتعتى وعلى اليمين واليسار حارسان يحملان التومى جن كنت قد وصلت الى القاهرة يوم الخميس بعـد ثلاثة اســابيع قضيتها فى الواحات .

وفيما عدا اليوم الاول لوصولى للواحات والذى كان يـوما مريرا وحزينا حقا ، فاننىوبمساعدة الزملاء سرعان ما استعدت معنوياتى بل وعدت امارس مهمتى كرئيس تحرير لمجلة الطريق واستكمل مشروع مسرحية كنت قد خططتها .

كنت قد ادركت ابعاد اللعبة التى مورست معى ، واشترك فيها الضابط المهذب والدكتور أمين زايد .. لقد كان المطلوب تأديبى وترويضى .. ولهذا اندفعت فى مقالاتى فى المجلة نحـو مزيد من فضح وكشف اساليب التصفية ولكى ارد برســـالة واضحة لمن رسموا اللعبة بأنى لست ممن يروضون .. وفيما عدا بعض الام العين وحالات الصداع الشديد احيانا فلقـــد حاولت ان انس الموضوع كله .. ولكن الزملاء لم يستطيعو أن ينسوا ، فبعد ترحيل داود عزيز للعلاج بعد وقف تدهور حالته واصل المسئولون عن الاتصال بالادارة بالضغط من اجل سفرى

للعلاج وبالتهديد باتخاذ اجراءات تحمل الادارة المسئولية ، كما قام الاطباء المعتقلون بكتابة تقرير بحالتى وخطورتهاوارسلوها الى كل الجهات المعنية بما فيها نقابة الأطباء وانضم لهم طبيب السجن الذى أراد ان يتخلى من مسؤليته : وأثمرت المجهودات وبعد عشرين يوما جاء الأمر بالترحيل الى القاهرة ٠٠ ولكن أمرا غريبا حدث لدى وصولنا الى محطة مصر فبدلا من الذهاب الى القصر العينى مباشرة ، ذهبوا بى الى مستشفى سـجن مصر حيث قضيت الخميس والجمعة والسبت ٠٠ وفى صباح الاحـد كنت فى الطريق الى اسـتقبال العيون فى القصر العينى ٠٠ جلست على الاريكة بين الحارسين بينما ذهب الضابط بالاوراق فترة عاد ليصحبنى الى الطبيب الذى سيكشف على ٠

ودخلت الغرفة ٠٠ ورايته ٠

أمين زايد ، يرتدى البالطوا الابيض هـذه المرة ٠٠ ولم يتحرك ٠

لم يفاجأ ، كان يعرف فيما يبدو ، بل ولم ينظر الى وقال موجها حديثه للضابط :

ـ حالته ميئوس منها ٠

وسأل الضابط فى سذاجة الذى اشترك فى لعبة لايعرفها :

ـ سيادتك مكشفتش عليه ٠٠ انت عارف الحالة قبل كده٠

ـ عارف ياسيدى ٠٠ بسلامته كان هنا من ثلاث اسابيع ومش عاجبه التشخيص ٠

وتدخلت بعد ان افقت من صدمة المفاجأة وسـيطرت على اعصابى جيدا ٠

ـ يادكتور امين انا صحفى لا أفهم فى الطب ٠٠ سيادتك بتقول دلوقتى أن حالتى ميؤوس منها ومن ثلاث اسابيع قلت أن عينى سليمة ٠٠ يعنى ايه ٠٠ مش فاهم ٠

ورد فى برود غريب :

ـ ولاعمرك حتفهم ٠

ويبدو انهم قد حذروه هذه المرة من الانفعال بعد أن كشف نفسه فى المرة الاولى ٠٠ وصحت بعد ان كدت أفقد اعصـابى وفهمت السبب الذى ركنونى من اجله فى مستشفى سـجن مصر الايام الثلاثة الماضية ٠

– عاوزني أفهم ايه .. انا لحــد دلوقتي اعاملك كطبيب مش ضابط مباحث .

ويبدو انني قد نلت منه في مقتل فصرخ

– : ولد .. بلاش قلة أدب

وكنت على استعداد للذهاب الى آخر مدى فماذا بعد العين ولوحت بيدي في وجهه

– : أنا مش ولد واحترم نفسك ومهنتك .. واللي بتقوله ده مش بس قلة أدب دا اجرام .. عملت فيه ايه !

ويبدو ان انفعالي كان يزداد ويضطرد وأنا أقترب منــه فالتفت بسرعة وجعل الضابط بيني وبينه بينما أخذ الضابط يهدئني برقة وقد أدرك الموقف وقادني الى كرسي وهو يربت على كتفي

– : اهدأ ياأستاذ .. هنشوف حل ، اهدأ .. امســك أعصابك .. ثم التفت الى أمين زايد

– : والحل يادكتور ..

– : عينه اليسرى وصلت الى حالة ميئوس منها ، لابد من استئصالها .

– : استئصالها .. مش ممكن .. انت جزار .

هذا الوحش الكريه .

منذ ثلاث أسابيع كان يصرخ في وجهي ليقــول ان عيني سليمة واليوم يريد استئصال عيني لانها وصلت الى حالة ميئوس منها .. وقبل ان انفجر بشحنة أخـرى من الغضب أسرع الضابط يقول وهو يضغط على يدي

– : استئصال استئصال .. المهم اكتب له دخول دلوقتي .

وعاد الضابط يضغط على يدي وهو يهمس منتهزا فرصةذهاب أمين زايد الى المكتب ليؤشر على الاوراق .

– : اعقل المهم تدخل القصر .. وبعدين تتصرف .

: . . . : . . . : .

بعد يومين في عنبر ١٣ في القصر العيني اكتشف فيها أن نصيحة الضابط كانت في محلها ، فقد كنت محتاجا لاجـراء بعض الاتصالات .. فأرسلت مجمـوعة من الخطابات باســم

الدكتور عبد المنعم عبيد المدرس فى القصر العينى والمعتقل فى الواحات الى كثير من أساتذة كلية الطب ٠٠ كذلك كلفت أبى بارسال خطابات تحكى مايجرى معى على يد الدكتور أمين زايد بايعاز من المباحث الى كل المسئولين ٠

وفى نفس الوقت الذى كنت أنشر فضيحة أمين زايد على الملأ وأسجل سقطته ، كنت أرفض بالاتفاق مع الممرضة على استخدام القطرات والادوية التى قررها الى بعد أن اكتشفت انها «تقتل العين» ٠ كنت فى البداية أحسب أن اللعبة ستنتهى عند هذا الحد ، وأن ماحدث فى المرة الاولى وفى البداية هذه المرة لم يكن سوى محاولة للانذار ، ولكن لم يدر بفكرى أن أمين زايد سيمضى فى اللعبة الى هذا الحد ٠٠ الاستئصال ٠

والغريب انه كان جادا متحمسا للغاية ٠٠ بل كان يأتى كل يوم الى العنبر ليكشف وليطمئن ان أدويته القاتلة تقوم بمفعولها وفى كل مرة ينظر الى الممرضة ويسأل

ـ : متأكدة انه يأخذ القطرات والمراهم ٠

وتضطر المسكينة ان تكذب ، وشجعها على ذلك الدكتور أحمد نائب عنبر ١٣ والذى كان يحظى باحترام كبير بين الممرضات رغم انه مازال نائبا شابا ٠٠ وقد حرصت بالطبع أن أسألها عن سحر وكان ماالديها من معلومات عنها انها نقلت الى عنابر الجراحة وانها فى أجازة للزواج من ضابط بوليس٠

كان أول شىء فعلته هو الاتصال بالدكتور احمد الذى سهر معى ليلة كاملة ، وقد سعدت بهذه السهرة «العنبرية» ليس فقط لانى رأيت مرة أخرى صديقا شريفا كسبته من خلال معركة قاسية ، ولكن الاهم ان أحمد الذى رأيته هذه المرة يختلف عن احمد منذ ثلاثة اسابيع ٠٠ حقيقة ظل الانسان الشريف التقى ولكنه تخلص من كثير من أحاسيس الضعف والعجز والحيرة والشعور بالصدمة لقد كان ماجرى فى المرة الماضية مثلما قال صدمة هامة كان يحتاجها ٠ ولقد عرفت أن الاحتجاج والسخط لايكفى لاصلاح الامور ٠

واشترك أحمد معى من اليوم الاول فى رسم الخطة وتتلخص فى اظهار الرضوخ لرغبة أمين زايد وذلك فقط لكسب الوقت الى ان ننجح فى كشفه بعد الاتصالات المكثفة التى نقوم بها

يوميا مع أساتذة الكلية والنقابة والمسئولين .

وأحسست ان أحمد لايتحرك وحده بل ومعه مجموعة من النواب والمدرسين بل والاساتذة ، .. ويبدو انهم قاسوا على يد أمين زايد الكثير .

ولكن أمين زايد كان فيما يبدو مسنودا الى أقصى حد . . ففى اليوم الرابع ، وبعد أن كشف على عينى وتأكد بالطبع اننى لم آخذ القطرات والمراهم التى قررها امر بتغيير الممرضة فورا وطلب ممرضة معينة بالاسم ثم قال لى فى حزم

— : أنا العب .. لقد دخلتهنا لكى نستأصل العين اليسرى ، وسأجرى العملية غدا ..

ثم أخذ يلقى التعليمات المشددة للممرضة التى طلبها ، وقبل أن يخرج قال للحكيمة

— : لازم يمضى على اقرار بموافقته على الاستئصال اليوم ويرفق بأوراقه .

المسألة دخلت فى الجد ولم يعد هناك فرصة للمناورة وكسب الوقت .

وأسقط فى يدى وفى يد الدكتور احمد فرغم الجهود المكثفة التى بذلت فان رد الفعل لهذه الجهود تأخر وتعثر كثيرا .

الدكتور ابراهيم الشربينى ، وكان سكرتيرا لنقابة الاطباء فى ذلك الوقت ، قال لأبى ان مثل هذه الامور حساسة ولا يمكن للنقابة ان تتدخل بشكل رسمى . ووعد بمحاولة حل المشكلة وديا .

حسين فهمى ، نقيب الصحفيين أبدى انزعاجه واهتمامه الشديد بحالتى ولكن الظروف ، على حسب تعبيره لأخى حيث قابله ، لاتترك مجالا واسعا للحركة .

الدكتور عصام توفيق أخذ أجازة لعله يحل صراعا داخليا لابد وأنه كان يعانيه بين الرغبة والاقتناع والعجز وعدم القدرة .

وفى تلك الليلة وجدت نفسى وحيدا أمام قدر يبدو وانه لا مفر منه .. حتى الحرس هذه المرة قد اختيروا بعناية ، حاولوا أن يلعبوا دورا فى تضييق الخناق على ، فبالاضافة الى وجوههم المتجهمة ورفضهم أن يتركونى للحظ فانهم لم يكفوا

بين الفترة والاخرى عن القاء بعض الكلمات والايحاءات بأنه ليس هناك من حل سوى «التفاهم وتليين الدماغ» .

كان المرضى فى العنبر قد بدأوا ينامون ، بينما جلست مع سامى الطفل الصغير الذى لم يتجاوز السبع سنوات ، أحاول أن أنسى في بعض الحكايات التى أرويها له .

كان سامى هو الآخر سيجرى عملية الاستئصال فى الغد وكنت أحس بتعاطف شديد من سامى ، ليس فقط لانه على وشك أن يفقد عينا فى الغد وهو فى مثل هذا السن ، بل لان الطفل كان ذكيا لماحا ومن اليوم الاول لوجودى فى العنبر فرض نفسه علي وأصبحنا أصدقاء ، لايترك غرفتى الا حينما يأتى والداه لزيارته ، بل كثيرا ماكان يصحبهما ويأتى الى الغرفة ويحكى لهما بطريقته الخاصة عن حكايتى .

ونام سامى بعد أن نهرته الممرضة ، وأخذت أتجول فى العنبر بين صفين من الاسرة يخرج من كل منها صوت خاص يتراوح بين شخير مزعج وبين أنفاس مسموعة ..

حتى النيل والقاهرة الساهرة وأضوائها المنعكسة عجزت كلها من أن تشفى من ذلك الاخطبوط الذى عشعش فى رأسى وجعلها تكاد تنفجر .. كنت وبحركة تلقائية أتحسس عينى لاتأكد من أن شيئا لم يحدث بعد ، وأحلم وأنا واقف فى الشرفة فأرى أمين زايد وقد استبدل البالطو الابيض بثوب أسطورى فضفاض بينما برزت قرونه وقدحت عيناه بالنار وكشر عن أنيابه وفي يده سيخ محمى يقترب منى ويغرسه فى عينى ، وأكتم صرخة كادت تخرج ويسرى الارهاق فى جسدى ولكنى لاأريد أن أنام ولاأستطيع .. وقد كنت لاأطيق الغرفة حيث يجلس الحارسان يستمعن الى الراديو وبين حين وآخر يقذفونى بنظرات باهتة لاتختلف كثيراعن تلك النظرات التى كنت أراها فى شبح أمين زايد كان مايحيرنى ويثير حنقى فى نفس الوقت هو ذلك الاصرار الغريب على الاستئصال . ولقد كنت مستعدا وأدرك مسبقا اننى وقد وقعت في أيديهم وبعد اكثر من سنوات من الاعتزاز ورفع الراس فلابد وأن يفعلوا شيئا لينفذوا داخلى

ولكنى لم أكن اتصور انهم سيصلوا بى الى طـريق مسـدود وليس أمامى سوى أن أختـار واحد من الطـرق التى يفتحوها أمامى فكل منها معتم مظلم ·· أما الآن أكتب وأتفاهم ·فيكون العلاج ··

واما ان ارفض السقوط ·· فيكون السفر الى الواحات مع مزيد من فقد الابصار وضياع فرصة العلاج ·· وضياع العين نفسـها ·

وأما ان أستأصل عينى اليسرى لأكون مثلا وعبرة لمن يرفض الركوع ·

اختبارات صعبة وأصعب منها ان تكون وحدك وأنت تختار وليس من رأى يساند فيما عدا الطبيب الشـاب ومحـاولاته اليائسة ·

وتمثلت الكثير من الشخصيات التى واجهت مواقف الاختيار الصعب ·· عطيل وقد تمزق بين حب عميق لديدمـونة وبين غيرة عاتية أثارها ياجو ·· وهملت وقد شرد فى ردهات قصر أبيه المقتول يكرر كلماته (أكون أو لاأكون) وهو يتشبث بين أن يحبها ولكنها خائفة وبين أوفليا المقدسـة ولكنها ابنـــة واحد ممن اشترك فى قتل ابيه ·

وأوديب بعدان اكتشف المأزق الخالد بزواجه بأمه ·

ولكن كل هؤلاء الأبطال المسرحيون بكل ماكتب عنهم كانوا أسعد حالا فقد قتل عطيل ويدمونة وقتل نفسه وأنهى بذلك الصراع ، وقتل هاملت قاتل أبيه ومات بين أحضـــان أمـه المحتضرة ، وفقأ أوديب عينيه وهام فى جبال اليونان · · · كانت أزمات فردية خاصة ولكن القرار هنا لم يكن يتعلق بى فقط بل بالمئات الذين تركتهم فى الواحات يعانون ويتألمـون ويثقون فى الغد والملايين من أبناء مصر الطيبين البسطاء الذين تصورت اننى أدافع عنهم وعن حقهم فى أن يكون لهم ارادتهم المستقلة ·

وارتميت على السرير عند الفجر وفتح الشاويش عينيــه يراقبنى وأنا اتقلب فى قلق

ــ : هتعمل ايه بكره ٠
ــ : وصرخت
ــ : استئصال لآ ٠٠
عاد يقول فى برود مدرب عليه

ــ : اذن تكتب لى ورقة أذهب بها فى الصباح اليهم فى لاظوغلى فتحل كل الامور

وعدت أصرخ بعصبية
ــ : لآ ٠٠ لآ ٠٠ لآ ٠٠ مش أنا

فأشعل الشاويش سيجارة وأخـذ ينفث الدخان الى أعـلا باستمتاع وهو يقول
ــ : اذن فقد اخترت سكة الندامة

قال المدرس : هاأنت ترى أيها الأب المبجل أننا لم نحـدث تغيـيرا .. فالمسيح اصـبح الشعب .
وقاطعه القسيس : الشـعب ليس الله يامصيبتنااذا كان الامر كذلك .
قال المدرس : الشعب هـو الله يامصيبتنا اذا كان الامر غـير ذلـك .

كازانتزاكس — الاخوة الاعداء

اغسطس ١٩٦٢

كان الامر قد تحول الى مليو دراما سخيفة ..
وهذا ماقررت أن أضع له حدا أيا كان الثمن .
وعندما عدت الى الواحات هـذه المرة بعـد أن رفضـت «الاستئصال» كان لى رجاء واحد للزملاء .. هـو ان ننسى الموضوع كله .

فلقد كنت أخشى أن تتحول عيني الى قبر معتم يزوره الزملاء تعطفا وشفقة . واحترم الزملاء رغبتى أو على الأقل تظاهروا بذلك، كذلك فلقد حاولت أنا الآخر أن أبدو متماسكا .. على الأقل من الظاهر .. حتى آلام العين والصداع المدمر الذى يلح بين حين وآخر تحملته فى صمت .. وحينما كنت احس ببوادره أسارع الى «البرش» لأتظاهر بالنوم .. ولقد كان ذلك يعطينى على الاقل احساسا بالرضا عن ذاتى وعن قدرتى فى تحمـل قدرى بوعى وتجلددون أن يكون له انعكاس على اقدار الآخرين، وقد ســاعدنى على الاستمرار فى عمليات الهروب التى كنت أمارسها كل يوم ان المعتقل «غرق» مرة أخرى فى مناقشات

سياسية لاتخلو من سخونة أحيانا وخاصة بعد صدور ميثاق العمل الوطني في يوليو والمناقشات التي سبقته ..
كان الميثاق بكل المعايير الموضوعية وثيقة هامة وخطيرة ..
فلأول مرة يقدم تحليل تاريخي علمى لنضال الشعب المصرى طوال القرن الماضى منذ ثورة عرابى حتى ثورة ١٩٥٢ باعتبارها حلقة متصلة من نضال الشعب من أجل الاستقلال والتحرر .

ولأول مرة يجرى الحديث عن الصراع الطبقى وعن ضرورة أن يحل هذا الصراع لصالح الغالبية من الجماهير العاملة وعلى رأسها العمال والفلاحون بل ويذكر الدور الطليعى للطبقة العاملة فى اجراء التغير الاجتماعى .

بل ان الميثاق يتحدث عن الاشتراكية كطريق حتمى للتقدم بل ويذهب الى مدى ابعد وينص على الاشتراكية العلمية .
أفكار وآراء ليست جديدة علينا بالطبع ولكن الجديد انها صدرت من القيادة التى كانت وما زالت تتحفظ علينا فى السجون والمعتقلات .

وكان السؤال الطبيعى الذى فرض نفسه .. اذا كان ذلك صحيحا فلماذا نبقى فى المعتقلات فالميثاق بالمبادىء التى نادى بها هو حتما أقرب الى تفكيرنا من أى انسان آخر من هؤلاء الذين كانوا يصفقون له وهو يتلى فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة أو هؤلاء الكتاب الذين كانوا بعد مايكونون تلك المبادىء ثم يتولون مهمة شاقة بالنسبة لهم فى محاولة تفسيره والدفاع عنه .. ولقد كان من الضحك أحيانا أن نقرأ مقالا عن الاشتراكية لكاتب لم يقرأ فى حياته كتابا واحدا عنها أو كان يعدها كبيرة الكبائر التى لاتغتفر وكان يثير الاشمئزاز بقدر مايثير السخرية حين ينبرى أحدهم فى أحد الصحف ليتكلم عن العمال والفلاحين وحتمية الحل الاشتراكى وهو الذى لم يكن يعرف أن يتكلم سوى عن القصور وخباياها ولم يشغل نفسه يوما بمن كان يسميهم الغوغاء والدهماء ، ونكتشف انه خواجة يتحدث عن أمور غريبة عنه فيخرج الكلمات مثلما كادت تخرج عن الخواجات الذين يحاولون التحدث بالعربية .. (يحيا العمال والفلاحين)

وحدث ترحيب جماعي بالطبع بالميثاق ٠٠ وان كادت التفسيرات قد اختلفت وتباينت ٠

وكان رأى مجلة الهواء ان الميثاق جاء تأكيدا لفكرة انهناك فى السلطة «مجموعة اشتراكيين» وأن هويتها بدأت تبين بوضوح وأنه لابد من تلاحم صفوف جميع الاشتراكيين» والاندماج فى بوتقة واحدة ٠

وكان رأى مجلة الطريق وكنت أحد رؤساء تحريرها ان الميثاق يعتبر وثيقةوطنية ديمقراطية هامة وانه يصلحكأساس لجبهة وطنية ديمقراطية بينجميع القوى مع التأكيد بأناستمرار اعتقال «الاشتراكيين»وعدم وجود حركة وتنظيمات سياسية وجماهيرية قوية يمكن ان تفرغ الميثاق من كثير من مضمونه ٠

والتقيت بعاشور السجين الاخوانى زميل الدراسة وكان عاشور فى السنتين الاخيرتين معمجموعة من الاخوان قد بدأوا يشكلون تيارا متميزا داخل المسجونين من الاخوان المسلمين يمكن تسميته بالتيار الاشتراكيالاسلامى ٠٠ وكان هذا التيار يتفق مع الماركسيين تقريبا فى معظم المنطلقات الوطنية والطبقية مع محاولة لوضع كل ذلك على أرضية اسلامية ٠ .. وقد أطلق الاخوان على هذا التيار النامى وصفهم بأنهم «جماعة المؤيدين» وحاولوا عزلهم واتهموهم بأنهم متأثرين بالفكر الشيوعى ٠٠ أما بقية الاخوان فلقد ظلوا يعيشون على أمل تحقيق شعار واحد ٠٠ الانتقام من عبد الناصر

كان عاشور متحمسا للغاية للميثاق بل ومنفعلا بدرجة كبيرة ولكن السؤال الذى كان يحيره هو ٠ ٠ لماذا يبقى الماركسيون والاشتراكيون فى السجون والمعتقلات ٠

وحاولت ان أشرح له وجهةنظرى من انه بالرغم منأنالميثاق والاجراءات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة التى سبقته تمثل حقيقه «نقلة» فكرية تقدمية الا أن الامر يتم ببطء بل ويتهدده الأخطار لانه ليس هناك حركة جماهيرية منظمة ولان نفس الاجهزة هى التى تشرف «فى التطبيق» على هذا التحول ٠

ولكن عاشور الذى لم يكن قد تعود بعد على المنهج العلمى كان يرى ان «الامر غير مفهوم» وكان يحتد فى مناقشة أحيانا

وهو يقرأ نصوصا من الميثاق ويقول في حيرة تامة

— : قل لى ·· كيف يتسنى ان يكون ذلك هو السياسة الرسمية ثم تبقون فىالسجون ·· لقد سمعت منك منذالجامعة نفس التعبيرات والشعارات والاهداف فلماذا تبقى انت على الأقل داخل الاسوار لكى يمرح أمثال المصيلحى وغيره أو يتحولون بقدرة قادر الى اشتراكيين ·!

وكان أمرا محيرا حقا (تلخبط اللخبطان) على حد تعبيرعدلى عزيز وهو زميل مدرس عرف بخفة الدم خرج بنظرية تقول أننا سنقدم فى القريب العاجل الى المحاكمة باعتبارنا منالقوى الرجعية المعادية للتقدم والاشتراكية والديمقراطية ·

كنت طوال النهار أغرق مع الآخرين فى هذه المناقشات واللامعقوليات التى تحيط بها ·· أما فى الليل وحينما تهدأ الحركة فى المعتقل فقد كنت الجأ الى بعض الكتب وخاصة تلك التى تقدم نماذج المقاومة أستمد منها عونا كنت أحتاجه لاراحة أزمتى الخاصة التى لم أستطع بالطبع أن أنساها · ومن بين الكثير من الكتب من هذا النوعالتى تتحدث عن استشهاد بول ايلوار الشاعرالفرنسى العظيم على أيدى القتلةالفاشيست، وآلام فرتر «ولمن تدق الاجراس» واشعار ناظم حكمت وبابلو ناردا ولويس اراجوفن ، كان كتاب تقرير من المقصلة ليوليوس فوتشيك هو اقرب كتاب الى قلبى ·

بل استطيع أن أقول انه تقمصتنى لفترة روح فوتشيك وحفظت الكثير من كلماته الانسانية القوية التى كانت حقا تلعب دور الاكسير المقوى لمعنوياتى ولقدرتى على هضم وتحمل أزمة عينى ·

بل وتعمدت قبل أن أنام أن ألقن وصاياه العشر كما لو كنت أتلو كلمات من كتاب مقدس ·

(اننا أناس من معدن خاص صنعنا من مادة خاصة ·· اننا نحب الحياة ولذلك فاننا لانتردد فى المخاطر ، بحياتنا لكى نشعل ونمهد الطريق نحو حياة حقيقية حرة كاملة مرحة ، اننا لانتردد مطلقا فى التضحية بمصالحنا الشخصية لكى

نفوز بمكان لائق تحت الشمس من أجل انسان حر سليم مرح لايتعرض لارهاب او استغلال .

اننا نحب الحرية ولذلك فاننا لانتردد لحظة واحدة فى اخضاع حريتنا من اجل حرية البشرية كلـــها .

اننا نحب العمل الخلاق نحب النمو البناء ولذلك فلن نضن بجهدا او تضحية فى النضال من اجل تحقيق نظام نجد فيـه كافة القوى الخلاقه فى البشرية وكل فرد فيها مجالا وتطويرا كاملا .. اننا نحب السلام ولذلك فنحن نكافح .

كنت فى حاجة ماسة ليوليوس فوتشيك ذلك الشـــاب الصحفى التشيكى الذى ارتبط بألام واحلام شعبه وحينما قاده الجلادون النازيون الى غرفة الاعدام كان اخر كلماته « ايهـــا الشعب .. انى احبك .

وسأظل مدينا لروح فوتشيك قبل اى انسان اخر فى تلك الطاقة التى كان يشعها داخلى لأتحمل مصيرا كان يتراقص امامى كالشبح الاسود لينذر بالظلام وانطفاء النور والى الابد . بل لقد كان فوتشيك هو الذى يجعلنى اقول وانا اتقلب على البرش وسط الزملاء الذين استغرقوا فى النوم (فلتذهب العين اذا كانوا يريدون ذلك ولكن سأظل احبك .. ايهـــا الشعب) .

كان قد مضى حوالى الشهرين منذ عودتى الاخيرة من القصر العينى وكان الزملاء الاطباء قد رأوا ان الخطـر الاســاسى يتمثل فى عينى اليسرى التى بدأت أحوالها تتدهور بشكل ملموس اما العين اليمنى فلقد كان الخطر مازال بعيدا .. ولقد عملوا طوال الشهرين على ان اتعاطى بعض الادوية التى تخفـف او تقلل من الاخطار بقدر الامكان .

وذات مساء جاء الى غرفتى الزميل ابو سيف يوسف والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وفوجئت بهم يعرضون عـلى بعض الصحف والمجلات العربية والاجنبية وفيها موضوعات تحت عنوان « انقذوا عين الصحفى الشاب .. » وقد كانت لحظـة تعويض لاتقدر .. اذن فلم يكن هناك سكون وصمت طوال الشـهرين الماضيين كما كنت اتصور بل كان هناك عمل عظيم من

جانب الزملاء ٠٠ وفى صمت وانعكس فى كل تلك النداءات التى امتلاءت بها الصحف العربية والاجنبية .

وقال ابو سيف

ـ كنا نقدر الظروف ، ولم نريد ان نعمق الاحساس بخطورة حالتك ، ولكى الوقت الان يختلف ٠٠ ان هناك حملة واسعة من اجل انقاذ عينيك ، ولقد جان الوقت لنتخذ موقفا حاسما .

كم هو جميل ان تضمك روح الجماعة وتثير فى قلبك مشاعر سامية تهبك قدرة شمشون وحاولت ان اقول شيئا فلم استطيع كانت المفاجاءة اقوى واعظم من اى كلمة يمكن ان تقال ذلك واجتاحنى احساس باننا اقوياء فعلا قادرون على الحب والدفاع عن الحياة .

وتذكرت الحملة التى نظمناها فى جريدة المساء منذ سنوات من أجل انقاذ جميله بوحريد وكيف نجحنا

فى هذه الحملة بأن يذهب اكثر من مليون خطاب الى الحكومة الفرنسية والى همرشلد سكرتير الامم المتحدة فى ذلك الوقت من أجل انقاذ المناضلة الجزائرية من حكم الاعدام الذى صدر ضدها ودركت ساعتها وبشكل علمى احد معانى النظرية التى كنت أومن بها وهى ان اى دفاع عن حق الانسان فى الوجود والتحرر فى اى مكان فى العالم هو دفاع ذاتى ايضا .

وحينما كنت اقرأ برقية لاتحاد الصحفيين العالمى فى براغ واخرى لاتحاد الشباب العالمى وثالثة من لجنة الكنائس و ٠٠ وكلها تطالب بانقاذ عينى غمرنى احساس بأنى جزء من جسد كبير يسعى كله الى لفظ الافات والجراثيم من داخله .

واحست ان كل شىء يمكن ان يهون مقابل لحظة مثل هذه تتجسد فيها كل تلك المعانى الانسانية معنى تتجسد فيها وتتوحد قوى الخير الكامنة فى البشرية كلها .

وفى صباح اليوم التالى كانت هناك مفاجاءة ثانية .

لقد اضرب اربعة من الزملاء عن الطعام حتى يتم نقلى وعلاجى فى القاهرة ٠٠ وقد اختير الاربعة من ذوى الاسماء المعروفة على

النطاق المحلى والعربى والعالمى وهم الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله ونبيل الهلالى وعبد المنعم شتلة وحلمى يس .
وحاولت ان اعترض وان اؤكد اننى فى حالة جيدة ولست اريد لاحد ان يضار من اجلى وخاصة أن امامنا مهام ونضالا اكثر الحاحا من قضية خاصة مثل عينى .
وصرخ فى وجهى الزميل ابو يوسف ربما لاول مرة فى حياته
— يااخى هذا ليس دفاعا عنك وانما دفاعا عن كل الزملاء .. انك لم تتخلص بعد من الحساسيات البرجوازية الزائفة .

وبقدر ماآلمتنى كلمات أو سيف بقدر ما احسست بصدقها وحقيقتها . الحساسيات البرجوازية الزائفة ربما قلتها قبل ذلك عشرات المرات ولكنى لم اكان ادرك معناها الحقيقى تكون فى وضوح تام مع النفس ومع الاخرين وحتى لو كنا اننا ابناء مجتمع منافق كذاب مخادع .. ولاتعرف كيف نزعم لانفسنا اننا نحمل افكارا وقيما جديدة .
لقد كنت بالفعل وكنت اخسر كل يوم جزءا من قدرتى على المقاومة ولقد كنت فى حاجة ماسة احيانا لان اصرخ :
— عينى تذهب .. عينى تذهب .
ولكن النفاق البرجوازى الزائف كان يجعل الامور تمضى من السطح كما لو كان كل شىء على مايرام كم كان صادقا ورائعا هذا الرفيق ابو سيف الذى فجر فى داخلى دملا آخر من دمامل النفاق كان يختبىء فى اعماقى .
وفى اليوم الرابع من الاضراب جاءت الاوامر من القاهرة بترحيلى الى القاهرة .

وطوال الطريق كانت معى اشعار ناظم حكمت وهذا الدفء الغريب الذى يعكسه وهو يعانى السنوات الطوال داخل السجن .. كنت اقف بجوار نافذة القطار اردد بصوت مسموع على حقول القطن الفارقه فى ضوء القمر
ايها الاخوة
فى اوربا وآسيا وأمريكا

لستفي السجن ..
بل أنا مستلق على مرج اخضر ..
وفي مساء يوم من الايام
ارى عيونكم فوق رأسي
تلمع مثل النجوم
تلمع مثل عيني امي
ويدحبيبتي
ايها الاخوة
انكم لم تهجروني ..
وكم انا سعيد ..
وقد كنت حقا سعيدا في تلك الليلة

وعنــــدما تغلق الزنازين فى سكون الليل ويغلب النعــاس جفون المساجين يتجه قلبى الى منزل صغير .

ناظم حكمت

اكتوبر ١٩٦٢

واحد ياورد .. اثنين يافل .. ثلاثة يا ياسمين .
ويصرخ شاويش العنبر
— انت ياواد يابتاع زنزانه ١٥ .. انخمد ناه الساعه بقت ١٢ .. ويواصل الصوت بعد مساء الليل على غفر الليل .. شنجى وكنجى وبرنجى .

ويعود شاويش العنبر ليحتج بلهجة اكثر عنفا :
— قلت اخمد احسن ما يحصلكش طيب .
ولكن الصوت يستمر
واحد ياورد .. اثنين يافل .. ثلاثة يا ياســـمين اربعة يا اجدع ناس مقلمين .
— طيب والله يابن الرفضى لاوريك بكره .. الصباح رباح .
ويعلو الصوت
خمسة ياكركية .. وبقيت الدور لومانجيه
ستة يازهرة الشباب والحركة الوطنية
سبعة ياقرانات ولومانجية
ثمانية يارجالة حي البطلية .
نشيد غريب كل ليلة تقريبا من احد الزنازين المغلقه كمقدمة للاعلان عن الافراج عن احدهم وينتهى عاده

نعرفكم ياخوانى ان « فلان » من اعيان روض الفرج خـــارج افراج بكرة .. وعقبال عندنا وعندكوم يا حبايب .
وغالبا ما يكون هذا الفلان الذى هو احد اعيان روض الفرج نشالا محترما أو هجاما أو لص خزائن او تاجر حشيش .

ولقد كنت كثيرا احاول ان اهدىء من ثائرة الشـــاويش السهران فى العنبر حين تقلقه هذه الاصوات وتوقظـه من نومه فيحاول ان يتوعد صاحبها بالويل والثبور والتأديب .

وغالبا ما كان الشاويش بعد ان يكون النوم قد طار من عينية يأتى الى زنزانتى لنتحدث سويا .. ولقد كانت المصـــالح المشتركة .. فأنا ازوده بالسجائر وبعض ماصرفته من الكنتين بينما يزودنى بالشاى وبعض الخطابات والحواديت عن سجن مصر .. وارامیدان .. او القصر العالى كما وصفته بهية وهى تنعى ياسين .

كانت هذه اول مرة ابقى فيها لفتره طويلة فى سجن مصر لاستكشف عالما غريبا ومثيرا يختلف تماما عن العـــالم الذى يحيط به ولايفصلها سوى اسوار السجن .

حقيقة اننى تنقلت فى معتقلات كثيرة كمازرت سجن اسيوط ولكن أراميدان الذى يقبع على بضع خطوات من حى القلعة اقدم احياء القاهرة، كان استكشافا بالنسبة لى على طول الخط.

ان اشهر سجن فى مصر والذى كان من اول ثمار « التعمير البريطانى » لايختلف كثيرا فى مبناه عن بقية السجون المصرية التى بنيت هى اخرى على النظام البريطانى .. عنبر او ثلاثة يحتوى كل عنبر على اربعة ادوار ويحـــتوى كل دور على خمسين زنزانة تطل ابوابها على ممر دائرى .. نفس نظام سجن اسيوط .

ولكن المحتوى هنا يختلف .

فاذا كنت فى اسيوط قد رايت فلاحى مصر الطيبين الذين دخلوا السجن فيما يمكن ان يسمى بجرائم القيم القديمة مثل الثأر والعار والشرف او نتيجة للصراعات الطبقية والاجتماعية بين فقراء الفلاحين وكبار الملاك .

فان سجن مصر ملىء بما يمكن ان يطلق عليهم «حـــرافيش القاهر » .

النشالون والهجامون بمختلف تخصصاتهم المهنية .

والسماسرة والقوادون وتجار المخدرات .

ثم المختلسون والنصابون والمزيفون .

اى انها تلك الفئات التى تخرج عن اطار اى تصنيـــف طبقى والتى تحولت ، رغم انها فى النهاية ضحية ظروف وعلاقات

اجتماعية متخلفة ، الا انها قد خربت تماما من الداخل واصبحت عاجزة على ان تقدم شيئا نافعا للمجتمع .

ولقد كانت هناك امور كثيرة لم اكن لاستطيع أن افهمها دون معونة الشاويش عبد الستار حارس الليل .

فمثلا هذا النشيد الذى يلقى لدى الافراج عن احدهم .. وماذا يعنى هذا التصنيف للعنابر وخاصة عنبر ستة باعتباره زهرة الشباب والحركة الوطنية .

ـ أصل عنبر ستة زمان كانوا يصبغون فيه السياسيين والطلبة زى حضرتك .. من ايام صدقى كان عنبر سته عنبر الثوار

وجه فى العنبر ده .. الدكتور مندور ووسيم خالد وأنور السادات وعبد الرحمن الخميسى ولطفى الخولى .. وكثير وكثير قوى كلهم بعرفهم وكنت ادردش معاهم زى حضرتك .. ومن يومها المساجين تقول على عنبر ستة الكلام اللى سمعته .

ـ طيب والكركبة يعنى ايه

ـ : المستجدين .. اللى ينسجنوا لاول مرة .. واللومانجية الفاقدين .. أما القارانات فهم أصحاب المدد الطويلة .

ساعدنى الشاويش عبد الستار على معرفة بعض قاموس اللغة فى سجن مصر .

ولكن « النورس » كان استاذا لى حقا فى فهم واستيعاب عالم سجن مصر .

كان النورس احد القارانات يعتمد عليه شاويش العنبر فى امور كثيرة ابتداء من توزيع الجراية الى التمام على الزنازين عند اغلاقها فى المساء .. وما كان من الممكن ان يحتل بالطبع هذا المركز الممتاز الا اذا كان يتحلى بقدرة وسيطرة على الزملاء فى العنبر .

وهذا ما كان يحيرنى فمظهر « النورس » او احمد عبد الصبور لم يكن يوحى بأى قدرة او سيطرة فجسده ضئل نحيل وعيناه غائرتان كعيون الفار بل انه يتكلم بسرعة ويتهته كثيرا .

واكتشف بعد فترة ان قدرة النورس تتركز فى انه يملك « دماغا » .. لقد كان ذكيا ولماحا الى اقصى حد .

كان من الطبيعي ان تتوطد العلاقــة بيني وبين النـــورس ولقد كانت المصلحة مشتركة ايضا ٠

فالنورس هو قائد العنبر الذى يضم نوعيـات ليس هنـاك من طريق لاقامة علاقات معها من نشالين وقوادين وبورمجية ٠

ومن ناحيـــة اخرى كان يهم « النورس » ان يتعرف على الاستاذ الغريب فى هذا العنبر والذى يحترمه الشـــاويش ويســكن فى زنزانة منفردة وتمتلىء زنزانته ببعض منتجات الكانتين من سجاير وخلافه ٠

كان النورس حالما يفرغ من مهـــام القيـادة فى العنبر يأتى الى زنزانتى فأنفخه سيجارة وينجز يدخنها بشبق وهو جالس على باب الزنزانة ثم يبدأ حواديته ٠

ــ ولماذا سموك النورس ؟٠٠

ــ النورس ده يا بيه طائر بحر ٠٠ ذكى سريع ٠٠ زيى بالضبط هو يطير فوق البحر ويلمح ســـمكة وبسرعة ينزل ينقرها ويطلع ٠٠ وأنا أبقى ماشى فى الشارع المح « الزبونة » وبسرعة أخد الشنطه واختفى ٠٠ كان النورس متخصصا فى خطف شنط السيدات ، والسيدات الجميلات بشكل خاص ٠

ــ ليه بقى ؟ ٠٠

ــ شوف يابيه ٠٠ لازم « زبونتى » تبقى حلوه ومدندشه وباين عليها العز ٠٠ لسببين ، من ناحية تبقى الخطيفة تستاهل ومن ناحية اخرى أنتقم لنفسى

ــ : تنتقم من مين ؟

ــ : مرات أبويا ٠٠ كانت حلوة ودلوعـــة وحطت أبى فى جيبها ٠ أنا كنت بتعلم ووصلت لغاية ثانوى وكان فى دماغى حاجات كثيرة وكبيرة زى حضرتك كده ٠٠ انما مرات أبويا ٠٠ والدلع والحرمان والفلوس وخيانتها لأبى مع كل واحـــد فى العمارة ٠ وأبويا يغفرها ويضربنى انا ويحرمنى أنا ٠

ويسرح « النورس » أحيانا وتكتسى بوجهه سحابات كثيفة منذرة سرعان مايعود الى ضحكه وسخريته ٠

ــ : ماأنا برضه ثائر ٠٠ بس على قدى ٠٠ مش كـده واللا ايه ٠٠ كان من الممكن أن يكون فيلسوفا أو كاتبا أو حتىموظفا

كبيرا لاأقل من رئيس مجلس ادارة ٠٠!
ـ : ألم تفكر فى التوبة والاستقامة ٠.
ـ : التوبة ٠٠ انت تقول هذا ٠٠ أتوب من ماذا ؟ ٠٠ من ظلمهم من جبروتهم ، من تعسفهم ، من تملكهم لكل شيء ٠ ٠ الفرق بينى وبينك انك حالم تعيش فى الخيال ٠٠ شاعر ٠٠ تبنى قصورا فى الهواء ، انما أنا واقعى ٠٠ أنتقم لنفسى وبطريقتى ٠

ـ : ولكن السرقة لاتحل المشكلة حتى بالنسبة لك ٠
ـ : ومن قال لك اننى أريد ان أحل مشكلة ٠٠ اننى العب معهم لعبة القط والفار ٠٠ هم بالطبع القطط يحصلون على كل شيء ٠٠ ولكنى أشعر بسعادة بالغة حينما أتمكن من حرمانهم من قطعة جبن صغيرة ٠
ـ : ولكنك فى النهاية فار ٠٠ تقع دائما فى المصيدة ٠٠
ـ : ولو ٠٠ ولكنى أحرمهم أحيانا من قطعة جبن ٠٠ هـذا يكفى فلست على ستعدد لتكوين اتحاد عام للفئران ٠

وننهى بالطبع مناقشتنا الى لاشيء ٠٠ فهو مقتنع بانه يعيش فى غابة من الوحوش والحشرات ، وهو مقتنـع بأنه حشرة وليس وحشا وبالتالى فهو قانع بالفتات الذى يسرقه ٠
ومع ذلك فلم يكف النورس عن ممارسة عادة سيئة على حد تعبيره وهى قراءة الكتب ولقد اكتشفت انه قرأ لكتاب مصريين وأجانب كثيرين وأنه أتى على كل كتاب فى مكتبة السجن ٠

وحينما سألته اذا كان قد قرأ كتاب ارسين لوبين وشرلوك هولمز نظر الى فى عتاب

ـ : لقد قرأت لهمتجواى وطهحسين وشكسبير وتشيكوف٠ حقيقة انا فار ٠٠ ولكن فأر مثقف ٠٠ آكل الجبن والكتب الدسمة ٠٠ وذات يوم كنت قد ذهبت الى الحمـام وتركت الزنزانة مفتوحة ، وحينما عدت اكتشفت اختفاء بعض علب السجاير والسلمون وكوزين حلاوة كنت قد اشتريتهما من كانتين السجن ٠
وأبلغت النورس بالحادثة وابدى استغرابا وانزعاجا شديدين

وخاصة وقد لمح في نبرات صوتي رنة اتهام له ولم يعلق ولم ينطق بكلمة واحدة وانسحب في هدوء مثير ٠

وقبل التمام ولدى عودتي من دورة المياه ، اكتشفت ان المسروقات قد عادت وليس هذا فقط بل وكميات أكثر من تلك التي اختفت ٠

وعبثا حاولت ان اعثر على النورس في ذلك اليوم بل وأختفى تماما لعدة أيام عرفت انه طلب خلالها ان يذهب للعمل في المكتبة ٠٠ وحينما التقيت به بعد اسبوع وبعد الحاح من جانبي على الشاويش عبد الستار لمحت على وجهه انفعالات غريبة ومحاولة من جانبه بألا التقي بعينه اللتين امتلأتا بالدموع ٠

— لماذا قاطعتني كل تلك الفترة ؟ ٠٠

— لم اقاطعك ، ولكن كنت حزينا للغاية حينما احسست بأنك تتهمني ٠٠ حتى انت تعاملني كفار ٠٠ وطيبت خاطره وأقسمت له انني لم أكن اعنيه هو ٠٠

وحكى لي كيف انه بعد ان تركني مر على كل زنزانة وأخذ يلعن النزلاء لهذه الجريمة الشنعاء ٠٠

— من الذي سرق الاستاذيا أولاد الـ .. الا تعرفون انه في السجن هنا من أجل الغلابة ٠٠ لازم قبل التمام تروح له كل الحاجات ٠٠ ولازم اعرف من الذي عمل العملة السودة دي ٠٠

والذي حدث انهم جمعوا فيما بينهم تلك الحاجيات وأرسلوها الى الزنزانة في محاولة لاسترضائي ٠

— ألم تعرف من الذي فعلها ؟

— عرفته ٠٠ وقد ندم بشدة وهو يريد أن يأتي ويعتذر لك ٠٠

كانت الامور تجري من السطح وطوال ذلك الشهر الذي قضيته في سجن مصر في علاقات وحكايات مع النورس والشاويش عبد الستار ولكن ذلك لم يكن سوى الصورة من السطح ٠٠

فمنذ رحلت الى القاهرة بعد اضراب الزملاء الاربعة في

الواحات جاءوا بى الى سجن مصر وبعد أربعة أيام وبالتحديد فى يوم الاحد ، ذهبوا بى الى القصر العينى لاعرض مرة اخرى على .. امين زايد .. ورفضت بالطبع ان اعرض عليه فلم اكن فى حاجة الى معرفة رأيه .. وطالبت بأن اعرض على الدكتـــور عصام توفيق أو أى طبيب آخر ..

والحقيقة اننى فقدت اعصابى تماما فى ذلك اليوم فلم اكن اتصور بعد كل ما حدث بينى وبين امين زايد وبعد كل تلك الضجة التى اثيرت وشهرين قضيتهما فى الواحات افقد كل يوم جزء من بصرى نتيجـــة موقف هذا الطبيب ان اركن فى السجن لكى اعرض فى نفس اليوم الذى يكون فيه مسئولا عن استقبال العيون .

وأخذت وأنا فى حالة هياج شـــــديد أوزع الانفعالات والشتائم دون معايير أو ضبط ..

وعدت الى سجن مصر بعد أن اشر الضابط المرافق والذى كان مختارا بعناية ، بأننى رفضت العلاج !!

اكثر من شهر ونصف مضيا على فى تلك الزنزانة فى دور سته فى سجن مصر احتج وأكتب المذكرات وأقابل المسئولين فى السجن ابتداء من مدير السجن حتى الضـــــابط وطبيب مستشفى السجن ولا أجد ردا محددا سوى تعاطف مع حالتى مع عجز عن أى تصرف وحينما التقيت بمدير السجن وقد كان حقيقة انســـان طيب ، وهددت بأنه يتحمل مسئولية تدهور حالتي وبقائى فى السجن دون علاج قال الرجل فى لحظة صدق هادئة .

ـــ اسمع يابنى .. انا عندى ولد زيك طالب فى الجامعة ومريض .. ومقدر حالتك تماما وأود ان افعل شـــيئا ولكنك تعرف انك « وديعة » عندنا فقط .. المسؤل عنك هى المباحث العامة ولست انا .. وعلى أى حال فلقد تحـدثت معهم مرارا بشأنك وسيأتى أحدهم لمقابلتك غدا ولم يأت المسؤل المباحثى فى الغد ولكنه جاء بعد يومين .. كان نفس الضابط المهذب الذى التقيت به فى القصر العينى وفى غرفة وكيل الســـجن كان الصراع ....

جاء مهاجما هذه المرة ومتخليا عن كل الشكليات التى كان يحرص عليها .

— ماذا تريدنا ان نفعل .. جئنا بك للعلاج ثلاث مرات وأنت الذى ترفض العلاج ؟ ..

— اننى لم أرفض العــلاج وأنت تعرف هذا جيــدا .. ولكنى ارفض أمين زايد ..

وما دخلنــا نحن .. انه مدرس فى القصر ويمارس عمله كطبيب ؟

— هناك عشرات غيره .. هناك عصام توفيق واساتذة آخرون لماذا رفضتم تشخيص عصام توفيق ولماذا تصرون على عرضى كل مرة على امين زايد .. ليه .. ليه .. ؟

ودار الحوار هكذا فى طريق مسدود وهو يحتد احيانا ولكن بحســاب وأنا أحتد دائما وبدون حســاب ، ووكيل السجن يتدخل بين الحين والاخر لتلطيف الجو ..

منطقه أن مسؤليتهم تتحدد فقط فى عرضى على الاخصائى وأنهم قد أخلوا مســـؤليتهم بترحيلى ثلاث مرات الى القصر العينى ..

قلت : اذن فهناك اصرار من جانبكم على أن أفقد بصرى ، ليكن .. فلماذا تضعونى هنا فى سجن مصر ..

— هنا أفضل بعيدا عن الصحراء والشمس والرمال ..

— هذا ليس مكان للمعتقلين فاما ان اعــالج فى احــد المستشفيات أو ارحل الى الواحات ..

— ترحــل للواحات لتثير زملاءك مرة اخرى .. بصراحة نحن لا نريد صداعا ؟

— ولكن سجن مصر ليس مكانا للعلاج ؟ ..

— على أى حال فهذا أفضل بالنسبة لنا من أى مكان اخر حتى نصل الى قرار فى أمرك ..

— حضرة الضابط ، الامر لا يحتاج الى قرار ودراســة ومماطلة .. كل شىء واضح ، اما ان أرسل للعــلاج فى أحد مستشفيات الجامعة أو أعود الى الواحات .

— يا أخى .. لماذا تعقدها هكذا .. يمكن قعادك هنــا خير .. الطريق لبيتك أقصر ..

قال هذه الكلمات وهو يعود الى طريقته المهذبة القديمة .

ورفضــــت ان التقط الطعم الذى رماه وعـــدت اطـالب أما بالعلاج أو بالعودة الى الواحات .. ؟

ولكنه عاد يتحدث عن الافراج وعن دراسة حالتى والمشاكل التى اسببها لهم وبأنهم يريدون ان يرتاحوا منها ..

ثم قال وهو يغادر الغرفة :

— مالك كده مش زى عوايدك ، خلى نفسك طويل البال دانت راجل رئيس تحرير .. يمكن يا سيدى تطلع من هنا على بيتكم .. المسألة سهلة زى ما أنت عارف ..

وترك الغرفة بسرعة حتى قبل ان افكر فى الرد عليه ..

وتأكد لى ، ولاول مرة ، اننى وقعت فى فخ حقيقى .. بعيدا عن العلاج ، بعيدا عن الزملاء وروح الجمـــاعة .. فى زنزانة مظلمة معتمة وسط أناس لا يمكن أن تعايشــــهم .. والعين تضيع فى كل لحظة .. والطريق الى بيتك قصير ..

كان فخا محكما ..

دع المصباح يشتعل لأرى
وجهك والزهور تنتظم لتتوج
جبهتك قبل ان اذهب ، دعنى
أردد نغمتى الاخيرة لاتم
موسيقاه ٠

« طاغور »

نوفمبر ١٩٦٢ ٠

ليست المشكلة فى أن تعانى طالما تعرف لماذا ، وتظل فى النهاية قادرا على ان تحسم المعاناة والالم بقرار داخلى حاسم يغمرك بسلام نفسى عميق ٠

ولكنها تصبح مشكلة حقا حين تعجز عن تحقيق هذا السلام الداخلى ، فتهتز الصورة أمامك ويتوه خيط التفكير فى

الرأس وتحاصرك ازمة المعاناة فى حلبة ضيقة فلا تعرف اين تتجه خطواتك وهل هى فى الطريق الصحيح لم لا ؟ ٠٠ وهنا يمكن ان يحدث اى شىء ٠

ولقد كنت طوال الاشهر الماضية ، اى منذ بدأت معركة عينى ، قادرا على ان اتخذ القرار الداخلى الحاسم ٠

ولكن الامر فى زنزانة ٣٠ فى دور ستة سجن مصر لم يكن يشجع على الاطلاق للاستمرار فى هذه القدرة ٠٠ والغريب انى كنت أعن ذلك تماما ٠

ستون يوما مضت منذ جئت الى هذا السجن قابعا فى تلك الزنزانة التى لا تزيد عن ثلاثة امتار طولا وعرضا وفتحتها المقبضة الى أعلا ٠٠ بعيدا عن العلاج بعيدا عن الزملاء بعيدا عن أى رقعه من اى نوع سوى نماذج مستهلكة مخربة فقدت أحساسها بأدميتها وتعودت ان تعيش مثلما تعيش الجرزان

تقاتل من اجل قطعة جبن وتلوذ الى جحورها هاربة مذعورة لدى صفارة الشاويش .

حتى « النورس » بما فيه من بعض بقايا انسانية رحل من سجن مصر الى طرة بعد ان صدر ضده حكم بالاشغال الشاقة المؤقته .

واخـذت امضـغ الوحدة والوكها بمرارة ، وكل يوم يمر أحس بأن بعض قطارات الامل والثقة تتبخر من داخلى ويزداد احساسى بالكآبة .

وبدأت أعزف عن التسلية الوحيدة التى كنت اهرب فيها بعض الساعات وهى القراءة بعد ان استنزفت تقريبا كل مـا يمكن أن يقرأه فى مكتبة السـجن وبدأت ايام تمر دون ان اتبادل كلمة مع انسان حتى شاويش العنبر الجديد كان مملا الى الـدرجة التى لا تغرى بضياع دقيقة واحدة معه .. بل وبدأت افقد الاحساس بالفرق بـين الليـل والنهار او بـين الاستيقاظ والنوم ، وكثيرا ما كنت اسـتلقى على السرير الحديدى وعينى مفتوحة وهمهمات السجن فى اذنى ، ورأسى تدور فى أماكن اخرى تماما ، أحيانا فى الواحات بين الزملاء وأحيانا فى القصر العينى وكثيرا ما أنسى الحاضر كله واستسلم لشريط باهت مـن ذكريات ما قبـل الاعتقال .. وفى بعـد الاحيـان أقف وسـط الزنزانة والقى خطبة طويلة بصـوت مسموع او اقوم بتمثيل بعض المشاهد المسرحيـة أو أؤلف لنفسى دورا خاصا امثل به على نفسى ..

وتحولت الدقائق الى ساعات والساعات الى ايام حتى القلم لم يعد يجدى وفقد سحره وعجزت لاول مرة عـلى ان أكتب جملة مفيـدة .. حاولت ولليلة طويلة ان اكتب شيئا ولكن القلم لا يكتب والعقل شارد غير قادر حتى أن يحلق فى اجواء الزنزانة وكانت حصيلة ليلة كاملة عدة سـطور لا يمكن أن تكون فيما بينها جملة مفيدة .

أما لعبة السيجة التى اسـتطاعت ان تشـغلنى ليـلة أو ليلتين وانا اقـوم بدور اللاعب والطرف الآخر معـا فسرعان ماسئمتها وألقيت بالكرات التى شكلتها من لبابة العيش فى

جردل البول ٠٠٠ وبدأت اخاف عـــلى نفسى ٠٠ نعم بدات أخـاف ٠

وأخذت اتذكر هؤلاء الزملاء الذين كنت اشفق بهم واحرص عـــلى مساندتهم ، حينما كانوا يترددون الى جانب الســور يعيشون مع أزماتهم الخاصة في وحدة وصــمت ٠٠ وتذكرت ذلك الزميل الذى كنت اواسيه واشجعه عـلى تحمل مأساته وهو يقول لى بصوت مختلج ٠

— : يدك فى الماء البارد ٠٠٠ فأنت لا تعرف ٠

ولكن يدى يا زميلى هى الآن في الزيت المغلى وبدأت اعرف الخوف والقلق المدمر ٠٠ وحينما كنت اقضي الليل كله اقطع الامتـار الثلاثة ذهابا وأيابا ويدى خلف ظهرى كانت رأسى تموج بتيارات شتى ٠

رزق مكارى وهو يجوب عنبر الواحات يتساءل .. اخرج اولا أخرج ٠

والضابط الشاب وهو يقول فى اخر لقاء ٠٠ انت قربت الآن من منزلك والمسألة بسيطة كما تعرف ٠

وأبى يقول لى فى اخر مرة فى القصر العينى ٠

— يأبنى ٠٠ انقـذ عينيك وشـــبابك وما فى القلب فى القلب ٠٠ وافعل ما أمر به رســـول الله بلال الحبشى حينما كانوا يعذبوه فى بطاح مكة .. والدكتور عبد المنعم عبيد هو يقول لى فى الواحات قبل السفر الاخير ٠

— لابد من اجراء العملية وبسرعة ، لا ترجع هذه المرة دون علاج ٠٠ وابو سيف يوسف يقول في صوته الهامس ٠

قلوبنا معك ٠٠ انهـا ليست قضية عينيك وحـدك ، انها قضيتنا جميعا ٠ ومحسن الخياط يغنى على البرش بجوارى ٠

عشان انسان
أحب واثور وأتالم
واغنيله ..
وفجرى لو يطول ليله
اناديله
وأولع له قناديله

ما دام عندى امل بكرة .. اشوف الفجر
بكره الفجر هينور .

ولكن اكثر من فجر يمر يا محسن وقلبى حزين ودائرة الكآبة تضيق الخناق على القلب .. متى يأتى هذا الفجر بدون أسوار وحراس، متى يأتى هذا الفجر الحر، متى ... متى كنت قد كففت عن الاحتجاج بعد أن أدركت متأخرا انه كلما كان يبلغهم ضيقى بسجن مصر واضطراب اعصابى كلما كان كان ذلك يفتح شهيتهم للاستمرار فى اللعبة .

ولكنى وبالرغم من كل مظاهر التمسك الخارجى التى كنت احرص عليها وخاصة أمام المسئولين فى السجن الا ان اعصابى بدأت تخوننى وبوضوح فى مرات كثيرة .. ففى أحد الليالى اخذت ادق بعنف متواصل على باب الزنزانة .. وفى يوم اخر القيت بالاكل فى وجه الحارس المساعد للعنبر ، وفى يوم آخر رفضت بأصرار اغلاق الزنزانة عند التمام واضطر الشاويش ان يستنجد بوكيل السجن .

كانت كلها انفعالات تلقائية وغير مجدية ولكنها تعبر فى النهاية عن العجز والاحباط وعدم القدرة على التصرف والتحكم .

ولقد كان يعقب كل هذا استدعاء من جانب وكيل السجن الذى كان فيما يبدو موصى على لكى يعيد على مسامعى استعداده لبذل مساعيه الحميدة لدى المباحث بشرط .. ان اكون مستعدا للتفاهم .. أى تفاهم يا حضرة الضابط !! .. ان أعيش خرقة بالية ! ان اشرخ كيانى كله لاظل بعد ذلك فاقد الثقة بالنفس وبالحياة وبكل شىء .. ان اتحول الى « اغا » جديد فاقد الطعم واللون والرائحة ، والعمى .. أليس هو الاخر بديل مزعج .. ان تحتفظ بلونك الداخلى وتفقد القدرة على تمييز الالوان الخارجية .. ان تعيش فى ليل دائم فى سجن ابدى من الظلمة والظلام .. واصبحت الواحات أملا لى فى صحراء سجن مصر ...ابتسامة الرفاق ودفء الامال فى الصدور رنة المستقبل التى ما زالت تتردد فى كلماتهم ...

الانسانية المتفجرة فى القلوب ، كم انا محتاج لكم ، كم أنا في اشد الاحتياج لكم ٠٠ لماذا لا تمددا ايديكم الطويلة لتخطفونى ٠٠ انى اختنق ، اتعذب ، كأنه حائر ٠٠ اننى أضعف واصبحت اخاف على نفسى ٠٠ عينى تذهب ، صبرى ينفذ ، والامل كريه لاول مرة يتراقص على وجه ضابط المباحث وايحاءاته ٠

لو كانت القضية مجرد ايمان بفكرة لهان الامر فلن نخسر الفكرة كثيرا اذا فقدت واحدا ولكن القضية أنا ٠٠٠ انسانيتى ، احساسى بذاتى .. كيف اشرح نفسى بنفسى .. كيف يمكن أن أعيش محنى الرأس يلازمنى احساسى بالعجز والضعف امضى على رصيف الشارع واخاف الظل ٠٠ لا أستطيع ٠

بالله عليكم يا بنات اورشليم هل رأيتن فتى كان جبينه الاسمر ينضح بالحب والحياة ٠٠ لا تتركوه يتوه منكن فى شعاب الحيرة والتردد واليأس ٠٠ وماذا يفيد الانسان اذا كسب العالم وخسر نفسه ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب نفسه وخسر العالم ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب عينيه وخسر حريته ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب حريته وخسر عينيه ٠٠ ماذا يفيد وماذا لا يفيد ٠٠ ؟

لا أحد يجيب ٠٠ ولكن اشارات كثيرة ٠

الضابط المهذب يشير بأصبعه ليعطينى قلما وورقة ، والزملاء من بعيد يفتحون اذرعتهم ، وابى الصامت وعينى تذهب والسجن كئيب كئيب .. والجو ثقيل كالرصاص وانا أصرخ ٠٠ اصرخ تعالوا معى ٠٠ وقابلت وكيل السجن ، وقلت له اننى اريد ان التقى بمسئول من المباحث العامة ، ولم يخف الرجل فرحته فلقد احس انه نجح فى مهمته ٠٠ وبعد ساعة واحدة كان الضابط المهذب فى غرفة وكيل السجن وعلى وجهه ابتسامة الانتصار واسعة .

ــ : يبدوا أنك قد عقلت أخيرا ٠٠

ــ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ــ انت تعرف الصيغة ٠٠ اعطه ورقة وقلم ٠

ــ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

– لماذا لا تكتب .. المسألة لا تحتاج الى تفكير .. بعد اقل من اسبوع ستنتقل الى القصر العينى لتعالج .. وغالبا سيتم الافراج هناك .

– حضرة الضابط .. انا لم اطلبـك الى هنـا لكى اكتب شيئا .. ولكنى اريد ان ابلغك اننى اطالب بترحيلى فورا الى معتقل الواحات واحملك مسئولية اى تأخير .

قلت هذه الكلمات وسكت فلقد أخذت الليل كله اختارها كلمة كلمة لكى لا ابدو منهارا ولكى لا تشير كلماتى بالاحساس الكامل بالضياع .. ولن انسى نظرة الضابط الملتهبة الغامضة وهـو يخرج فى عصبية والدهشة التى ارتسمت عـلى وجه وكيل السجن الذى كان يمنى نفسه بترقيه والذى استدرك نفسه وخرج مهرولا وراء ضابط المباحث .

وظللت وحدى فى غرفة وكيـل السـجن استعيد المنظر واستعيد من خلالة جزءا من الثقة التى افتقدتها ، ولكن ذلك لم يدم طويلا فلقد عاد الوكيـل بوجهه مفكرا وهـو يصرخ حسرة على الترقية .

– ايه اللى انت عملته ده .. هو شغل عيال .. اتفضـل على الزنزانة ويكون فى علمك انك لن ترحل من هنا الى اى مكان اخر .. وهنـاك تعليمات جـديدة بشـأنك .. الكتب ممنوعة الجرائد ممنوعة .. الفسحة ساعة واحـدة والزنزانة مقفولة طول الوقت .. اتفضـل .. اتفضـل .. اسـحبه يا عسكرى .

وعـدت الى الزنزانة التى اصـبحت مغلقة طوال الوقت ، ولكن ذلك ليس هو المهم .. فلم اكن لاحفل بقائمة التهديدات والممنوعات التى حفل بها حديث وكيـل السـجن فلقد كفت هذه الاشياء الصغيرة من ان تصبح شيئا مغريا الى منذ فترة . للكتب والجرائد والكانتين والفسحة ، كلها تحولت الى اشياء بلا معنى فى ظل احساس متزايد يستبد بكيانى من انه لابد وان يحدث شئ ، شئ حقيقى يغير الصورة كلها .. حقيقة لم أعد أحتمل وجودى يوما واحدا فى سجن مصر .. ولكن كل الطرق الاخرى مغلقة .

وتذكرت الحسين بن على بعد ان فقد كل انصاره واهله ولم

يبق معه سوى حفنه من الاهل غالبتهم من النساء والاطفال . سدوا عليه كل الطرق ، حالوا بينه وبين المياه يروى عطشه ، وحالوا بينه وبين العودة الى مدينة جدة وحالوا بينه وبين المضى الى الكوفة .. وحتى مقابلة الحاكم رفضوه اياها .

وكان الرد قاسي : والله لا نتركك حتى تبايع ليزيد أو نجتز رأسك .. لقد كان الحسين أكثر حظا ، كان معه سيف على الاقل .. ولكن اين سيفى .. ان جسدى كله ينهد واتكور كجرز كبير فى ركن من الزنزانة .. اليس من حل ! .. أدرك ، أدرك تماما اننى اصبحت ضعيفا واننى يمكن ان انهار .. ابايع بطريقتهم الخاصة .. ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا ، كيف امسك الورقة والقلم .. ماذا اكتب .. مستحيل اريد ان اظل لاخر لحظة انسانا حقيقيا وليس دمية مستهلكة .. لقد آمنت بعظمة الانسان بحريته بقدراته وطاقاته .. يا الهى .. يا كل الالهة ، يا كل رموز الخير .. أليس من حل .

يا حسين بن على ، يافوتشيك يا ناظم يا كل من دافع عن الانسان والحياة يا كل من دافع عن قيم الحرية والعدالة .

اننى فى حاجة اليكم .. ماذا افعل .. ؟

ودوامات عاصفة وتمزق كامل وعجز حتى عن الحركة .. ماذا جرى ... اين اشراقة الامل التى كنت دائما أتعلق بها اين البحار التى لم اعبرها بعد ، أين تلك الايام الجميلة التى لم اعشها بعد اين تلك الاحلام التى لم احققها بعد .. اين يا ناظم ؟ .. كم انا فى حاجة اليك ..

موجات سوداء قاتلة والخوف .. الخوف ان تتحول الى لا انسان كل شىء ممكن الا ان نتحول الى لا انسان .

واذا كان ولا مفر .

وتناولت حبة نوفالجين ، واسترعى انتباهى وجود كميات كبيرة من النوفالجين واللومنيال فلقد كنت احرص على أن تتوفر لى أكبر كمية من المسكنات والمنومات فى الفترة الماضية .

ولمعت الفكرة فى العقل المكدود .. ايمكن ان يكون هذا . ولم لا .. ليس هنلك من سيف تدافع به عن انسانيتك

سوى ·· ولكنه هروب من الحيـاة ، ولم لا يكون دفاعا عـن الحياة ··· ولكنه احساس بالعجز والضعف ·· نعم ولكنه ايضـا انهاء للعجز والضعف قبـل ان يصـل بك الى حظيرة الحيوانات ·

ماذا يقول الزملاء خاف وانهار ·· بل سـيقولون خاف أن ينهار ·

لقد استشهد الحسين ، بل انه قد انتحر في واقـع الامر حين جرد سيفه وحيدا فى مواجهة جيش بالالاف وقد رفض ان يبايع ·

وأعدم فوتشيك وقـد رفض ان يبيع انسانيته ·· الامر لا يختلف ·· بـل الامر يختلف ·· الموت يمكن ان يـكون دفاعا عن الحياة ·

ولـكن الانتحار هروب ·· في بعض الاحيـان يمكن ان يكون شجاعة ·· هروب ، شجاعة ، خوف ، ثقة ·· كل هذه الكلمات المتناقضة تتداخل ·· ولكن لابد من قرار فى النهاية قبل ان افقد القدرة تماما على اتخاذ القرار ·· ان يوما آخر قد يعقد المشكلة فقد يصل الخوف الى القلب ولحظتها لا يمكن التحكم ·

لابد من قرار ·

أكثر من أربع وعشرين ساعة وسط تلك الدوامة الكاسحة وفى الساعة العاشرة مـن مساء ٢١ نوفمبر اى نفس الليـلة والساعة التى ولدت فيها منذ ٢٦ عاما ·· استطعت ان اتخذ القرار ··

وأحسست بارتياح من نوع غريب ·· ارتياح من استطاع ان يقول كلمة مفيدة فى النهاية حتى ولو كانت تعنى الموت ·

وجلست في هـدوء وصـفاء ذهنى نادرين أكتب ثلاث خطابات ·· كتبت الاول الى ابى العزيز ·· وكتبت الثانى الى رفاقى العظام ·· وكتبت الثالث الى حسن المصيلحى · استعدت مع ابى فى الخطاب ذكريات حلوة معه وقلت له فى النهاية ·· لقد كنت دائما تقول : ان الرجل هو الذكرى ، واعتقد انك لن تفقد ابنا اخر فلقد تركت شيئا اعتقد انك يمكن ان تفخر به ·

وكتبت الى الرفاق اشرح الموقف باختصـــار وابرر موقفى موقفى وقرارى ٠ بأنه ليس هروبا من الحياه بل دفاعا عنها ٠
أن المصيلحى فقد كتبت له عدة أســطر لازلت اذكرهـــا بالحرف الواحد ٠

«خابت أمانيك ومخططاتك اللاانسـانية .. ولعلك تدرك الان من منا يستطيع أن ينتصر ٠٠ الانسان بعقله وقلبــة أم الوحش بمخالبة ٠٠ فلقد انتصرت عليـــك حتى بالموت ٠٠ وجلست على السرير ، ادخن آخر سيجارة .. واتأمل جدار الزنزانة الداكن وارى ابى يخلع نظارته بهدوء ويمسح دمعه ونبيل ذكى بمــلابس الواحات يمــد يده والمصــيلحى يصرخ وأمين زايد يمسك بسيخ محمى بالنار واختى تضـــع يدها على خدها فى استسلام ٠٠ وتتراقص وتتداخل صورهم بل وأحيانا أصواتهم وكأننى أشاهد احد افلام الموضة الجديدة ٠
فأفقت على الترانيم التى تسبق اذان الفجر مــن المســجد المجاور ، وتناولت انبوبة النوفالجين واخذت عشرة حبـــات اذبتها فى قدر قليل من الماء وشربتها .. واحسست بحصه فى الحلق فتناولت قدرا اخر مــن المياه ثم جلست على السرير مرة اخرى ارقب فى انتباه غريب أى تأثيرات سريعة يمكن ان أحس بها ومضت عدة دقائق لم احس فيهـــا بشىء وبدأت المرحلة الثانية اخــذت عشر حبات لومينال تناولتهـا خمسة خمسة مع كوب مــن الماء ٠٠ ثم القيت الكوب فى جــــردل البـــول ٠
اذن فقد انتهى كل شىء ولم يعد هناك فرصة للتراجع ٠٠ ومن قال انى فكرت فى التراجع ٠٠ وحاولت ان امشى قليلا فى الزنزانة ولكنى بدأت احس بدوار يلف رأسى تماما مثلما كنت أحس وانا صغير بعد لعبة « دوخينى يا ليمونه » وزاد الدوار وبدأ السقف يميل ويهتز وكذلك الجــدران واسرعت ارقد على السرير واغمض عينى ٠٠ ولكن الدوار يزداد وعرق بارد غزير ينساب فى وقت حرج حبات منه الى شفتى واحس بطعم غريب ٠٠ كانت لدى رغبة جارفة فى ان أظــل واعيــا مدركا حتى اخــر لحظة ٠٠ كنت اريد ان اســـجل اللحظة الاخيرة ٠

ولكن رأسى تدور وجسدى يطير فى الهواء ، ما زلت ادرك انني فى الزنزانة ٠٠ اين ٠٠ لا أعرف ٠٠ هـــذا سرير ٠٠ وهذا جردل البول ٠٠ كل شيء واضـــح رغم هالة الغيم ٠٠ وماذا ٠٠ كل وماذا ٠٠ هـذه يدى ٠٠ وتلـك اصابعى ٠٠ خمسة ٠٠ للاتكلم ٠٠ ما هذا ٠٠ ستائر كثيفة الغيم تلف كل شيء ٠٠ بحر عميق ٠٠ خيالات ٠٠ شيء ينقص بقسوه ٠ امعائى ٠٠ اين رأسى ٠٠ تلك الموجه العاليه ٠٠ انها تقترب تغمرنى ٠٠ عبثا احاول ٠٠ اين ٠٠ من ٠٠ لا ٠٠
وضاع الزمان والمكان ٠

انا متهم وقضائي ذئبان
الليل أنا لا أملك حتى صمتي
فبعض الصمت يدوى فى ارجاء
الارض ويعلن موقف صاحبه
برضاه المذعن أو بالرفض .

عبد الرحمن الشرقاوى ـ
الحسين ثائرا .

٢٢ نوفمبر ١٩٦٢ .

لحظات غريبة نادرة هى تلك التى تفتح فيها عينيك ولا تعرف اذا كان ما تراه حقيقة او خيال .. انها لحظات بلا منطق بلا توازن بلا مقياس ، لحظة تبدا فيها طفلا رضيعا يرى ولا يعرف يسمع ولا يدرك ، وتنمو اللحظة فى دقائق يصل فيهاالطفل الى سن التمييز والنضج والادراك .

وعاد الزمان والمكان .. وبدات اعى ما حولى .

وظللت اتفرس بنظرات طويلة فى الوجوه المطلة حولى ، اتنقل من وجه لاخر وكأننى امر على صفحات بيضاء ليس فيها كلمة واحدة ، ثم أتذكر فجأة فأعود الى الوجه الذى تركته .. هذا طبيب السجن وهذا مدير السجن وهذا ، آه انه ضابط المباحث .. ولكن هذا الوجه جديد تماما . فلاتذكر لا .. بالتأكيد انه جديد .

واترك الوجوه التى تطل على وتنظر فيما بينها واجول فى المكان حولى .. صفين من الأسرة ، بعضها مشغول والبعض الاخر خال .. والسقف عال على غير العادة .. ثم ان هناك شبابيك .. نعم شبابيك وليست فتحات .. بالتأكيد اننى لست فى الزنزانة .. أين أكون .. وماذا حدث .. صمت غريب .. لا أسمع .. ووقر شديد فى الاذن وسمعت صوتا

خافتا قادما ٠٠ من بعيد ٠
ـ لقد انتظم النبض وبدأ يفيق ٠
والوجوه الملتفه حول السرير تتقارب ٠٠ يبدو أن بينهم حديث ٠٠ ولكنى لا اسمع شيئا ٠٠ ماذا جرى ٠٠ وحاولت ان اقوم واجلس على السرير ولكنى احسست برأسي ثقيلة كما لو كانت كتله من الحديد ٠٠ حتى يدى التى رفعتهاسرعان ما هوت الى جانبى فى وهن شديد ٠٠ واسرعت اكثر من يد تسندنى واقترب طبيب السجن من اذنى وقال شيئا ٠٠ ولم أسمع سوى موجات خافتة كانما تاتى من بئر عميق ٠
قلت : لا أسمع شيئا ٠
سمعت صوتى جيدا ، ولكن بطريقة غريبة ، لقد أحسست ان الكلام يخرج من بطنى وليس من فمى ٠٠ وقام الطبيب ببعض الحركات والاشارات وعرفت انه يطلب منى ان استريح تماما ثم ناولنى كوبا من اللبن الساخن ٠ أحضره التمورجى ٠٠ ومتنعت البدايه ثم بدأت ارتشف بعض القطرات على مضض وأحسست بأن حلقى ملتهب ومشروخ ، واخذ الطبيب يحثنى على استكمال الشرب ويشجعنى بحركات يده ٠٠ ورغم مرارة الحلق والشعور بالتقزز الشديد من طعم اللبن الا اننى واصلت الشرب فلقد كنت أحس بجفاف شديد فى عروقى ٠
وبدأت أدرك اكثر ٠
كان الانعكاس الاصفر الباهت على الشباك المجاور يوحى بأن الشمس على وشك المغيب ، وحامل الجلوكوز والخرطوم الصغير الممتد يؤكد اننى كنت وطوال فترة تحت العلاج المستمر ٠
واقترب الطبيب مرة اخرى وسمعت صوته هذه المره ولكن بصعوبة شديدة ٠
ـ انت احسن دلوقتى ٠٠ انقذناك باعجوبة ٠
وحاولت أن أنظف أذنى ٠
ـ لا معلهش ٠٠ ستظل أذنك ثقيلة لفترة ٠
واقترب مدير السجن وقال شيئا ٠٠ كما قال ضابط

المباحث شيئا اخر ولكنى اشحت بوجهى عنه ، وهذا الوجه الاخر الجديد قال بعض الكلمات ٠٠ لم استطع ان اسمعها جيدا ولكن فهمت من طبيب السجن انهم سيتركوننى لفترة ٠

وبدأت أستعيد حواسى شيئا فشيئا ، كانت رائحة الادوية أول ممارسة لحاسة الشم ٠٠ بل وسمت ضربات حذاء التمورجى وهو يتحرك وانتقلت من مرحلة التعرف الى مرحلة الادراك ٠ وبدأت اعى الموقف ٠٠ واتذكر تفاصيل ما حدث فى الزنزانة ، النوفالجين ، واللومينال والخطابات الثلاثة ٠٠ وبدأ التمورجى يكمل لى الحلقة المفقودة منذ فجر اليوم حتى مسائه ٠٠

لقد أكتشف شاويش العنبر وهو يفتح زنزانتى فى الصباح اننى لا أتحرك من السرير وحينما اقترب منى ليهزنى فوجىء بأن جسدى بارد ويدى تقع الى جانبى فصرخ الرجل ٠٠ وانقلب السجن كله ٠

وجاء الى زنزانتى مامور السجن والوكيل وكل الضباط وكل المظاهر حولهم تؤكد اننى فارقت الحياة ، ولكن الطبيب اكتشفت انه مازال هناك نبضا خافتا للغاية فنقلنى فورا الى مستشفى السجن واجرى غسيل معدة مرتين مع ملاحقتى بالجلوكوز وادوية اخرى طلبها من خارج السجن ٠ وعرفت من التمورجى ايضا ان الدكتور كمال طبيب السجن كان متوترا للغاية وكاد يفقد اعصابه اكثر من مرة مع ادارة السجن ومع ضابط المباحث الذى حضر بعد الحادث بقليل وانه كان يحملهم المسئولية طوال الوقت ٠

وعرفت ايضا انه منذ السابعة صباحا لم يتركنى طبيب السجن لحظة وانه اصر على ان يشرف بنفسه على عملية الانعاش التى اعقبت عملية الغسيل والانقاذ وكذلك مدير السجن ٠

كما ابدى التمورجى دهشته البالغة ليس فقط لاهتمام طبيب السجن والمدير بل وايضا والتليفونات الكثيرة التى تتوالى كل خمس دقائق تقريبا من جهات رسمية كثيرة تستفسر عن حالتى وقال الرجل الطيب وهو يناولنى كوبا دافئا من عصير الليمون ٠

ـ انت حاجة من اثنين .. يامهم قوى .. يا خطير قوى.

ولم اكن فى حالة تسمح بالرد على التمورجى فقد كان ذهنى يشتغل مرة اخرى بالاحداث والصور .. كان يغمرنى احساس مبهم بالسعادة لاننى عدت للحياة مرة اخرى بل واحسست للحظات بمعنى ان يولد الانسان من جديد ، ولكن موجة عاتية ومكثفة تحمل كل معاناة الشهور الماضية تجتاح هذا الاحساس فتكاد تقتله وكان السؤال يغمرنى بالكآبة والضيق .. وتسرى موجة باردة فى الجسد كله .

وجاء الدكتور كمال وحده هذه المرة ، وقاس النبض والضغط ، وابتسم مطمئنا ولكنه اكد ضرورة الحرص على الراحة وعدم مغادرة السرير اطلاقا واخذ يعتب على فيما فعلته مبتسما .

ـ لقد كنت ذكيا للغاية .. اخترت توقيتا جيدا .

ولم افهم ماذا يعنى الدكتور كمال وحاولت ان استفسر منه ولكنه قال ضاحكا .

ـ عقلك الباطن كان يعرف ماذا يفعل .. لقد اخذت الجرعة القاتلة قبل فتح الزنزانة بساعة : فقط ونصف ساعة اخرى قبل ذلك كانت كفيلة بالقضاء عليك .

وحاولت ان ارد فوضع يده على فمى .

ـ المهم ترتاح .. حققت غرضك وقلبت الدنيا كلها .

سأتركك الآن لارتاح انا الآخر .. وهناك اخرون يريدونك .. وكن هادئا ولا تنفعل .. وحيا الدكتور كمال ومضى .. وودعته بنظرة حب وتقدير حقيقى .. لقد اسأت فهمه طو الالشهرين الماضيين حينما كنت أشكو له حالى واطلب منه التدخل فيمد شفته السفلى ويشير بيده عجزا عن عمل اى شىء ، وفى فتره كنت أحسب انه يكمل دور ضابط المباحث ووكيل السجن .. كم هو رائع ان تكتشف انسانا وسط غابه كهذه .

وجاء ضابط المباحث وجاء معه الوجه الجديد .. ووراءه اخر يحمل شنطه ومعهم مأمور السجن . وحاول ضابط المباحث ان يقول كلاما ودودا ومره اخرى اشحت بوجهى عنه

ونظرت الى الناحية الاخرى فلم اكن على استعداد لان اسمع منه شيئا اخر .. وتقدم الوجه الجديد .
ـ وكيل نيابة الخليفة .

وفتح الكاتب المحضر .
وبدأت الاسئلة .. اسمك .. سنك .. عملك .. تهمتك ..

ـ اى تهمة .
ـ الجريمة التى دخلت من اجلها السجن ومدة الحكم .
ـ لا أعرف !
ـ لا تعرف .. ارجوك هذا محضر رسمى .
ـ حقيقة لا أعرف .. لست مسجونا ، ولم توجه لى أى تهمة ولم يصدر ضدى اى حكم .
ـ استاذ .. لا تضيع وقت النيابة .. ما هى مدة الحكم عليك .

ـ قلت لك أنه لم توجه لى اى تهمة حتى الآن انا معتقل منذ اربع سنوات ولم يجرى معى تحقيق .. وسيادتك اول مسئول قانونى التقى به طوال تلك الفترة .
ـ مش ممكن .. اربع سنوات بدون تحقيق .. لماذا لم يقولوا هذا .. واخذت اتأمل وجه الشاب وكيل النيابة .
كان فيما يبدو خريجا حديثا لم يمض عليه فى العمل وقت طويل ليكتسب خبرة ودرايه ببواطن الامور .
كانت ملامح وجهه البسيطة والمعبرة وانفعالاته البكر تشى بطالب مثالى ظل يجد طوال اربع سنوات ليحصل على درجة تؤهله لتحقيق طموحه فى ان يصبح وكيلا للنيابة .. وفى غمرة الدراسة والتفانى من أجل تحقيق الهدف لم يكن لديه الوقت لينظر حوله ، وليدرك ان القانون الذى تفوق فى دراسته يوضع على الرف ببساطه فى كثير من الاحوال .
والتفت وكيل النيابة الى مامور السجن يساله الحقيقة .
واكد المامور : هو معتقل وليس مسجون ...
وصرخ الشاب البكر وقد احس بأن مقدساته تنتهك .
ـ كيف ياحضرة المامور .. كيف يوجد فى سجنك انسان

لم يحقق معه ولم يصدر ضده اى حكم وليس على ذمة اية قضية ... كيف ... افتح محضر حالا مع السيد مأمور سجن مصر .

يا ابن البساطة والحقيقة لا تكن ساذجا الى هذا الحد ... وتدخل ضابط المباحث ليحاول ان يشرح لوكيل النيابة الشاب الموقف .

ــ الاستاذ معتقل بقرار جمهوري وفقا لقوانين الطوارىء .
أما مهمة سيادتكم فهى التحقيق في حادث الانتحار فقط .
ضربة اخرى اصابت مثاليات الشاب المنفعل والذى لم يكن قد جرب بعد فيما يبدو سلطة ضابط المباحث .. لقد تعلم في الكلية انه السلطة الوحيدة القادرة على تكليف التهمة وتوجيهها وان اجراءات وتحقيقات ضابط البوليس لا تتعدى كونها مجرد محضر اثبات قد لا يكون بعيدا عن الشبهات .. فكيف بهذا الضابط يكلمة بصيغة الامر وفى لهجة من يملك ويحكم .

وثار وكيل النيابة الشاب . واصر على ان يفتح محضرا مع مأمور السجن لوجود انسان غير متهم في جريمة ولم يصدر ضده حكم فى سجنه .. وعبثا حاول المأمور ان يشرح له الموقف ، وصمت ضابط المباحث بعد ان ادرك مدى الجدية والاصرار لدى وكيل النيابة .

وكان كل ما يهمنى فى تلك المعركة الساخرة هى الانفعالات الجديدة والحية التى تموج على وجه الوكيل الشاب .. انه نموذج اخر للدكتور احمد نائب القصر العينى وللآلاف من الشبان الذين ابتعدوا عن العمل فى السياسة واغرقوا أنفسهم فى دراستهم وتفوقوا فيها ، ثم يواجهون الحياة والتجربة ليدركوا ان هناك هوة واسعة بين مادرسوه وبين ما هو واقع بالفعل .. بل هى فى واقع الامر مأساة لجيل كامل من الشبان توهموا وأوهموا بأن الطالب للدراسة فقط وان السياسة شيء آخر ، وحينما تخرج طلاب الامس اكتشفوا ان دراسة الطب والهندسة والقانون والكيمياء لا يمكن أن تكون بمعزل عن واقع بلدهم وان عليهم مع الصدمات الاولى التى يواجهونها

ان يختاروا بين طريقين .. اما التكيف مع هذا الواقع الذى يلغى تخصصاتهم واحيانا انسانيتهم ويصبحون ادوات طيعة فى يد النظام الاشتراكى او الاصطدام معه والبحث عن طريق ليكون العلم فى خدمة الانســـان .

قلت رافعـا صــوتى وفى محاولة لوقف المهزلة اللامعقولة التى تجرى ·

ـ ياحضرة وكيل النيابة ، بدلا من اضاعة الوقت فى قضايا لا تملك ان تحسمها ولا السيد المأمور فانى ارجو من سيادتك اذا كنت متحمسا حقا لقضيتى ان تأمر اما بعلاجى فى احد المستشفيات الخاصة او بنقلى الى سجن الواحات ·

ـ لا ·· بل سأصدر امرى بالافراج عنك فورا ·

ـ يا حضرة !

ولكن صوتى تاه مرة اخرى فى موجة من الانفعال والحماس اجتاحت وكيل النيابة الشاب وهو يتكلم عن القانون وضرورة سيادة القانون و · · · · · · و · · · · · ·

وخرج ضابط المباحث .. وتبعه مأمور السجن ..

واندفع خلفهم وكيل النيابة الشاب وهو يصيح ·

ـ مش ممكن أسكت على الانتهاك ده ·· مسجون بدون تحقيق أو اقرار اتهام او حكم محكمة مش ممكن ··

وعاد الهدوء مرة أخرى بعد أن خرج الفرسان الثـلاثة ليواصلوا معركتهم فى حجرة المأمور ·· معركة غريبة حقــا تشترك فيها اجهزة السلطة ·· اى اجهزة ؟!

واذا قلنا ان وكيل النيابة الشاب يمثل السلطة التشريعية ومأمور السجن يمثل السلطة التنفيذية ·· فاى سلطة يمثلها ضابط المباحث ·· انه كل شيء ·· انه الخصم والحكم والقانون والتنفيذ ·· انه فرعون مصر ـ وامبراطور روما وقائد التتار وهتلر المانيا وسالازار البرتغال ·

كنت اعرف بالطبع من سينتصر فى تلك المعركة واشفق فى نفس الوقت على الشاب الذى قدس القانون ·

واحسست برأس ثقيلة وبجفون منهكة ··

وغبت فى نوم عميق ·

أترى أمنحه بيعه ذل ؟
بعدها آمن في بيتي وأهلي ...
مثل شاة في قطيع !!
عبد الرحمن الشرقاوي – الحسين ثائرا

ديسمبر ١٩٦٢ .

مربوط العينين ارقد على السرير والموسيقى تنبعث من الراديو المجاور وصمت مطبق في الساعة الاولى للعام الجديد .

أكثر من عشرين يوما منذ أن أجريت العملية في مستشفى الدمرداش ومطلوب مني ان اظل راقدا على ظهري بلا اى حركة قدر الامكان .

فقط منذ ايام سمح لي الدكتور فاروق حسني الاستاذ بطب الدمرداش بالحركة وبالذهاب الى دورة المياه .
ولكنها لم تكن أياما قاسية .

لقد اجريت العملية اخيرا بعد اكثر من ستة شهور من المعاناة والمعارك المتصلة .. بالرغم من المصيلحي وبالرغم من أمين زايد وبالرغم من كل الخطط القاسية التي وضعت باحكام وكانت كلها تهدف الى أن تكون عيني ثمنا لعقيدتي .

كان الاحساس بالانتصار يلون كل شيء ويملؤني بالاحساس بالثقة والقدرة .. واكتشف من خلال تجربتي الاخيرة ان الذي يملك القدرة على التضحية بحياته ويتخذ القرار وينفذه ، يملك وبنفس الدرجة القدرة على ان يحب الحياة ويلونها بطاقة امل لا تنفد ..

كان القرار بترحيلى الى مستشفى الدمرداش بعد اسبوع واحد من حادث الزنزانة هو بكل المعايير هزيمة لكل اعداء الحياة الانسانية والانسان ولكل اساليبهم التى مارسوها معى ..

وكان قرار الدكتور فاروق حسنى الاستاذ بطب عين شمس وزميلته المدرسة فى نفس الكلية فضحا وكشفا لما سبق أن ردده أمين زايد بأن حالتى ميئوس منها وبانه لا مناص من الاستئصال ..

حقيقة نجحوا فى تعطيل ستة أشهر كان المرض خلالها قد استبد بالعين واجرى فيها وفى أبصارها أكبر قدر من التخريب .. وحقيقة ايضا فرضوا على معركة قاسية مريرة خضتها اعزل من أى سلاح سوى الايمان بالانسان .. وحقيقة أيضا مرت على فترات احسست فيها بالضعف والخوف والقلق ولكن لم استسلم ، وكان أقصى ما وصلت اليه هو ان تنتهى حياتى قبل ان تنتهى قدرتى على التمسك بانسانيتى .

وعدت اسرح مع لحن جميل جاء معبرا تماما عن اللحظة التى اعيشها فى تلك الساعات الاولى من العام الجديد .

كان اهتمام الدكتور فاروق حسنى بل وهيئة التدريس فى طب عين شمس بحالتى تعويضا انسانيا عن المآسى التى عانيتها على يد أمين زايد الذى كاد يفقدنى الثقة فى الاطباء .

وبالرغم من أن الدكتور فاروق حسنى لم يعلق على ما سمعه منى عن الظروف التى مرت بى خلال الاشهر الماضية الا انه كان يؤكد دائما ان العملية لو اجريت قبل ذلك بعدة شهور لامكن انقاذ عينى تماما ... ولقد عرفت أن العملية التى أجريتها هى فقط لوقف المرض وتدهور الحالة أما ما فقدته من ابصار العين اليسرى فلم يعد من الممكن علاجه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليقلل من قيمة احساسى بالانتصار ، ولقد كان ذلك واضحا فى تصرفات الطرف الاخر .

فمنذ ذلك اليوم الذى نقلت فيه الى مستشفى سجن مصر بين الحياة والموت لم أر ضابط المباحث ولا أى مبعوث

آخر منهم .. لقد عرفت بعد ذلك ان الخبر قد انتشر وذاع بين كل الاوساط المحلية والعربية والعالمية وخاصة بعد ان نشرت جريدة الاخبار بناء على مبادرة من أحد الصحفيين الشرفاء ــ الخبر فى اليوم التالى للحادث .

بل واستطيع ان اقول ان تلك الحادثة نبهت المسئولين الى ما يجرى داخل المعتقلات فى الوقت الذى كان هنـــاك تفكير جدى فى الافراج ..

وقد تأكـد لى أن الاوامر الخاصـة بنقلى الى مستشـــفى الدمرداش جاءت من الرئاسة .. وبعد اجراء العملية بيومين جاءنى أبى بخطاب رسمى وصله من الرئاسة فيه :

« نجلكم قد نقل الى مستشفى الدمرداش واجريت لهعملية فى عينه كما انه يحظى بالرعاية الطبية الـــكاملة .. مـــع تمنياتنا بالشفاء .. »

وكان الخطاب ممهورا بامضاء على صـــبرى رئيس المجلس التنفيذى فى ج . ع . م ..

والحقيقة ان الفترة التى قضيتها فى مستشفى الدمرداش كانت فترة سلام نفسى رائــع .. ورغم أننى قضـــيت غالبية الفترة معصوب العينين الا أن قلبى كان ينبض بالحب والثقة والامل .

وجاء لزيارتى هذه المرة وفود من اهل القـــرية بل وبعض الاصدقاء الصحفيين والمثقفين .. وكانت احاديثهم الدافئـــة تنبض باحا سيس جديدة .. لم يكن هناك ذلك الخوف الكامل الذى كنت المســـه حتى فى احاديث الاهـــل فى الزيارات السابقة .

واذكر ان شابا من قريتى من طلبـــة الجامعة جاء لزيارتى ومعه عدد اخر من زملائه الطلبة ، وطوال الحديث كنت احس بلهجة التقدير العالية التى يحدثونى بها وفى المرة الوحيـــدة التى حاولت ان اتدخل كان ذلك لحرصى عليهم ولخوفى من ان يمسهم أى ضرر .. ولكنهم مضـــوا فى حديثهم غير آبهين بالمخاطر التى ذكرتها .

انتم الرواد .. لقد تحملتم عنا الكثير .

— لابد ان تخرجوا فورا من المعتقلات .. لانقبل ان تبنى الاشتراكية بدون الاشتراكيين الحقيقيين ·

وحينما كنت اختلى الى نفسى ولم يكن ذلك متاحا الا بعد منتصف الليل ، حين يتركنى الزوار ·· كنت استعيد تلك الصور الجديدة لاتأكد أن هناك شيئا جديدا بالفعل يجـرى فى المجتمع ·

فى الزيارات السابقة كان الخوف والقلق يسيطر ·· حتى كلمات ابى كان يختارها بعناية ·· كان اقسى ماكنت اسمعه ويمزقنى كلمة كان يقولها ضابط المباحث ويكررها الحـرس واحيانا يقولها أبى :

— لماذا لاتخرج ··· ان احدا لا يحس بك ·

لقد كانت كل المظاهر السابقة توحى بأن هذا صحيح ، ولقد كان احساسا قاتلا ينفذ كالسكين الحاد يعبث بكل المقدسات التى تحرص عليها وتضحى من أجلها ·· لااحد يحس بك وانت الذى تتحمل كل هذه المعاناه من اجل هؤلاء الذين لايحسون بك ·· ولكن هذه المرة اعادت كثيرا من الثقة بمغزى التضحية ·· فقد يفرض الخوف ستارا من الصمت لفترة ، ولكن اى بذرة خيرة لابد ان تنبت فى النهاية بل ويمكن ان تزهـــر وتثمر ·

لقد كان ما سمعته من الاهل والاصدقاء والمعارف والزوار واطباء المستشفى كفيلا بتجديد الثقة بالنفس وباهمية اعطاء المثل والقدوة ·

وعادت الموسيقى تسحبنى بانغامها الهادئة ·

لعلها اول بداية لعام جديد منذ اربع سنوات تفتح أمـــام القلب صفحات جديدة ناصعة بالحب ·

واصوات العربات فى شارع رمسيس تمرح بعد منتصف الليل والاغانى المتقطعة التى تشدوا بها المجموعات السهرانة·

كنت اسمعها واعيشها باحساس من يشاهد ويسمع فيلما سينمائيا جيدا يستغرق فى احداثه لحظات او ساعات ولكنـه سرعان ما يفيق ليدرك ان هـذا العالم الملون المتحرك حوله ما زال بعيدا عنه تفصله اسوار عالية وصحراء ممتدة ·

ولكنها كانت ليلة عيد ميلاد سعيد حقا .

ففي صباح ذلك اليوم امتلأ العنبر الصغير بمجموعة من اهل القرية جاءوا ومعهم سلال البرتقال والفطير المشلتت وعسل النحل واخذوا يوزعون على المرضات والمرضى ويملأون العنبر بمرحهم واصواتهم العالية .

قال عم عبده ابو حجاج وقد جرب السجن في المظاهرات التى اجتاحت مصر فى الثلاثينات فى عصر الطاغية صدقى باشا .

– ولا يهمك يا استاذ .. السجن للرجالة .

اما أنور شرف ابن خالى والفلاح الشاب فقد شغل نفسه بالحراس وراح يتقرب اليهم وينفحهم السجاير ومن حين لاخر يؤكد لهم ان من يحرسونه هو ابن عمته وكان ذلك مصدر فخرله .

بينما راح عمي ، وكان يعمل تاجرا للقطن ، يذكر اسماء عدد من زملائى فى الواحات من ابناء قرى المركز ويعطينى بعض رسائل من ذويهم ثم يقول ضاحكا :

– ياه .. فى كل بلد رحتها فيها واحد واللا اثنين .. انتو لكو شجره فى كل بلد .

واختى وقد صحبت معها ابنة الجيران الطالبة فى الجامعة وزوجتى بعد ذلك ، والتى لم اكن اعرفها حتى ذلك اليوم ثم وهى تهمس لاختى :

– عامل زى فيلم فى بيتنا رجل .

ثم اصرار الجميع على ان احكى كل شىء طوال السنوات الاربع الماضية وتعليقاتهم الساخرة احيانا وصمتهم الحزين احيانا اخرى .. وقد سمعوا من الشاعر الحديث معصوب العينين قصصا لم يقلها لهم شاعر القرية بربابته وبفرسانه العديدين .

كان يوما من أيام التعويض .. سيظل يذكره العاملون فى مستشفى الدمرداش .

أما بالنسبة لى فلقد كانت بداية مشرفة لعام جديد .

وسمعت صوت الممرضة

ـ استاذ ٠٠ انت لسة صاحى ٠٠ تعبان واللاحاجة

وقلت وانا اسحب الغطاء وفى صوت بين النوم واليقظة

ـ لا ابدا ٠٠ بس بفكر امتى هقدر اشوفك ٠٠ صوتك بيقول انك حلوة قوى . قالت بمزيج من المفاجاة والسخرية .

ـ بكره تشوفه لما الدكتور يشيل الزباط .. بس أوعى تتصدم ٠

ولم يكن هناك شىء يمكن ان يصدمنى بعد ذلك ٠

عدت الى سجن مصر بعد شهر قضيته فى الدمرداش فى اعقاب العملية ، وكان تقدير الدكتور فاروق حسنى ان العملية نجحت تماما فى وقف المرض وان كنت سأحتاج الى الاشراف والرعاية لمدة شهور وكان ذلك يعنى ان اظل فى المستشفى تحت المراقبة والعلاج ٠

ولكن الذين اجبروا على ارسالى لمستشفى الدمرداش بعد كل ما حدث لم يكن ليوافقوا على ان ابقى شهو رفى المستشفى وسط الاهل والاصدقاء ٠٠ فبعد اسبوع من فك رباط العين نقلت الى مستشفى سجن مصر وفى طريق العودة حدث شىء لا اعرف اذا ما كان مخططا ام لا ٠

فعندما انطلق بنا البوكس من مستشفى الدمرداش فوجئت بأنه يعبر نفق العباسية فى اتجاه مصر الجديدة بدلا من الاتجاه جنوبا وقبل ان اسأل وجدت البوكس امام مبنى السجن الحربى وتوجست أول الامر وخاصة بعد السمعة السيئة للغاية التى اكتسبها هذا السجن واخذت امهد نفسى لمرحلة جديدة من التعذيب البدنى ٠

ودخلنا البوابة وفوجئت بمنظر اخر ٠

عشرات من الزملاء الذين غادروا الواحات منذ عدة اشهر بعد ان « كتبوا المطلوب منهم» يمرحون داخل فناء السجن ٠٠ وكانت المفاجاة لوجودى بينهم لا تقل عن مفاجاتى بهذا الامر وقال أحد الزملاء :

ـ : انت ٠٠ كنت آخر واحد نتوقع حضوره هنا ٠٠ واين

مقالاتك الملتهبة فى مجلة الطريق .
قلت فى حسم :
– انا لم أكتب شيئا ولن اكتب شيئا
ولكن غالبيتهم هزوا رؤوسهم غير مصدقين .
لقد كانت اخر المعلومات التى وصلتنا عن هؤلاء الزملاء « المستنكرين » منذ شهور انهم فى القلعة تمهيدا للافراج عنهم ، وعرفت منهم انهم كانوا فعلا على وشك الخروج ، ولكن اساتذة « غسيل المخ » الذين كانوا يعطوهم المحاضرات اليومية رأوا بعد امتحانهم أنهم لم يتكيفوا بعد وأنهم يحتاجوا الى « كورس جديد » لكى يكونوا أكثر استعدادا وتأهيلا لمساعدة الأجهزة بعد ذلك فجاءوا بهم الى الحربى .

واخذت اقلب وجوه الامر ومجيئى الى الحربى .. هل تصور الاغنياء اننى قد أصبحت على استعداد المجتارب ؟ أم أنهم لعبة لتشويه مرقفى لدى الزملاء فى الواحات ..

لم تدم الحيرة طويلا .. فبعد اقل من ساعة جاء قائد الحربى ونادانى فى حوش السجن ثم قال :

– آسفين ، لقد جاءوا بك الى هنا عن طريق الخطأ .
وجاء البوكس .. واتجهنا الى سجن مصر .

وادرك الزميل الذى قال ملاحظته حقيقة الموقف ، فحرص على ان يصحبنى حتى البوابة الخارجية وشد على يدى قائلا :

– احنا فى داهيه .. معلهش ، قدراتنا كده .. البركة فيكوا انتوا .. خليكوا جدعان .

انتوا الامل .

أنتم نور العالم ، ولا حفاء
المدينة قائمة على راس جبل
وما من سراج ليوضع تحت
المكيال لكنه يرفع على المنار
ليرى به جميع من فى الدار .
الدار .

- المسيح -

مارس - يوليو ١٩٦٣

كالطفل التائه العائد لاحضان امه ، كعامل الترحيلة المغترب وقد لاحت قريته من بعيد ، كالحمل الوحيد الذى انفردت به الذئاب فى اعلى التل ثم فجاة ارعدت السماء وامطرت ووجد نفسه سالما فى النهاية فى الوادى .. كالحبيب الغائب الذى أمضه الشوق والمت به النوائب فى الغربة ثم اقترب من ارض الحبيبة وشم رائحتها .. مثل او ليس وهو على اعتاب طيبة بعد حروب طروادة ومشاق العودة ينادى على بنيلوب ..

هكذا كانت مشاعرى وانا أقف على بوابة سجن الواحات .

آخذ الرفاق بالاحضان واجول بعينى فى المكان وكل مترفيه ينبض بذكريات حية ولاتأكد اننى مرة اخرى مع رفاق الامل فى واحة الحب .

غريب هذا الشعور الذى اجتاحنى منذ غادرت القاهرة فى طريق العودة الى الواحات بعد حوالى خمسة شهور من المعارك الفردية المتصلة .. فاعطى ظهرى للقاهرة باضوائها وبكل مافيها من مظاهر الحياة ووجدانى كله معلق بحياة اخرى تفيض بالصدق وتحلم بالغد رغم الاسوار ورغم الصحراء المترامية الممتدة ..

وايقنت لحظتها اننى طوال تلك الشهور الخمسة ووسط دوامة المعاناه القاسية قد استطعت ان اتخلص من ادران النفاق

والمظاهر السطحية واننى باليقين سأظل أبحث عن الامـــل الحقيقى حتى ولو كان وسط صحراء قاحلة ٠

كان الرفاق يسالوننى عن الاخبار وعن القاهرة التى خلفتها ورائى وكنت انا مشوقا لان اتلمسهم واســـمع اخبارهم واحاديثهم ٠٠ اى نشاط قاموا به فى تلك الفترة ، وما هى اخبار المجلة والمسرح والمزرعة والاشياء الصغيرة التى خلفتها قبل أن أسافر ، والقصة التى لم تكتمل ومشروع دراســـة القرية الذى خططت له .

كانوا قد عرفوا كل شىء بالتفصيل ولم اعد بحاجة لان احكى ٠٠ بل سمعت منهم تفصيلات لم اكن اعرفها ٠

عرفت انه فى الوقت الذى كنت ادخل المعركة وحيدا فى سجن مصر كانوا هم فى الواحات لايكفون عن تقديم مذكرات الاحتجاج والتهديد باتخاذ اجراءات عنيفة من اجل انقاذ عينى٠

وعرفت انهم اقاموا احتفالا كبيرا ليلة ٢١ نوفمبر اى ليلة عيد ميلادى ورسم الفنان سعيد عارف صـــورة كبيرة لى علقت فى طرقة العنبر وانهم قصدوا بتلك الحفلة مظاهرة أمام الادارة ٠

أكد الزملاء ايضا ان موقفى فى سجن مصر والضجـة التى اثيرت حوله فى الداخل والخارج قد اوقفت نهائيـــا حملة التصفية وان الاوامر قـد صدرت من القيادة السياسية العليا للمباحث العامة بوقف اى عمليات من هذا النوع ٠

كان كل هـــذا يعطينى المبررات الكافية لانسى لحظـــة الضعف القاسية التى قررت فيها التخلص من الحياة ، ان تلك اللحظة لم تات بكل هذه النتائج فحسب سواء انقاذ ما امكن انقاذه من عينى او انقاذ زملاء اخرين من التعـــرض لنفس الاسلوب ــ بل لعل أهم نتيجة استخلصها لنفسى هى اننى لن استطيع ان اكون كاذبا مع ذاتى حتى ولو كان الثمن هـــو الموت .. ولعل الاخرين قد استخلصوا نفس النتيجة .

وبعد حوالى اسبوع من المشاعر المتدفقة بينى وبين الزملاء كنت أمر فيها كل ليلة على غرفة من الغرف أحكى التجربة ونخرج بالاستخلاصات بدأت امارس حياتى من جـــديد مثلما كنت أمارسها طوال السنوات الاربع الماضية، اعداد لمجلة الطريق

الاستماع الى عدد من الاذاعات العربية والاجنبية وتقـــديم التحليلات السياسية الخاصة بالوضع الداخلي والعالمي ثم الغرق فى القراءة ليلا ومحاولة استكمال بعض المشروعات والخطط الخاصة بالقصص او بالدراسات .

اما الموقف السياسى فقد كان محيرا حقا .

فمنذ ميثاق العمـــل الوطنى وقبله الاجراءات الاجتماعية الواسعة التى اتخذت وتم خلالها تاميم أكثر من ٨٠٪ من المرافق الصناعية والتجارية ، ثم مايعلن كل يوم من اجراءات أخـرى مع اللهجة الشديدة المعادية للامبريالية التى اتسمت بها الصحف واجهزة الاعلام ، كل ذلك كان يعمق من احساسنـــا بالحيرة حقا .

اننا نوافق على كل هذه الخطوات ، ولسنا فى حاجة حتى لأن نعلن ذلك .. فلماذا نظل فى المعتقل ؟ .

عامان مضيا منذ تلك الانعطافة الهامة فى السياسة الداخلية والخارجية ونحن مازلنا فى المعتقلات وكان شيئا لم يحدث .

هل حقيقة لأن هناك صراع داخل السلطة بين عبد الناصر وعدد من قادة الثورة من ناحية وعدد آخر من ناحيـة أخرى؟

ام ان الاجهزة ، وبالتحديد المباحث العامة ، طلبت تأخير الافراج عنا حتى لانخرج بشعور الابطال ؟

ام ان كل ما يتم ويعلن من اجراءات لايعدوان يكون تغييرا على السطح دون اجراء تغيير فى جوهر السلطة ؟

ان الصحف المصرية مليئة بالحديث عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والتحالف بين قوى الشعب العاملة وبالذات بين العمال والفلاحين بل وبالدور القيادى للطبقة العاملة .

وهى مليئة ايضا بالهجوم على القوى الاستعمارية والرجعية ليس فى المنطقة العربية وحدها بل وفى العالم كله .

ان ما كنا نكتبه فى جريدة المساء واعتبر فى ذلك الوقت انحرافا أقل بكثير مما يكتب اليوم فهل هى قضية شخصية اذن ؟ .

هل يمكن ان يكون مصطفى امين وعلى امين وصالح جودت

وغيرهم ممن كانوا يأخذون صف الملكية وصدقى ومحمد محمود من أعداء الحرية والديموقراطية قبل يوليو ١٩٥٢ هم أنفسهم الذين يدافعون عن الاشتراكية وتحالف قوى الشعب العامل ويفضحون الاساليب الاستعمارية .. بينما نبقى نحن فى المعتقلات وشعاراتنا تتردد فى كل مكان .

وعرفنا ان الكتاب الشرفاء فى الخارج كانوا يطرحون نفس القضية ويطالبون بسرعة الافراج عنا .. عبدالرحمن الشرقاوى نجيب محفوظ والدكتور محمد انيس ولطفى الخولى الذى كان قد أفرج عنه منذ سنوات .

كانت تصلنا من بعضهم رسائل شخصية توحى بقرب الافراج .. ولكن احدا لم يستطع ان يفسر لنا تماما الحقيقة وراء كل هذا التأخير ، انه ليس فى صالح احد ، فلا يمكن أن تكون فى معركة شرسة مع الاستعمار والرجعية وأعدى اعداء الاستعمار والرجعية ما زالوا فى السجون والمعتقلات .

وجاء الصيف بحدثين هامين .

أولهما : محادثات الوحدة التى جرت بين قيادة حزب البعث التى وصلت الى السلطة فى كل من سوريا والعراق وبين القيادة المصرية .

جرت المحادثات لعدة شهور ثم اعلن فجأة عن توقفها وفشلها .. وبعد ذلك بقليل بدأت الاذاعة المصرية تذيع محاضر المحادثات .. ولقد كشفت المحادثات عن بعض الجوانب الخفية التى كنا نجهلها .. كان من المعروف أن هناك التقاء جذرى فى منطلقات البعث والفكر الناصرى الجديد كما عبر عنه الميثاق .. فكلاهما يعبر عن اتجاه وطنى تقدمى فى حركة التحرر العربى ، وكلاهما يعبر عن أمانى البورجوازية الصغيرة فى بناء مجتمع مستقل تتوفر فيه بعض ملامح العدالة الاجتماعية ..

والغريب أن كلا من عبد الناصر وميشيل عفلق كانا يستخدمان فى تلك المحادثات التعبيرات الماركسية بل ويرجعون الى نصوص من لينين وستالين وماوتسى تونج .

ولكنهم اختلفوا رغم كل هذه الالتقاءات الموضوعية ، بل

وبدأت اجهزة الاعلام فى البلدين تتبادل الشتائم والهجوم مرة أخرى .

لقد كشفت لى تلك المحادثات عن حقيقة هامة ولعلها فسرت الكثير من الموقف المحير الذى كنا نتساءل حوله .

أن افتقاد الحركة الجماهيرية الواسعة فى العالم العـــربى جعل القيادات الوطنية حتى وهى تتطور وتنضـــج ، يتم ذلك بطرق علوية وذاتية دون وجـــود روابط وثيقة ودون اشراك جماهيرى واسع .. والنتيجة ان تظل هناك هوة واسعة بين الاقوال والافعال من ناحية ، وايضا ان يظل الخلاف والاتفاق مرتبطا الى حـد كبير بالزعامات الفـــردية وليس بالالتقاء الموضوعى .

ولقد كان ذلك فيما أعتقد هو السبب الرئيسى فى تأجيـل الافراج عنا وفى الخلافات التى نشـــبت بين البعث والقيادة الناصرية .

أن كل المعايير الموضوعية كانت تؤكد أن البعثيين والناصريين والماركسيين يقفون فى ذلك الوقت على ارضية مشتركة بغض النظر عن بعض الخلافات الفكرية والتفصيلية .

ولكن الصورة الواقعية كانت عكس ذلك تماما .

الناصريون يهاجمون البعثيين بشراسـة والبعثيون يردون الاتهامات بنفس العنف .. والماركسـيون غائبون فى اعماق سجون الواحات والمزة وبغداد .

فى الوقت الذى كان فيه الاستعمار الامريكى متعاونا مـــع الرجعية العربية يعمل بكل طاقة وجهد على استنزاف طاقات الجمهورية العربية المتحدة فى اليمن .

والحلف المركزى يواصل مؤامراته على سوريا والعراق بتفجير مشكلة الاكراد والمساندة الايرانية لهم وايضا بمحاولة انشاء دولة عميلة للبريطانيين فى عدن والقضاء على الشخصية العربية لامارات الخليج .

أما الحدث الثانى فقد تمثل فى الافـــــراج عن الزميلات المعتقلات فى سجن القناطر وكانوا حوالى ٣٥ زميلة .

ولقد كان للخبر دوى واسع بيننا .. فهذه أول مرة منذ أربع سنوات يتم فيها الافراج عن مجموعة كاملة وبذلك الشكل الواسع ودون أى شروط أوقيود .. وقد استخلصنا جميعا من ذلك أن الباب قد فتح اخيرا وهو وان كان للسيدات فقط الا انه لا يمكن أن يكون مجرد اجراء «شرقى» ، بالرغم أن مجموعة من الزملاء وعلى راسها الزميل نور غنيم أو نور اعدام كما كنا نسميه قد سخروا من استخلاصنا وراحوا يبررون الافراج عن المعتقلات بانه شىء خاص بمجتمع الحريم .. وحيث أن هذه أول مرة تعتقل فيها سيدات فانه لامر طبيعى أن يفرج عنهن بعد اربع سنوات .

وكانت هذه المجموعة الصغيرة لاترى أى أمل فى الافراج فى القريب .. كذلك فلقد كان للافراج عن الزميلات مغزى خاص لدى الكثيرين من الازواج والاخوة .

فمن بين حوالى ٤٠ معتقلة كان هناك حوالى العشرين منهن زوجات أو شقيقات او قريبات للزملاء المعتقلين .

فهناك اسماء حليم زوجة اسعد حليم ، وثريا حبشى زوجة فوزى حبشى ، وثريا ادهم زوجة حلمى ياسين ، وثريا ابراهيم زوجة الدكتور مختار السيد، وفاطمة زكى زوجة نبيل الهلالى، وسعاد بطرس زوجة شكرى عازر وشقيقة سعد بطرس ، وسميرة الصاوى زوجة أحمد طه ، وانتصار خطاب زوجة صلاح خطاب وزينات الضباغ زوجة اسماعيل المهداوى وليلى شعيب خطيبة رجاء طنطاوى وانجى افلاطون خطيبة الدكتور فوزى منصور .. ونوال الحملاوى زوجة عبد السلام مبارك .. وليلى عبد الحكيم شقيقة طاهر عبد الحكيم وعايدة بدر شقيقة أحمد بدر .

وكم كان أحمد طه سعيدا للافراج عن زوجته بعد أن اطمان الى أن ابنه عبد القادر الذى تركوه ولديه من العمر بضع سنوات لدى الجيران ، كذلك فوزى حبشى واسعد حليم الذى ولد ابنه فى السجن وقضى عاما مع أمه فى زنازين القناطر ..

وليلتها سهرت مع أحمد طه وقد كان سعيدا حقا وهو يحكي عن عبد القادر الصغير الذى حرم من الوالد والام فى ليلـــة سوداء ٠٠ ثم يسرح بفكره الى شبرا ويتصور لقاء عبد القادر مع امه بعد غيبه طويلة وبعد ان اصبح شابا فى الثالثة عشر من عمره ٠٠ ثم بين الحين والاخر يؤكد :

ـ لقد انكسرت الحلقة ٠٠ ســـــنخرج كلنا بالتاكيد ٠٠ قريبا ٠

وكأن بحـرا يندفع ، فوق
الزمان وترتفع ..
أيديهم العليا في سمـــاحة
الدنيا ، ويكذبون الموت .

بابلونيرودا

يناير ١٩٦٤ :

ايام خطرة بل ربما كانت اخطر ايام الاعتقال على الاطلاق.. نلتف حوله فى صالة القسم الخارجى فى المساء وهو يحكى لنا عن تجربة اعتقال سابقة له فى أوائل الخمسينات .

واتذكر هذه الكلمات للزميل الذى فقد حياته هذه المرة دون أن يجرب وللمرة الثانية تلك الايام الخطرة .. ايام يكون فيها الافراج على كل لسان وتشير كل الدلائل اليه بالمنطق البسيط ولكنك مازلت فى المعتقل .. وأعود الى وصف جميل .. انها أيام تفقد فيها التوزان ، فالشعور بالاستقرار الذى اكتسبته طوال ٥ سنوات فى المعتقل يتحطم ويحل محله شعور جديـد يتعلق بالامل الذى لاح فوق الشجرة .

ومن هنا تأتى خطورة تلك الايام حين تظل عينيك معلقة على العصفور فوق الشجرة وتتحول مشاعرك الى حرص وخـــوف وقلق على مصير ذلك العصفور ، فقد يطير وقد تقتله رصاصة رش من يد صبى .. وقد تنقض عليه حدأة كاسرة تســكت اغانيه الصغيرة قبل أن يتحول الى واقع حى .

وتتعقد المشكلة وتدخل فى دائرة أكثر تعقيدا حينما تتحول هذه الايام الى شهور بل والى حوالى العام .

هكذا قضينا الصيف والخريف من ذلك العام ، صـــوت العصفور على الشجرة يغنى بالافراج .. ويزداد سماعنا لتلك

الاغاني يوما بعد آخر ٠٠ ولكن عواصف الخريف بكل ماتخلطه من أوراق وتثيره من رمال تنقضى ويدخل الشتاء وتضطرف المساء لان نتدثر بأكبر قدر من البطاطين ، فشتاء الصحراء قاس بقدر قسوة صيفه ٠

اصبح الافراج على كل لسان بعد ان اصبحت كل المعايير والمقاييس الموضوعية للسياسة الخارجية والداخلية المعلنة تؤكد أن الشاذ الغريب هو بقاؤنا فى المعتقلات ٠٠

وايريك رولو الصحفى الفرنسى المشهور والمسئول عن قضايا الشرق الاوسط فى جريدة ليموند الفرنسية ، وهو بالمناسبة مصرى بالمولد والنشأة ، يأتى الى مصر ويلتقى بالرئيس عبد الناصر ويجرى حديثا هاما وخطيرا حول الاوضاع الداخلية والخارجية وتصورات عبد الناصر عن المعركة مع الاستعمار والصهيونية والرجعية ٠

ويسأل رولو فى آخر الحديث عن « المعتقلين الشيوعيين » فى الواحات :

ويجيب عبد الناصر بوضوح هذه المرة ٠٠ أننا بصدد تصفية المعتقلات وفى القريب ٠٠

وربما كان ذلك أول اعتراف رسمى منذ سنوات بوجود معتقلين ٠٠ قبل ذلك بعدة شهور وفى مؤتمر صحفى عالمى قال الرئيس عبد الناصر أنه ليس هناك فى مصر معتقلات ٠٠ !! وفسرنا هذا الحديث يومها بأنه دليل جديد على قرب الافراج رغم تجاهل وجود اكثر من ٦٠٠ معتقل فى ذلك الوقت غير حوالى مائتى مسجون سياسى ٠

ولكن القيادات السياسية فى المعتقل كانت تعرف ومنذ فترة أن هذا التأخير ليس مجرد تناقضات داخل اجهزة الحكم ٠٠ ولكن وراءها سبب آخر ٠

وقد ظلت القيادات متكتمة على هذا السبب فى اضيق الحدود ٠٠

بل لقد كانت هناك مراسلات طيلة الوقت بين القيادات السياسية داخل المعتقل وبين عبد الناصر والقيادات السياسية

فى الخارج ، وكان يقوم بدور الوساطة عناصر يسارية محترمة تؤمن بضرورة التلاحم بين الماركسيين والسياسة الناصرية الجديدة .. وكانت غالبية هذه العناصر اليسارية ممن لم يعتقلوا معنا اما نتيجة ارتباطات سابقة بتنظيم الضباط الاحرار أو لانهم ابتعدوا فى الخمسينات عن وجود أى علاقات تنظيمية مع الماركسيين .

ولم يكن احد يشك فى اخلاص هذه العناصر وهويتها التقدمية والوطنية .

باختصار كان المطلوب حل التنظيمات الماركسية قبل الخروج من المعتقل .

ولقد ظلت تلك المراسلات تدور فى تكتم شديد طوال اكثر من عام .

كانت الاتصالات تدور احيانا بصفة فردية واحيانا بصفة تنظيمية مع كل قيادات التنظيمات الموجودة أو بمعنى اصح التنظيمين الموجودين .

أحدهما يقوده فؤاد مرسى وأبو سيف يوسف واسماعيل صبرى عبد الله ، والثانى يقوده ابراهيم عبد الحليم وزكى مراد ومحمد شطا .

كان موقف التنظيمين قد اقترب كثيرا من الناحية السياسية خلال عامى ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ .

فكلاهما اعلن مساندته للميثاق وللاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى الخارج .

وكلاهما فى عدة بيانات صدرت اكد مساندته للتحولات الاقتصادية والتقدمية التى تجرى .

بل أن كلاهما اتفق على أن هناك ضربا لقطاعات من الرأسمالية ولكن الخلاف فى هذه القضية انحصر فى موقفين اساسيين .

موقف تنظيم الاغلبية وكان يرى ان التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تجرى ضربت فى الاساس الرأسمالية الكبيرة

فى الزراعة والصناعة والتجـــارة كما ضربت قطـــاعات من المتوسطة ذاتها وبذلك تفتح الطريق أمام بناء غير رأسمالى.

وموقف تنظيم الاقلية وقد كان يرى أن على رأس السلطة فى مصر (وبالتحديد قيادة عبد الناصر) مجموعة اشتراكية وان الاجراءات التى اتخذت هى ضرب لكل قطاعات الرأســـمالية وتحول نحو البناء الاشتراكى .

على أن هناك مجموعة ثالثة كانت تتشكل داخل التنظيمين فى شكل معارضة سياســـية ، وكانت افكار هذه المجموعة الثالثة التى لم يكن يربطها تنظيم واحد تتلخص فى ثلاث نقاط رئيسية :

* انه الاجراءات الاقتصادية والاجتماعيــة التى تمت ورغم طابعها الوطنى والتقـــدمى الا انها لا تلغى قوانين المجتمـــع الرأسمالى ، وضرب الرأسمالية الكبيرة فى الصناعة والزراعـــة وخاصة تلك التى كانت تتخذ مواقف معادية من قيادة الثورة لايعنى ان هناك نمو غير رأسمالى وأن قوانين الاســـتغلال قد الغيت .

* ان التأميم فى حد ذاته ليس اجراءا اشتراكيا أو غـــير رأسمالى ولكن العبرة بعـــلاقات الانتاج القائمة ٠٠ فالتأميم تلجأ اليه دول رأسمالية ودول اشتراكية ويظل الفرق بـــين الاثنين هو من المستفيد فى الواقع من التأميم !٠٠ فاذا كانت علاقات الانتاج القائمة مازالت علاقات رأسمالية واذا لم يكن هناك ذلك القدر من الديموقراطية التى تتيح للطبقة العاملة قيادة وتوجيه الاســـتثمارات المؤممة ، واذا ظلت القيادات البيروقراطيةوالقديمة هى التى تقود هذه المؤسسات فان الامر لايعدو ان يكون تنظيما رأسماليا لدفع الانتاج والتصـــنيع ولمواجهة متطلبات العصر ٠٠ وبالتالى فان حـــركة التأميمات الواسعة التى تمت لا تعدو كونها رأسمالية دولة .

ويؤكدون آراءهم هذه بكثير من الامثلة فى تاريخ الحـــركة الثورية وخاصة بعد ثورة فبراير سنة ١٩١٧ واقدام حكومة كيرنسكى فى روســـيا فى ذلك الوقت على تأميم عـــدد من

المؤسسات الاقتصادية وتعليق لينين على ذلك بأنها « رأسمالية دولة وان العامل الروسى لن يستفيد كوبكا واحدا ٠٠ » ٠

ويسوقون امثلة اخرى كثيرة من تأميمات تحدث وتتم فى مجتمعات رأسمالية بل واحتكارية ٠٠

★ النقطة الثالثة هى فيما يتعلق بالديمقراطية بأعتبارها من وجهة نظرهم هى حجر الاساس فى الحكم على كل ماحدث من تطورات ٠٠ فوجود ديموقراطية واسعة واعطاء الحق للطبقات الوطنية فى تشكيل تنظيماتها الجماهيرية والسياسية مع الغاء القوانين الاستثنائية والمحددة للحريات هى فقط الضمانة لدفع التطور الاجتماعى ولاعطاء الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت فاعلية حقيقة وعمقا يمكن بواسطتها اجراء تحولات جذرية فى علاقات الانتاج والتطور نحو مجتمع لا رأسمالى ٠

وفى أواخر عام ١٩٦٣ وفى مؤتمر علنى ، اعلن قادة تنظيم الاقلية حل نفسه تمشيا مع أفكاره بضرورة الاندماج ووحدة العمل التنظيمى مع « القيادة الاشتراكية على رأس السلطة » واعطى توجيهات لاعضائه فى الداخل والخارج بالانضمام الى الاتحاد الاشتراكى باعتباره الوعاء السياسى الذى يمكن أن يتحول الى تنظيم ثورى قائد بزعامة عبد الناصر ٠

واثار هذا القرار ردود فعل واسعة داخل المعتقل ٠

فقد اعلن بعض الافراد من داخل هذا التنظيم ، وبينهم عناصر قيادية رفضهم لقرار الحل وان كانوا لم يقدموا بديلا تنظيميا ٠

ولكن رد فعل القرار كان اكثر دويا بالنسبة للتنظيم الاخر (الاغلبية) ٠٠ فبالرغم من الاتصالات السرية التى كانت تجرى بين قيادة تنظيم (الاغلبية) وبين ممثلى السلطة فى الخارج ، وبالرغم من أن هذه القيادة فى غالبيتها لم تكن ترفض بشكل حاسم فكرة الحل طالما تتوفر هناك ظروفا موضوعية لذلك الا انها تمسكت على الاقل بفكرة ان قرار الحل لايمكن أن يتخذ داخل المعتقل تحت تأثير العزلة والتهديد ٠

كان أقصى ماوصلت اليه القيادة هو « الوعد » بعقد مؤتمر موسع بعد الافراج يناقش القضية ٠

وهكذا كانت الصورة فى الايام الاخيرة من عام ١٩٦٣ ٠

فريق اعلن بوضوح حل التنظيم والعمل تحت قيـــــادة عبد الناصر ٠٠

وفريق لم يرفض تماما فكرة الحل ولكنه رفض أن يكون ذلك ثمن الخروج وبالتالى أجل المناقشة التنظيمية ٠

ومجموعات كانت اصلا تنتمى الى الفريقين ، رفضت الحل وتمسكت بضرورة أن يظل هناك منبر مستقل للماركسيين وأن هذا لايمنع الدخول فى تحالف أو جبهة مع الاتحاد الاشتراكى باعتباره تنظيم السلطة الوطنية وأى تنظيمات أخرى ترفـــع شعارات وطنية ديمقراطية ٠

ولكن الجميع وقفوا فى ذلك اليوم من أيام ديســــمبر فى صفوف مهيبة فى حوش المعتقل ونحن نودع جثمان رفيق عزيز لفظ انفاسه الاخيرة بعد كفاح استمر اكثر من ٧٥ عاما ظــل فيها يحلم بمصر الاشتراكية ومصر الديمقراطية ٠
ووراء جثمان عم شعبان حافظ الذى لف فى علم مصر مشينا فى جنازة مشحونة تلف به حول عنابر السجن ويمشى معنـا الحرس والضباط وبعض المسجونين من الاخوان المسلمين ٠٠ وقبل أن يضعوا الجثمان فى البوكس تمهيدا لترحيله الى أهله فى الاسكندرية اخذنا ننشد ـ بصوت حزين نشـيد الوداع لذلك الرفيق البطل ٠

كان عم شـعبان يمثل بالنسـبة لنـا جميعا تاريخا ثوريا ونضاليا ٠
فمنذ العشرينات وحياة شعبان حافظ سلسلة من النضال والتضحيات من أجل مصر ، من أجل المطحونين والمسحوقين ، من أجل العمال والفلاحين ٠٠ فقد شارك مع حسنى العرابى وسلامةموسى وعبدالله عنان والشيخ صفوان أبو الفتحوالشيخ عبد اللطيف نجيب ـ من مدرسة القضاء الشرعى ـ وأنطون

مارون وغيرهم من أبناء مصر المخلصين أول تنظيم سياسي يتبنى الاشتراكية العلمية ويدعو الى الغاء الفوارق بين الطبقات والى مصادرة الملكيات الكبيرة وتوزيع الارض على الفلاحين وخلق مجتمع يعطى لكل حسب عمله ويأخذ من كل على حسب طاقته .

وظل ذلك الحلم يراود شعبان حافظ طوال اربعين عاما لم يكف فيها لحظة واحدة عن العمل من اجل تحقيقة .

ومنذ اصدرت محكمة جنايات الاسكندرية فى إكتوبر ١٩٢٤ حكمها على شعبان حافظ وزملائه بالسجن ، وهو يخرج ليناضل من أجل افكاره ويعود الى السجن مرة أخرى ..

ولكن عم شعبان ، الوحيد الذى كان رمز الاتصال نضال الاجيال ، شاء هذه المرة ان يموت فى السجن مخلفا وراءه ٧٥ عاما من المعارك المتصلة من أجل عمال وفلاحى ومثقفى مصر . ومنذ أسبوع واحد فقط وكنت اجلس اليه كعادتى مثلما يجلس التلميذ الصغير اسمع من فمه الخالى من الاسنان صورا من تاريخ نضال شعبنا الحى .. وقد قال يومها فى ضحكة الشيخوخة البريئة :

– كل امنيتى فى الحياة أن أموت فى المعركة .. اما انتم فستشهدون انتصار الحلم .. وستعيشون الاشتراكية .

نفس الامنية التى جالت فى ذهن القائد الكبير خالد بن الوليد .. لقد كافح خالد وناضل بسيفه المسلول من أجل القيم الجديدة والانسانية التى بشر بها الدين الجديد .. وكم كان حزينا أن يموت على فراشه .

ولكن شعبان حافظ مات فى المعركة .. وبين أيدى ابنائه واحفاده .

وفى مساء نفس الليلة ، والمعتقل يخيم عليه رنة حزن عظيم ، فوجئت بهم يطلبونى فى الادارة لاجهز نفسى للسفر الى القاهرة وكنت قد نسيت تماما ان الدكتور فاروق حسنى فى مستشفى الدمرداش قد اصر على أن يتابع الكشف على عينى كل شهر ، ولما كان ذلك يعنى أن ابقى فى سجن مصر فلقد

طلبت منه أن يزودني بكل التعليمات والعــلاج اللازم على ان اعرض عليه كل ستة شـهور .

وكانت اكثر من ستة شـهور قد انقضت منذ أن اجريت العملية .

وسافرت ليلتها الى القاهرة .. ومعى الحرس .

ومعى أيضا جثمان الاب العظيم شعبان حافظ .

فلتـــذكرونى بالنضـــال ..
فلتـذكرونى عنــدما تغــدو
الحقيقة وحدها حيرى حزينة .

فلتـــذكروا ثارى العظيم
لتاخـــذوه من الطغاة ، وبذاك
تنتصر الحياة .

عبد الرحمن الشرقاوى
الحسين شهيدا

٤ أبريل ١٩٦٤ :

أصبح الافراج أمرا مؤكدا .. ولكن متى ؟ .

اكثر من ثلاثة شهور وانا اعيش فى مستشفى سجن مصر .. وكل يوم اسمع انباء عن قرب الافراج .

فبعد أن انتهيت من الكشف مرة اخرى فى مستشفى الدمرداش والاطمئنان على حالة العين لم ارحل ثانية الى الواحات .

وحرصت المباحث العامة على أن ترسل هذه المرة احد ضباطها ليفسر لى الموقف خوفا من أى مضاعفات أخرى .

قال أن ابقائى فى سجن مصر هو فقط لان كشوف الافراج تعد ولم يعد هناك حاجة لترحيلى الى الواحات .

أبى واخوتى يحرصون على أن يرسلوا لى خطابات تؤكد أن الافراج وشيك ، بل وحضر أبى اكثر من مرة ووقف عند احدى التلال البعيدة التى تطل على مستشفى السجن واستجمع الرجل كل مالديه من صوت ، مثلما كان يفعل اهالى وزوجات

المسجونين ، ليبلغني أن صلاح نصر نفسه قد اكد الافراج عنا جميعا .

والصحف هي الاخرى توحي من خلال عرض الاحـــداث والاخبار بأن الافراج سيكون وشيكا .

فالانتخابات الجـــديدة لمجلس الامة قد تمت ، وهنـــاك تصريحات عن الغاء الاحكام العرفية وكل الاجراءات الاستثنائية المترتبة عليها .

والكل في انتظار خطـــاب عبد الناصر في ٢٥ مارس في افتتاح مجلس الامة ..

كل المؤشرات تنبيء بأن الابواب المغلقة على وشك أن تفتح .

حتى الدكتور كمال وضباط السجن بل والمسجونين انفسهم يعاملونني كضيف على وشك الرحيل .. وعم محمد الممرض العجوز يحجز معي موعدا للمرور على في المنزل لكي اكتب عن مشكلة ابنه في الجرائد !! ..

وتمر الايام ، واحاول جاهدا أن اخلق احساسا بالهـدوء والاستقرار الداخلي وسط كل تلك الدوامة التي توشـــك أن تقذفني مرة أخرى الى عالم أخر .. عالم يعيش بعيدا عـــن الاسوار والحرس والاوامر والقيد الحديدي ..

وكانت الظروف هي الاخرى قد تغيرت في مستشفى السجن منذ تركتها في العام الماضي .. معظم نزلاء المستشفى من طراز جديد .. غالبيتهم يشغلون مناصب كبيرة في الخارج ودخلوا على ذمة قضايا جديدة بدأ معدلها يزداد فيما يبدو في الايام الاخيرة .. قضايا تتعلق بالاختلاس أو سوء استخدام السلطة والتهريب .

كان هناك الدكتور السمنى وكيل وزارة الاصلاح الزراعي ومعه عدد من كبار موظفي الوزارة ..

وكان هناك رؤساء مجالس ادارات وباشوات سابقين وبعض الاجانب المتهمين بالتهريب .. وبحكم الزمالة في المستشفى التي كانت عنبرا ممتدا يحتوى حوالى ثلاثين سريرا متجاورة وايضا لانى لم أفقد طوال تلك السنوات حاســـة الصحفي الباحث عن الحقيقة فكونت علاقات بيني وبين غالبيتهم .

كان فيهم « البيك » المتحفظ الذى يصر على ان يعامل كل من فى المستشفى بما فيهم أنا ، بل وعلى رأسهم أنا ، كما لوكانوا من العاملين فى عزبته أو قصره .
وكان فيهم الموظف الكبير الذى اتهم بالاختلاس واستغلال مركزه وهو بالطبع لايكف عن اتهام النظام كله بأنه أصبح « شيوعيا » ولم يعد فيه مجال للكفاءات الخاصة من امثاله ولذلك اتهموه بالاختلاس !! .

على أن اظرفهم واخفهم دما هو المليونير بسيونى جمعة .. لم يفقد حيويته ولم يكتف بانزال اللعنات على المجتمع « الذى لايقدر كفاءته » أو النظام الذى يغلق أبواب الرزق امام « الكفايات » .. بل كان فى حالة مرح متصل .. يلقى بالنكت والقفشات ويكون مجموعة السهرانين بالليل ليحكى عن مغامراته التجارية والنسائية بلهجة بسيطة وبلا تعقيد أو محاولة لاخفاء الحقائق .
كان يقول وهو يضحك من اعماقه :

— اعمل أيه .. أنا راجل شاطر .. امسك التراب يبقى ذهب زى الملك الرومانى القديم .. اظن كان اسمه ميداس ..
وبسيونى جمعة شاطر حقا .. فى اعقاب الانفصال السورى صودرت ثروته وكانت اكثر من مليون .. وبدأ من الصفر وبعد سنتين صودرت ثروته مرة أخرى .. وكانت اكثر من مليونين هذه المرة .. ولكنه على يقين من أنه سيخرج يوم ما وسيتحول التراب مرة أخرى فى يده الى ذهب .

كيف ؟.. ويضحك المليونير المصادر .
— ماهى دى بقى الشطارة ..
— لكن كل شىء تقريبا اصبح مؤمما .

— ربنا يخلى الموظفين الكبار .. شوف فى بلدنا ابعد عن السياسة تكسب على طول الخط .
نصيحة يؤكدها دائما المليونير المصادر ثم يقول فى مزيج من السخرية والمرح :
— خمس سنين يا راجل علشان رأى .. اسمع لى دا غباء .

دا أنت لو خبط لك خبطة بمائة الف جنيه وانكشفت ديتها سنة واللا اثنين ... شوف بقى ضـــاع منك كام في الخمس سنين .

منطق !!

يشبه من الناحية الاخرى منطق الشاويش متى في الواحات حيث لم يكن عقله يستطيع أن يهضم أن هؤلاء الذين يضربون كل يوم ويحملون الحجارة ويقضون زهرة شبابهم في المعتقلات منهم الطبيب والمهندس والكاتب والضابط والطالب والعامـل وأن كل جريمتهم هي فكرة يحملونها في رؤسهم .

كان الشاويش متى يصيح .. عمرى ما شفت أغبى منكم !

وحـدث ...

في الساعة العاشرة من صباح يوم الاربعاء ٤ ابريل .. جاءني عم محمد الممرض لاهثا وهو يحتضنني .

ـ استاذ .. ألف مبروك .. افراج .

كنت اعرف كل شيء .. بل وعرفت من أخوتي بالامس ان بعض الزملاء الذين أفرج عنهم من الواحات زاروني في البيت على ظن منهم انه قد أفرج عني .. واكدوا انهم افرجـــوا عن دفعات كثيرة من الواحات .

ورغم هذا فلقد كان لكلمات عم محمد وقع المفاجأة ..

وتلفت وسط عنبر المستشفى في حالة تامة من انعدام الوزن .. وعقـلي تائه تماما لايعـرف فيم يفـكر .. والمرض واخرون يرددون كلمات التهاني ، وعم محمـد يلم حاجاتي بجوار السرير ويشدني من يدي لانزل ..وعند البوابة تسلمت « الامانات » الحقيبة المهلهلة تضم ملابس وجنيهان ونصف متبقية من حساب كانتين السجن .

وحرص مأمور السجن والضباط على توديعي وكان الوكيل اكثرهم اطراءا لى واصرارا على أن نلتقى في الخارج ..

وخرجت من البوابة ومعي حارس واحد وبدون قيود .

والقيت نظرة طويلة على السجن من الخارج .

كثيرا ما خرجت من هذه البوابة في الطريق الى القصر العيني

أو مستشفى الدمرداش أو الواحات ·· وكنت دائما اعود ·
ولكن هذه المرة ·· خروج بلا عودة ·
وانطلق بنا « الجيب » ·· شارع محمد على ثم شـــارع بور سعيد فميدان السيدة ·· واخيرا لاظوغلى ·
ونزلنا امام مبنى المباحث العامة ·
كنت هنا منذ خمس سنوات وسبع ايام ·

المبنى لم يتغير ·· والسلالم العريضة ·· على تلك الدرجة انكفأ الدكتور لويس عوض ·· منذ خمس سنوات وسبع أيام·
وسلمنى الحارس الى احدهم الذى قادنى الى أحدى الغرف ·
ورأيت ضابط المباحث الذى كان يزورنى فى القصر العينى وفى سجن مصر :
– الف مبروك ·
– شكرا ··
– ·· اخبار عينك ايه ؟ ..
– أحسن ··

وقدم ورقا وقلما وهو يبتسم ·
– تحب تكتب لنا بعض البيانات ·
وهززت رأسى وأنا ايضا ابتسم ·
واستوفى بياناته ·· السن ·· العمل ·· العنوان ·
ثم قام من مكتبه وصافحنى وهو يقول :
– آسف لكل ماحدث ·· كنت أقوم بواجبى الوظيفى ·

قلت له :
– وانا كنت أقوم بواجبى الوطنى ·
وخرج معى الى باب الغرفة وأشار بيده ·
– مع السلامة ·

وتحرك قدمى بضع خطوات فى الردهة ·· ثم وقفت اتلفت حولى ·· لا أحد ورائى وتحركت خطوات أخرى ·· لا أحـد يرقبنى ·· الكل مشغول بأعمال أخرى ·· واجتزت الردهة وبدأت انزل السلم العريض ·· وخيل لى أن احـــدا ينادينى والتفت ·· لا احد··

ونزلت الى الفناء ثم الى الباب الرئيسى .. وترام يمرق فى سرعة وضجة .. والشارع ملىء بالعربات والناس .. ونظرت الى الحارسين اللذين يقفان عند البوابة كأنما استاذنهما .. ولم يلتفتا الى .. وخطوت على رصيف الشـــارع .. خطوة ، اثنين .. اربعة .. خمسة .

وتحولت الى قطرة تائهة فى بحر الحياة التى يمتلىء بهـــا الشارع .. واسرعت اخترق الشارع الى الجهة الاخـــرى .. وكدت اصطدم بتاكسى .. وصاح السائق :

ـــ بطلوا الهباب اللى بتخدوه .. موتوا بقى !!

وابتسمت لوقاحة السائق ولما كان يمكن أن يحـــدث لوان الرجل لم يستطع أن يتفادانى .. واخذت جانبا على الرصيف ووضعت الشنطة على الارض .

كنت فى حاجة لان اتأكد انه قد أفرج عنى حقا .. مبنى المباحث قد ابتعد .. ولا احد خلفى . بل ولا أحد يهتم بى .. الشارع مزدحم على غير العادة بالناس والعربات .. واخرجت منديلا امسح بعض العرق .. وابتسمت طالبة صغيرة وهى تنظر الى وتشير لزميلتها .. واخـــذت افتش فى نفسى .. بالتأكيد هناك شىء ما اثار تلك الابتسامة ، ملابسى ، الجاكته طويلة اكثر من الجاكتات التى اراها ، ولكن هكذا كانت الامور منذ خمس سنوات .. والبدلة مكسرة .. كان لابد ان اكويها .. ولو .. ماذا قالت عنى الفتاة .. ربما قالت فلاح يأتى مصر لاول مرة .

وحملت الشنطة مرة أخرى وسرت فى اتجاه باب اللوق .

فكرت فى أن انادى تاكسى أو اركب اتوبيس أو ترام .. ولكنى لم استقر على شىء كانت قدماى تمضيان بلا تفكير وعيناى تجولان فى الشارع بلا هدف محدد .. واصطدمت بالمارة اكثر من مرة واعتذرت .. ولكن لم انادى تاكسى .. كنت اريد ان امشى .

وتوقفت مرة أخرى امام محل لعصـــــير القصب وطلبت « شوب » ثم وقفت أتامل نفسى وملابسى فى مرآة المحل ..

واعدت تصفيف شعرى وانفض الكثير من التراب والبقع فى الجاكته .

– استاذ .. العصير .

واخذت « الشوب » .

قال الرجل .

– حضرتك كنت معتقل .

وامتقع وجهى لذكر الكلمة وقبل أن أقول شيئا قال الرجل :

– اصل كل زمايلك فاتوا من هنا .. كلهم شربوا عصير .

وابتسمت فى بلاهة وخرجت مسرعا وناديت تاكسى .

– شارع ٢٦ يوليو يا اسطى .

واخذت نفسا عميقا بعد أن تركنا الشـــارع واختفى مبنى المباحث العامة .. ودخل التاكسى فى شارع هدى شعراوى ثم ميدان التحرير فالكورنيش .. واخـــذت احملق فى مبنى التليفزيون العملاق .. تركته مجرد ارض واسعة ووابورات تدك الاساس .. وقال السائق اشياء لم اسمعها كانت كـل حواسى تتركز فى عينى .. وكانت عينى تعيد اكتشـــــاف المرئيات .. الناس اكثر والشوارع ازحم والبنات احلى وخاصة فى « المينى جيب » .

ونزلت من التاكسى .. ووقفت امام العمارة .. لم ينقص حجرا واحدا حتى الشرخ فى زجاج البوابة لم يزداد .. ظل كما هو .. واسرعت الى الداخل وبدأت ارتقى الدرجات الاولى .

وشهدنى عم مدبولى من الخلف .

–نورت يا أستاذ .. ألف حمد الله على السلامة .

وخرج البواب من غرفته واحتضننى بعنف وهو ينادى على أختى .

وفتحت أبواب الشقق .. وانطلقت الزغاريد .. ووجـدت نفسى فى الدرجات الاولى وحولى جمهرة من الجيران ، وشقت أختى الجموع واخذتنى بين يديها .. ونزل ابى السلالم مهرولا وانكسرت نظارته .

وتحركنا درجة درجة حتى وصلنا الى الدور الثالث .

منذ خمس سنين وعدة ايام نزلت هذه الدرجات قفزا وهروبا من تشنجات اختى وبكاء سامح الصغير ..

ودخلت الشقة .. كانت مزدحمة واندفعت بغريزة مفاجأة الى غرفتى وأسرعت أختى تفتحها .

ووقفت على اعتاب الغرفة أتأملها واعيد اكتشافها .

كل شيء فى مكانه .. والسرير والمراتب المقلوبة .. والكتب الملقاة فى كل مكان .. وبقايا السجاير .. وكتاب كنت اقرأه

فى نفس الليلة .. فى مكانه ورائحة غريبة تملأ الغرفة .. وكدت أشم أنفاس الضابط ورجاله .. فى تلك الليلة الكئيبة منذ خمس سنوات .

قالت اختى :

– منذ تلك الليلة لم نفتحها .. لم اكن استطيع .

ثم أسرعت الى النافذة تفتحها ، وانهمكت فجأة فى ترتيب كل شيء بينما كانت الغرفة تموج بهواء جديد ..

فذلكة ختامية

من الناحية الفنية يعتبر الفصل الســـابق هو ختام تلك المرحلة أو تلك الملحمة ، أو تلك التراجيديا أو ســـمها كما شئت .

فبكل المعايير انتهى الحدث بالاسس المعترف بها فى البناء الدرامى .. بداية المشكلة ثم تعقدها ثم الوصول الى حل .

ولكن هذه المعايير تسقط تماما اذا كان العمل المقدم ليس بناء دراميا او قصصيا ورغم ماحفل به من وقائع ترقى الى هذا المستوى — ولكنه اولا واخيرا مرحلة تاريخية كاملة ، ولما كانت الوقائع التاريخية وخاصة اذا كان هناك التزام بسردها .. اكبر بكثير من مجرد اعتقال فرد أو مجموعة من الافراد والجماعات ثم الافراج عنها — فلقد وجدت القلـم يلعب فى يدى بعد أن وضعت السطر الاخير بل واحسست بقلق داخلى غير مريح .

وكان هذا يعنى أن هناك اشياء اخرى يجب أن تقال وان هذه الاشياء تفرض نفسها من واقع الالزام والالتزام .

الالزام طالما زعمت لنفسى فى المقدمة أن هذه المرحلـة من أخطر المراحل التى مرت بها مصر والعالم العربى فهنا يكـون لزاما على انأحاول أن اصل الىنتائج وضعتمقدمات بعضها ، ولم يكن من الممكن أن تبقى الحقيقة ناقصة مبتورة تحت دعوى أن الافراج قد تم فى أبريل ســـنة ١٩٦٤ .. أنه تاريخ هام ولاشك — ولكن الوقوف عنده يوحى كما لو أن فترة الاعتقال قد تحولت الى جملة اعتراضية بين قوسين دون أن يكون لها اثرا او تاثير فى مسار الاحداث .

بالتأكيد أن الامر لم يجر على هذه الصورة .

والالتزام بالاحساس بالمسئولية ازاء العمل المقدم فالقضية فى النهاية ليست رواية مثيرة ، رغم ماقد يكون فيها من اثارة

.. وليست عرضا لمعاناة ذاتية لفــرد أو مجموعة افراد .. ولانريد أن تكون مجرد صرخة من صرخات الاحتجاج على ماقـد حدث .. ولكنها فى الواقع قصة شعب باسره أو هكذا كانت ومازالت قناعتى .. قضية تعلو فوق كل الخلافات الفكـرية والايديولوجية فى الماضى والحاضر .. أنها قضية حضارية .. قضية تتعلق بالانسان المصرى .. بامكانيات تنظيم صراعاته وخلافاته على اسس حضارية بعيدا عن كل اساليب التعذيب والقهر البدنى والنفسى الذىمارسته أو تمارسه أو قد تمارسه أى سلطة فى الماضى أو الحاضر او المستقبل .

ولقد قيل ، وهو قول صحيح اعتقد انه من مأثورات جواهر لال نهرو ، أن السلطة مفسدة وان السلطة المطلقة مفســدة مطلقة ، ولعلهذا هو الدافع لان تلجأ غالبية النظم الحضارية سواء أكانت راسمالية أم اشتراكية الى محاولات التقليل من هذه المفسدة ومطلقاتها .

الدول الاشتراكية تحاول أن تواجه هذه المفسدة باكبر قدر ممكن من المشاركة الجماعية والجماهيرية ، وباكبر قدر ممكن من الاجراءات الاقتصادية واجتماعية التى تقلل أو تحد أو حتى تلغى الفوارق والامتيازات الطبقية .

والدول الراسمالية المتحضرة لديها هى الاخرى ماكينتهـا الخاصة متمثلا فى نظام الاحزاب والبرلمـانات والنقـابات والاتحادات والتى تخرج من خلالها دخان العادم القادر عـلى موازنة حركة الموتور أو بمعنى اخر حركة النهب والاستغلال الرسمالى .

ولست بالطبع ممن يبنون الاوهام او على اسـتعداد لان تخدعهم الواجهــات الديمقراطية التى تسـتخدمها الدول الراسمالية المتحضرة .

فحين يتكلم الانسان عن النظم الحضارية فان الامر هنا نسبى اذ لابد وان نتفقعلى ان هناكخطافاصلا ، وانلم يكن حاسما ، بين مجتمعات تسود فيها القيم الحضارية العـامة متمثلة فى الديمقراطية الاشتراكية أو حتى الديمقراطيات الراسـمالية

القائمة على نظرية « دخان العادم » وبين مجتمعات تنطلق فيها السلطة بلا حدود أو حواجز ، حتى ولو كانت حواجز شكلية .. ولايشك القارىء للحظة واحدة أن الديمقراطية الصحيحة فى مفهومى هى تلك التى تستمد معناها من ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، أى باختصار ـ الديمقراطية الاشتراكية .

ولكن أيضا لا اريد للقارىء أن يشك فى اننى خشن أواجه واقعا معينا ومرحلة معينة يكون من الصعب فيهما تحقيق الديمقراطية الاشتراكية فاننى أصوت على الفوز للنظام الرأسمالى الذى يضع فى اعتباره نظرية الشكليات الديمقراطية .

أن ذلك افضل بالتاكيد من نظام رأسمالى يعطى لنفسه تفويضا مطلقا تحت أى دعوى ، فهناك فرصة فى الاختيار الاول لحركة الجماهير ولسيطرتها على صمام « دخان العادم » ولحظتها تستطيع الجماهير أن تحطم الموتور الرأسمالى ذاته وتستبدله بطاقة اشتراكية جماهيرية .

حقيقة ان الثورة الاشتراكية لم تتحقق حتى الآن من خلال البرلمانات والانتخابات الرأسمالية ، هذا لو اسقطنا مناعتبارنا تجربة تشيلى المجهضة ، ولكنها أيضا مسألة واردة ليس من الناحية النظرية فحسب بل وأيضا من خلال دراسة صبوره لمجريات الامور فى بعض البلدان الرأسمالية وعلى وجه التحديد ايطاليا وفرنسا وبشكل احدث البرتغال واليونان .

وحين أمنت ومن خلال دراسة ووعى بواقع مصر وظروفها بالاشتراكية ، وبالاشتراكية العلمية كحل قومى وطبقى وانسانى لهذا الواقع وتلك الظروف فلقد آمنت وفى نفس اللحظة انه الحل الديمقراطى الاوحد .

ولم يحدث لمرة واحدة ان وجدت تناقضا فى فهمى للضرورة الاشتراكية وللمتطلبات الديمقراطية .

ولعلى لاأتجاوز الحقيقة اذا قلت أن الذين تصوروا انهم يبنون الاشتراكية قفزا على حرية الانسان وحركة الجماهير واعتمادا

على أجهزة سلطوية او منقطعة الجذور مع واقعها هم في النهاية أبعد الناس عن الاشتراكية أو بأقل المعايير وأكثرها تساهلا مشوهين لها .

فالاشتراكي الحقيقي بقدر ماهو وطني حقيقي بقدر ماهو ديمقراطي حقيقي ان هذه الحقائق الثلاث المتكاملة هي التي تعطي للاشتراكي أيضا عواطفه الأمميه الحقيقية .

والذين يبحثون عن تناقضات بين أن تكون اشتراكيا وديمقراطيا أو أن تكون وطنيا وأمميا هم العاجزون عن استيعاب وفهم الاسس الحقيقية للاشتراكية العلمية ..

ولكل هذا ولبعض منه ، فليس في نيتي أن أتخذ مسوح القاضي القادر على أصدار حكم في هذا الكتاب ، ان هذا لم يطرأ على الذهن ولم أسمح لنفسي بأن تغرق في متاهات لست قادرا عليها كما اني لست مؤهلا لها .

كذلك فلست ممن يريدون لأنفسهم موقف الشهادة سواء بالسلب او الايجاب لتأكيد التهمة او نفيها .

ان كل ماأحلم به من خلال ماقدمته هو أن أكون مجرد واحد من المحلفين الذين لعبوا دورا في القضية . . والقضية التي أعنيها ليست قضية الامس بل قضية اليوم والغد .

قضية اطمح ان يكون كل أبناء وبنات مصر مشاركين فيها شهودا ومحلفين وقضاه .. وأن يكون حكمهم « حتي لا يتعرض أي مصري أو مصرية لأى نوع من أنواع القهر البدني والنفسي لانهم يحملون رأيا يختلف مع الآخرين » تلك هي قضيتي واعتقد انها قضية الجميع .

واضعا في الاعتبار كل تلك الظروف .. فلقد وجدت انه من الافضل لو أجملت بعض الملاحظات السريعة التي واكبت هذه المرحلة وكانت بمثابة علامات طريق .

أولا : انه بعد تصفية معتقل الواحات ثم بعد ذلك الافراج عن المسجونين الشيوعيين الذين كانت قد صدرت بحقهم احكام . كان هناك قدر كبير من التفاؤل في أن مصر بازاء مرحلة انطلاق وطني ديمقراطي عارم وقد كان هناك مبررات قوية لهذا التفاؤل فصدر الدستور الذي يضع في صلبه عددا من الاسس

التى تدشن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت ، لذلك تلاحقت الاجراءات الخاصة بالمزيد من التأميمات والتشريعات التى كان من الممكن ان تضع حدا للنمو الرأسمالى ولكن الانعكاسات الحقيقية لتلك الاجراءات والتشريعات فى واقع الناس وحياتهم ظلت أقل بكثير ، اذ أن الذى أشرف على التنفيذ ظل فى الاساس هى نفس الاجهزة والقوى السابقة دون أن يطرأ على جهاز الدولة أو نظامه أى تغيير جذرى .

ثانيا : قامت التنظيمات الشيوعية او بمعنى أدق التنظيمان الشيوعيان بعد حوالى عام من الافراج أى فى سنة ١٩٦٥ بعقد مؤتمر موسع وقررا حل نفسيهما على أساس أن الاتحاد الاشتراكى العربى هو التنظيم الثورى المؤهل لكى يقوم بدور قيادى وطليعى وباعتباره تنظيم السلطة الثورية . ولقد كانت هناك أقلية فى التنظيمين تعارض الحل على أساس أن يبقى التنظيم الشيوعى مع الدخول فى جبهة متحدة مع الاتحاد الاشتراكى كمرحلة أولى ، ومن الممكن من خلال الجبهة وضع أسس التنظيم الثورى الواحد .

وبالرغم من أن هذه الاقلية سجلت رأيها الا انها لم تتخذ أى خطوة بعد قرار الحل فى اتجاه اعادة التنظيم .

ثالثا : بينما عاد الصحفيون الذين كانوا فى المعتقلات الى عملهم بعد أقل من شهر من الافراج عنهم وكذلك معظم المثقفين الا أن العمال فى غالبيتهم العظمى لم يعودوا الى أعمالهم السابقة، وظل الكثيرون من المعتقلين من العمال بلا عمل لسنوات بعد ذلك والتحق غالبيتهم بأعمال فى القطاع الخاص .

كذلك فان المدرسين وأساتذة الجامعات لم يسمح لهم بالعودة الى عملهم السابق فالحقوا بوظائف ادارية .

ومن الملاحظ أيضا انه بينما أعطيت عضوية الاتحاد الاشتراكى لعدد من المثقفين من المعتقلين والمسجونين السابقين الا انها حجبت بشكل شبه مطلق عن العمال .

كما عرف بعد ذلك ان كل من عاد الى عمله كان يشفع بقرار

العودة قرار سرى آخر يحذر من تولى الشخص أى مسئولية قيادية ! رغم ان وثيقة الحل كانت قد أعلنت ورغم الحماس المطلق للمعتقلين السابقين للتجربة .

رابعا : فيما عدا عدة شهور فيأواخر سنة ١٩٦٤ فانمعتقل القلعة وسجن طرة عادا من جديد يستقبلان نماذج من المعتقلين الشيوعيين تحت دعاوى كثيرة بلغت الى حد أ نأحد الزملاء — فرانسيس لبيب — اعتقل بتهمة أنه «يلسن» على النظام، واعتقل لفترة أيضا الزملاء الذين سجلوا رأيهم فى المؤتمر الموسع للتنظيم الشيوعى وكانوا ضد قرار الحل .

بل ان عددا من قيادات منظمة الشباب الاشتراكي وأساتذة المعهد العالى للدراسات الاشتراكية قد اعتقلوا سنة ١٩٦٦ تحت دعوى الترويج للمذهب الماركسى .

خامسا : حقيقة ضم الى التنظيم الطليعي والذى كان يضم كل المحافظين ورؤساء مجالس الادارات وقيادات الاجهزة عدد من الماركسيين ، ولكن هذا العدد الذى لم يتجاوز العشرين بأى حال من الاحوال كانت غالبيتهم من المثقفين ومن العاملين فى أجهزة الاعلام بوجه خاص .

ولقد كانت قيادة التنظيم السرى — ويعلم الله لماذا كان سريا رغم انه تنظيم السلطة — تختار نوعيات خاصة تثق فى ولائها . ولست أدرى أيضا لماذا يحلو للبعض دائما أن يقرن الماركسيون بالتنظيم السرى رغم أنهم كانوا فى غالبيتهم العظمى بعيدين عنه .

سادسا: ان ثورة ٢٣ يوليو هى فى النهايه ثوره وطنية تقدمية عملت بقدر طاقة وامكانيات قيادتها على ان تخطو فى طريق التطور الوطنى الديموقراطى وبالذات فى الستينات ، والأجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى تلك الفترة غيرت الكثير من أوراق الماضى ومؤلفاته .

ولكن ظل الاعتماد فى الاساس على الاجهزة الرسمية وكذلك

عدم الثقة فى ايجاد تنظيمات سياسية وجماهيرية ناضجة بما فى ذلك الاتحاد الاشتراكى نفسه هو الذى أعطى لكثير من قوى التخلف الفرصة الواسعة للهجوم على الثورة ومنجزاتها ، وهو نفس العامل الذى حـــال دون أن تلعب القـــوى الوطنيـــة والديمقراطية دورها الجماهيرى الحقيقى لتأصيل وتطوير تلك الافكار والمنجزات .

وأظن انه لا طريق أمامنا الان سوى أن نعرف كيف نختلف وكيف نتفق ولماذا نختلف ولماذا نتفق ؟ .. مع الغاء كافة القيود التى تمنع الانسـان المصرى من أن يعبر عن رايه صراحة دون أن يتعرض لاى شكل من اشكال القهر المادى والمعنوى .

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٣٦ / ١٩٧٥

طبع بمطابع مؤسسة روز اليوسف

كتب تحت الطبـع

- **المحرقـون بالزيت**
  مسرحية سياسية
- **الناصرية وتجربة الثورة من اعـلا**
  رسـالة الدكتوراه
- **الخـروج**
  شهادة سياسية قصصية